نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

الجزء الرابع والعشرون

تحقيق

الأستاذ عبد المجيد ترحيني

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه توفيقي

الباب السادس

من القسم الخامس من الفن الخامس

في أخبار إفريقية وبلاد المغرب ومَن وَليها من العمال، ومَن استقل منهم بالمُلك وسُميت أيامُهم بالدولة الفُلانية

قد ذكرنا فتوح إفريقية في خلافة عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ في ولاية عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح، في سنة ست وعشرين من الهجرة النبوية. وأوردنا ذلك هناك على سبيل الاختصار والإجمال. ونحن الآن نذكره في هذا الباب مبينًا.

ولم نقدم ذكر أخبار المغرب وملوكه على أخبار ملوك المشرق، إلا أنا لما ذكرنا أخبار الدولة الأموية بالأندلس ومن ملك الأندلس بعد بني أمية، احتجنا إلى ذكر إفريقية وبلاد المغرب، لتكون الأخبار يتلو بعضها بعضًا. ولم نقدم أيضًا ذكر الأندلس على إفريقية، مع كون إفريقية فتحت قبل الأندلس إلا للضرورة التي دعت إلى ذكر أخبار الدولة الأموية بالأندلس تلو الدولة العباسية. ولا ضرر في التقديم والتأخير، لأنا لم نجعل التاريخ على حكم مساق السنين بل على الدول. وأول دولة قامت على الدولة العباسية الدولة الأموية بالأندلس. ولنذكر الآن فتوح إفريقية، ومن وليها.

ذكر فتوح إفريقية

كان فتوحها في سنة سبع وعشرين، وذلك أن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ لما ولي الخلافة عزل عمرو بن العاص عن مصر، واستعمل عليها عبد الله بن سعد بن

أبي سرْح، وهو أخو عثمان لأمه. فكان عبد الله يبعث المسلمين في جَرائد الخيل[١] فيُصيبون من إفريقية. ويكتب بذلك إلى عثمان.

فلما أراد عثمان أن يُغزي إفريقية استشار الصحابة، فكلُّهم أشار عليه بإنفاذ الجيش إليها إلا أبا الأعور سعيد بن أبي يزيد فإنه كره ذلك. فقال له عثمان: «ما كرهت يا أبا الأعور من بعثة الجيش؟» قال: «سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: لا أُغزِيها أحدًا من المسلمين ما حَمَلَت عيني الماء ولا أرى لك خلاف عمر» وقام. ثم دعا عثمان زيد بن ثابت ومحمد بن مَسْلمة واستشارهما. فأشارا بإنفاذ الجيش.

فَندَب الناس إلى الغزو. فكان هذا الجيش يسمّى جيش العَبادِلة[٢]. خرج فيه من بني هاشم: عبد الله بن عباس وكان واليًا على المسلمينَ وعبيد الله بن عباس؛ ومن بني تَيم: عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، وعبد الرحمٰن بن صبيحة في عِدَّةٍ من قومه، ومن بني عَدِي: عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الرحمٰن بن زيد بن الخطاب، وعبيد الله بن عمر، وعاصم بن عمر في عدة منهم؛ ومن بني أسد بن عبد العُزَّى: عبد الله بن الزُّبير في عدة من قومه؛ ومن بني سَهْم: عبد الله بن عمرو بن العاص والمُطَّلب بن السَّائب أبي وَداعة، في عدة منهم. وخرج في الجيش مَزوان بن الحَكم، وأخوه الحارث، وجماعة من بني أُميَّة، والمِسْوَر بن مَخْرَمة بن نَوْفَل، وعبد الرحمٰن بن الأسْود بن عبد يَغُوث، وعدة من بني زُهرة؛ ومن بني عامر بن لُؤي بن غالب: السائب بن عامر بن هشام، وبُسْر بن أرْطاة؛ وعدة من بني هُذَيل، منهم أبو ذُؤَيب. خُوَيْلد بن خالد الهُذَلي - وتوفي بإفريقية وواراه في قبره عبدُ الله بن الزبير - وعبد الله بن أُنيْس وأبو ذَر الغِفاري، والمقْداد بن عمرو البَهْراني، وبلال بن الحارث المُزَني، وعاصم، ومعاوية بن حُدَيج، وفَضالة بن عُبَيد، ورُوَيفع بن ثابت، وجَرْهَد بن خُوَيلد، وأبو زَمْعَة البلوي، والمُسَيَّب بن حَزْن، وجَبَلة بن عمرو الساعِدي، وزياد بن الحارث الصُّدائِي، وسفيان بن وَهْب، وقيس بن يَسَار بن مَسْلمة، وزُهير بن قيس، وعبد الرحمٰن بن صَخْر، وعمرو بن عوف، وعُقْبة بن نافع الفِهْري. وخرج من جُهَينة ستمائة رجل، ومِن أسْلَم حمزة بن عمرو الأسْلَمي، وسَلَمة بن الأكْوع في ثلاثمائة رجل، ومِن مُزَيْنة

(١) الجريدة: خيل لا رجالة فيها؛ جمع جرائد.

(٢) سمي الجيش بهذا الاسم لكثرة من خرج فيه ممن يسمى عبد الله.

ثمانمائة رجل، ومِن بني سُليم أربعمائة رجل، ومِن بني الدِّيل وضَمْرة وغِفار خمسمائة رجل، ومِن غَطَفان وأشْجع وفزارة سبعمائة رجل، ومِن كعب بن عمرو أربعمائة رجل، وكانوا آخر من قدم على عثمان، والناس مُعرِّسون[١] بالجُرف[٢]، والجرفُ على ثلاثة أميال من المدينة.

وأعان عثمان الجيش بألف بعير من ماله، فحمل عليها ضعفاء الناس، وحَمَل على خيْل، وفرق السلاح، وأمر للناس بأعطياتهم. وذلك في المحرم سنة سبع وعشرين.

وخطب عثمان الناس ورغَّبهم في الجهاد. وقال لهم: «قد استعملت عليكم الحارث بن الحكم إلى أن تقدّموا على عبد الله بن سعد، فيكون الأمر إليه. واستودعتكم الله» وساروا حتى أتوا مصر.

فجمع عبد الله بن سعد جيشًا عَرمْرَمًا، وضمه إليه. فبلغ عسكر المسلمين عشرين ألفًا. واستخلف على مصر عُقْبة بن نافع، وتَوجَّه.

وحكى الزُّهْري[٣] عن ربيعة بن عباد الدِّيلي قال: لما وصلنا قَدَّم عبد الله الطَّلائع والمقدمات أمامه. وكنت أنا أكثر ما أكون في الطلائع. فوالله إنا لبِطَرابُلُس قد أصبنا من بها من الروم قد تحصنوا منا فحاصرناهم، ثم كره عبد الله أن يشتغل بذلك عما قصد إليه، فأمر الناس بالرحيل. فنحن على ذلك إذا مراكب قد أرست إلى الساحل فشددنا عليها، فترامى مَن بها إلى الماء. فأقاموا ساعة ثم استأسَرُوا فكتفناهم، وكانوا مائة. حتى لحق بنا عبد الله فضرب أعناقهم، وأخذنا ما في السفن. فكانت هذه أول غنيمة أصبناها.

ومضى حتى نزل بمدينة قابِس[٤] فحاصرناها. فأشار عليه الصحابة أن لا يشتغل

---

(١) معرسون: أي مقيمون.

(٢) الجرف: بالضم ثم السكون: موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام، به كانت أموال لعمر بن الخطاب ولأهل المدينة... والجرف أيضًا: موضع بالحيرة كانت به منازل المنذر... والجرف أيضًا: موضع قرب مكة كانت به وقعة بين هذيل وسليم. والجرف أيضًا: من نواحي اليمامة... والجرف: موضع باليمن... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) هو أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة الزهري أحد الفقهاء والمحدثين، والأعلام التابعين بالمدينة... كانت وفاته سنة ١٢٤هـ... (وفيات الأعيان ٤: ١٧٧).

(٤) قابس: مدينة بين طرابلس وسفاقس ثم المهدية على ساحل البحر فيها نخل وبساتين غربي طرابلس الغرب... (معجم ياقوت).

بها عن إفريقية، فسار وبثّ السرايا في كل وجه. وكان يُؤتَى بالبقر والشاء والعَلَف. قال: وكان ملكهم يُدعَى جُرْجير، وسلطانه من طرابلس إلى طنجة وولايته من قبَل هرقل. فلما بلغه الخبر بورود الجيوش الإسلامية، جمع وتأهب للّقاء، فبلغ عسكره عشرين ومائة ألف.

قال: ثم ذهبنا قاصدين عسكره على تعبئة، فأقمنا أيامًا تجرى بيننا وبينهم الرسل: ندعوه إلى الإسلام، وهو يستطيل ويتجبر وقال: «لا أقبل هذا أبدًا» فقلنا له «فخراجٌ تخرجه كل عام». فقال: «لو سألتموني درهمًا واحدًا لم أفعل» فتأهبنا للقتال بعد الإعْذار[1] منا. فعبأ عبد الله بن سعد ميمنته وميسرته والقلب، وفعل ملك الروم مثل ذلك. وتلاقى الجمعان في فَحْص[2] متسع يسمى بعقوبة، بينه وبين دار ملك الروم مسيرة يوم وليلة، وهي المدينة المساة سُبَيْطلَة[3]، وكذلك مدينة قرْطاجنّة، وهي مدينة عظيمة، شامخة البناء، أسوارها من الرخام الأبيض، وفيها العمُد والرخام الملون ما لا يُحصَى.

قال: ودامت الحرب بين الفريقين وطالت، وانقطع خبر المسلمين عن عثمان. فأنفذ عبد الله بن الزبير وصحبته اثنا عشر فارسًا من قومه. فسار يُجِد السير حتى قدم على المسلمين فوصل ليلاً. فسُروا به ووقع في العسكر ضجة، خافت الروم منها، وظنوا أنهم يحملون عليهم، فباتوا بشر ليلة. وأرسل ملكهم جاسوسًا يستعلم الخبر. فأعلمه أن نجدةً وصلت إلى المسلمين. وكان المسلمون يقاتلون الروم في كل يوم إلى الظهر، ثم ترجع كل طائفة إلى معسكرها وتضع الحرب أوزارها. فلما أصبح عبد الله بن الزبير، صلّى الصبح وزحف مع المسلمين وقاتل. فلقي الروم في يومهم أشد نكال. ولم ير ابن الزبير عبد الله بن سعد في الحرب فسأل عنه. فقالوا: «هو في خبائه وله أيام ما خرج منه» ولم يكُنْ ابن الزبير اجتمع به، فمضى إليه، وسلّم عليه، وبلغه وصية عثمان وسأله عن سبب تأخره. فقال: «إن ملك الروم أمر مناديًا فنادى باللغة الرومية والعربية: معاشر الروم والمسلمين: مَن قتل عبد الله بن سعد زَوَّجتهُ ابنتي، ووهبت له مائة ألف دينار» وكانت ابنته بارعة الجمال، تركب معه في الحرب، وعليها أفخر ثياب، وتحمل على رأسها مظلة من ريش الطاووس «وغير خافٍ عنك

---

(١) الإعذار: أي الإنذار.
(٢) الفحص: المتسع من الأرض.
(٣) سبيطلة: بضم أوله، وفتح ثانيه، وياء مثناة من تحت، وطاء مكسورة، ولام: مدينة من مدن إفريقية، وهي كما يزعمون مدينة جرجير الملك الرومي، وبينها وبين القيروان سبعون ميلاً... (معجم البلدان).

مَنْ معي، وأكثرُهم حديثو عهد بالإسلام، ولا آمَن أن يرغِّبَهم ما بذل لهم جرجير فيقتلوني، فهذا سبب تأخري». فقال له ابن الزبير: «أزِلْ هذا من نفسك، وَأمُرْ من ينادي في عسكرك ويُسمع الروم: معاشر المسلمين والروم: مَن قتل الملك فله ابنته ومائة ألف دينار، وواحدة بواحدة». ففعل ذلك. فلما سمع ملك الروم النداء، انتقل ما كان عبد الله يجده من الخوف إليه. وبقي القتال على ما كان عليه.

فَعَنَّ لعبد الله بن الزبير رأيٌ. فأتى عبد الله بن سعد ليلاً وقال له: «إني فَكَّرتُ فيما نحن فيه فرأيتُ أمرًا يطول والقوم في بلادهم والزيادة فيهم والنقصان فينا. وقد اتصل بي أنه نَفَّذ إلى جميع نواحيه بالحشد والجمع. وقد رأيت أصحابه إذا سمعوا الأذان أغمدوا سيوفهم ورجعوا إلى مضاربهم، وكذلك المسلمون، جريًا على العادة. والرأي عندي أن تترك غدًا إن شاء الله أبطال المسلمين في خيامهم بخيلهم وعُدَدهم، وتقاتل ببقايا الناس على العادة، وتطوّل في القتال حتى تتعب القوم. فإذا انصرفوا ورجع كلٌّ إلى مضربه وأزال لأمة[1] حَرْبه، يركب المسلمون ويحملون عليهم والقوم على غرة. فعسى الله سبحانه أن يُظفرنا بهم وينصرنا عليهم، وما النصر إلا من عند الله». فلما سمع عبد الله بن سعد ذلك، أحضر عبد الله بن عباس وإخوته والصحابة ورؤوس القبائل، وعرض عليهم ما أشار به ابن الزبير فاستَصْوبوا رأيه واستخاروا الله. وكتموا أمرهم وباتوا على تعبئة. ولجئوا إلى الله تعالى وسمحوا بنفوسهم في إعزاز دين الله وإظهار كلمته.

وأصبح أبطال الإسلام في خيامهم، وخيولهم قائمة معهم في الخيام. وخرج لفيف الناس إلى القتال، ومعهم عبد الله بن سعد وابن الزبير، فقاتلوا أشد قتال وكان يومًا حارًا فلقي الفريقان فيه التعب العظيم. وركب ملك الروم ومعه الصليب، وكان مُتوّجًا عندهم، عظيم القدر فيهم. وحرّض أصحابه على القتال. فاشتد الأمر في القتال حتى أُذّن الظهر فهمّ الروم بالانصراف جريًا على العادة. فداوم ابن الزبير القتال ساعة أخرى. فاشتد الحر وعَظُم الخَطْب حتى لم يبق لأحدٍ من الفريقين طاقة بحمل السلاح فضلاً عن القتال به. فعند ذلك رجعوا إلى خيامهم، ووضعوا أسلحتهم، وسيَّبوا خيولهم وألقوا أنفسهم على فُرُشهم.

فاستنهض عبد الله أبطال المسلمين. فلبسوا دروعهم وركبوا خيولهم في خيامهم. وتقدّم عبد الله بن الزبير في زي رسول، وقد لبس ثوبًا فوق درعه. وقال:

---

(١) اللأمة: الدرع الحصينة؛ أو هي عدة السلاح من رمح وخوذة وسيف ونبل.

«إذا رأيتموني قد قربت من خيام الروم فاحملوا حملة رجل واحد». فلما قَربَ من الخيام كبّر المسلمون وهلّلوا، وحملوا فأعجَلُوا الروم عن لبس دروعهم أو ركوب خيولهم. فانهزمت الروم، وقُتل ملكهم، وقتل منهم ما لا يُحصى كثرة وهرب من سلم منهم إلى المدينة، وغنم المسلمون ما في معسكرهم. وأُسرت ابنة الملك وأُتي بها إلى عبد الله بن سعد فسألها عن أبيها. قالت: «قُتل» قال: «أتعرفين قاتله؟» قالت: «نعم، إذا رأيته عرفته» وكان كثير من المسلمين ادّعوا قتله. فعرض عليها مَن ادّعى قتله فقالت: «ما من هؤلاء مَنْ قتله» فأحضر ابن الزبير، فلما أقبل قالت: «هذا قاتل أبي» فقال له ابن سعد: «ما منعك أن تُعلمنا بذلك لنفي لك بما شرطناه؟» فقال: «أصْلحك الله! ما قتلتُه لما شرطت، والذي قتلته له يعلم ويُجازي عليه أفضل من جزائك، ولا حاجة لي في غير ذلك» فنفَّله[1] ابن سعد ابنة الملك، فيقال إن ابن الزبير اتخذها أُم وَلد.

ثم نزل المسلمون على المدينة، وحاصروها حصارًا شديدًا حتى فتحها الله عليهم. فأصابوا فيها خلقًا كثيرًا، وأكثر أموالهم الذهب والفضة. فجمع عبد الله بن سعد الغنائم وقسمها بد أن خَمَسها. فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف دينار.

وبثّ السرايا والغارات من مدينة سُبَيطلة فبلغت خيوله إلى قصور قَفْصة. فَسَبَوْا وغنموا، وجازوا إلى مرْمَجَنّة[2]. فأذلت تلك الوقعة من بقي من الروم. وأصابهم رعب شديد فلجأوا إلى الحصون والقلاع. واجتمع أكثرهم بفحص الأجم حول الحصن، وهو من أعظم حصون إفريقية. وراسلوا عبد الله بن سعد أن يأْخذ منهم ثلاثمائة قنطارٍ ذهبًا على أن يكفّ عنهم ويخرج من بلادهم. فقبل ذلك منهم بعد امتناع. وقيل: إنه صالحهم على ألفي ألف وخمسمائة ألف. وقبض المال. وكان في شرط صلحهم أن ما أصاب المسلمون قبل الصلح فهو لهم، وما أصابوه بعد التَّرْداد[3] ردوه عليهم.

ودعا عبد الله بن سعد عبد الله بن الزبير وقال: «ما أحدٌ أحقّ بالبشارة منك، فامض وبَشِّر عثمان والمسلمين بما أفاء الله تعالى عليهم». فتوجه عبد الله يُجِدُّ

---

(١) نفّله: أعطاه زيادة على نصيبه الواجب له.

(٢) في معجم البلدان لياقوت: مرماجنة: بالفتح ثم السكون، وبعد الألف جيم ونون مشددة: قرية بإفريقية لهوارة قبيلة من البربر؛ قيل: بين مرماجنة والأربس مرحلة...

(٣) الترداد: المفاوضة.

المسير. فبعض الناس يقول: دخل المدينة من سبيطلة في عشرين ليلة، وبعضهم يقول: وافى المدينة يوم أربعة وعشرين، ولا يُستغرَب ذلك من مثله. فلما وصل المدينة أمره عثمان أن يصعد المنبر فيُعلم الناس بما فتح الله عليهم. فبلغ الزبير. فجاء إلى المسجد ونال من عثمان بكلمات، وقال: «بلغ من عبد الله بن الزبير أن يرقى موضعًا كان رسول الله ﷺ يطأه بقدمه! وددتُ والله أنّي متُّ قبل هذا»! وقيل: إنّ عبد الله لم يَرْقَ المنبر، وإنما وقف بإزائه وخطب، وعثمان على المنبر جالسًا.

قال: وكان فعْل عبد الله بن الزبير في القتال بإفريقية كفعل خالد بن الوليد بالشام، وعمرو بن العاص بمصر، رضي الله عنهم أجمعين.

قال: ثم انصرف عبد الله بن سعد إلى مصر إثر سفر ابن الزبير. قال: وكان مقام الجيش بإفريقية خمسة عشر شهرًا، ولم يفقد من المسلمين إلا ناس قلائل. ثم كان بعد ذلك من مقتل عثمان وخلاف عليٍّ ومعاوية ما قدمنا ذكره، إلى أن استقرّ أمر معاوية فاستعمل معاويةَ بن حُدَيج.

ذكر ولاية معاوية بن حديج الكندي وفتح إفريقية ثانيًا

كانت ولايته في سنة خمس وأربعين من الهجرة. وسبب ذلك أن هرقل صاحب القسطنطينية كان يُؤدَّى إليه من كل ملك من ملوك البر والبحر إتاوة معلومة في كل سنة. فلما بلغه ما صالح عليه أهل إفريقية عبد الله بن سعد بن أبي سرْح، بعث بطريقًا إلى إفريقية يُقال له «أوليمة» وأمره أن يأْخذ من أهلها ثلاثمائة قنطار ذهبًا كما أخذ منهم ابن أبي سرح. فنزل البطريق قَرْطاجَنَّة[1] وأخبرهم بأمر الملك. فأبوا عليه ونابَذوه[2] وقالوا: «الذي كان بأيدينا من الأموال فدينا به أنفسنا، والملك فهو سيدنا يأخذ منا كما كنا نعطيه في كل سنة». وكان القائم بأمر إفريقية بعد جرجير رجل يُقال له «جُناحَة»، فطرد أوليمة البطريق.

ثم اجتمع أهل إفريقية وولّوا على أنفسهم رجلاً يُقال له «الأطريون» وقيل فيه: «الأطيلون» فسار جناحة إلى الشام إلى معاوية بن أبي سفيان. فذكر له حال إفريقية

---

(١) قرطاجنّة: بالفتح ثم السكون، وطاء مهملة، وجيم، ونون مشددة: بلد قديم من نواحي إفريقية.. وهي على ساحل البحر، بينها وبين تونس اثنا عشر ميلاً... (معجم ياقوت).

(٢) نابذوه: أي فارقوه عن خلاف وبغض.

وسأله أن يبعث معه جيشًا من العرب. فوجه معه معاوية بن حُديج في جيش كثيف. فلما انتهى إلى الإسكندرية هلك جناحة.

ومضى ابن حديج حتى انتهى إلى إفريقية، وهي حَرْب، وقد صارت نارًا. وكان في عسكره عبد الملك بن مروان، ويحيى بن الحَكم، وكُرَيب بن إبراهيم بن الصباح، وخالد بن ثابت الفَهْمي. وقيل: كان معه عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن الزبير، وأشراف من جند الشام ومصر. فقدم ولا يشك أهل إفريقية أن جناحة معه. فنزل معاوية غربي قَمُونيَة[1] في سفح جبل على عدة فراسخ منها. فأصابه فيه نَوْءٌ[2] شديد فقال: «إن جبلنا هذا لَمَمْطور» فسُمِّي الجبل ممطورًا إلى اليوم. ثم قال: «اذهبوا بنا إلى ذلك القرن» فسمي أيضًا القرن[2].

وبعث ملك الروم بطريقًا يقال له نِجْفُور في ثلاثين ألف مقاتل. فنزل على ساحل البحر بسَنْطَبَرِيَّة. فبعث ابن حديج إليه خيلًا. فقاتلوه فانهزم وأقلع في البحر.

وقاتل معاوية أهل جَلُولاء[3] على باب المدينة. فكان يقاتلهم صدر النهار، فإذا مال الفَيْء[4] انصرف إلى معسكره بالقرن. فقاتلهم ذات يوم. فلما انصرف نسي عبد الملك بن مروان قوسًا له معلقة بشجرة. فانصرف ليأخذها، وإذا جانب المدينة قد انهدم. فصاح في أثر الناس فرجعوا. وكانت بينهم حرب شديدة وقتال عظيم حتى دخلوا المدينة عنوة، واحتووا على جميع ما فيها، وقتلوا المقاتلة، وسبوا الذرية. وقيل: بل كان معاوية بن حديج مقيمًا بالقرن وبعث عبد الملك بن مروان إلى جلولاء، في ألف فارس. فحاصرها أيامًا فلم يظفرْ بها. وانصرف الناس منكسرين فلم يسر إلا يسيرًا حتى رأى في ساقة الناس غبارًا كثيرًا، فظنوا أن العدو قد اتبعهم. فرجعوا فإذا مدينة جلولاء قد وقع حائطها من جهة واحدة. فانصرف المسلمون إليها فقتلوا من فيها وغنموا وسبوا. وانصرف عبد الملك إلى معاوية وهو معسكر بالقرن

---

(١) قمونية: بالفتح، وبعد الواو نون ثم ياء مخففة: مدينة بإفريقية... وقد قال بعضهم: إن قمونية هي المدينة المعروفة بسوس المغرب... (معجم البلدان).

(٢) القرن: أعلى الجبل.

(٣) جلولاء: بالمدّ: طسوج من طساسيج السواد في طريق خراسان، بينها وبين خانقين سبعة فراسخ، وهو نهر عظيم يمتد إلى بعقوبا ويجري بين منازل أهل بعقوبا ويحمل السفن إلى باجسرا.. وجلولاء أيضًا: مدينة مشهورة بإفريقية، بينها وبين القيروان أربعة وعشرون ميلًا، وبها آثار وأبراج من أبنية الأول، وهي مدينة قديمة أزلية مبنية بالصخر... (معجم البلدان).

(٤) الفيء: الظل.

ينتظره. فلما أتاه بالغنائم اختلفوا فيها. فقال عبد الملك: «هي لأصحابي خاصة». وقال ابن حديج: «بل لجماعة المسلمين». وكتب إلى معاوية بن أبي سفيان. فعاد جوابه: «العسكر رِدءٌ[١] السَّرية، فأقسم بين الناس جميعهم» فوقع سهم الفارس ثلاثمائة دينار.

قال البلاذري[٢]: أول من غزا صقلية معاوية بن حديج، بعث إليها عبد الله بن قيس، وسنذكر ذلك في أخبارها إن شاء الله تعالى.

قال: ثم انصرف معاوية بن حديج إلى مصر. فأقره معاوية بن أبي سفيان عليها، وعزله عن إفريقية، وأفردها عن مصر، واستعمل عليها من قِبله.

ذكر ولاية عقبة بن نافع الفهري وفتح إفريقية الفتح الثالث وبناء القيروان

قال: ثم أرسل معاوية بن أبي سفيان عُقْبَة بن نافع إلى إفريقية في سنة خمسين، وكان مقيمًا ببَرْقَة وزَوِيلة[٣] من أيام عمرو بن العاص فجمع من أسلم من البربر وضمه إلى الجيش الوارد عليه. وكان جملة الجيش الوارد من معاوية عشرة آلاف فارس من المسلمين. فسار عقبة إلى إفريقية فافتتحها، ووضع السيف حتى أفنى مَن بها من النصارى.

ثم قال: «إن إفريقية إذا دخلها إمام تَحَرَّموا بالإسلام، فإذا خرج منها رجع من كان أسلم منهم وارتد إلى الكفر. وأرى لكم ـ يا معشر المسلمين ـ أن تتخذوا بها مدينة نجعل بها عسكرًا وتكون عزَّ الإسلام إلى آخر الدهر» فأجابه الناس إلى ذلك.

---

(١) الرّدء: العيون.

(٢) هو أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادي البلاذري، أديب، شاعر، مؤرخ من أهل بغداد، سمع بدمشق، وبأنطاكية، وكان أحد النقلة من الفارسية إلى العربية، له من الكتب: كتاب البلدان الصغير، كتاب البلدان الكبير، التاريخ في أنساب الأشراف وأخبارهم وفتوح البلدان، وغيرها... وكانت وفاته سنة ٢٧٩ هجرية... (معجم المؤلفين ـ كحالة ٢:٢٠١).

(٣) زويلة: بفتح أوله، وكسر ثانيه، وبعد الياء المثناة من تحت الساكنة لام: بلدان. أحدهما زويلة السودان مقابل إجدابية في البر بين بلاد السودان وإفريقية.. وزويلة: مدينة غير مسورة في وسط الصحراء، وهي أول حدود بلاد السودان، وفيها جامع وحمام وأسواق... (معجم البلدان لياقوت).

ذكر بناء مدينة القيروان

قال المؤرخون: لما أراد عُقْبة بن نافع بناء مدينة القيروان وأجابه المسلمون إلى ذلك، أتى بهم إلى موضعها، وهو إذ ذاك شَعَارى[1] لا تُسلَك وقال: «شأنكم» فقالوا له: «إنك أمرتنا بالبناء في شعارى وغياض لا تسلك ولا تُرام، ونحن نخاف من السباع والحيات وغير ذلك من خَشاش[2] الأرض». وكان عقبة مستجاب الدعوة، فدعا الله عزّ وجل. وجعل أصحابه يؤمِّنون على دعائه. وكان في عسكره ثمانية عشر رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ، فجمعهم ونادى: «أيتها الحيات والسباع، نحن أصحاب رسول الله ﷺ، ارحلوا عنّا إنا نازلون. ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه». فنظر الناس في ذلك اليوم إلى السباع تحمل أشبالها، والذئاب تحمل أجْراءها، والحيات تحمل أولادها. فأسلم كثيرٌ من البربر. ونادى عقبة في الناس «كُفُّوا عنهم حتى يرتحلوا عنا» فلما خرج ما فيها من ذلك، جمع عقبة وجوه أصحابه ودار بهم حول المكان وأقبل يدعو الله ويقول: «اللهم املأها علمًا وفقهًا، واعْمُرْها بالمطيعين والعابدين، وامنعها من جبابرة الأرض» ثم نزل عقبة الوادي. وأمر الناس أن يختطوا ويقلعوا الشجر. قال: فأقام أهل إفريقية بعد ذلك أربعين سنة لا يرون بها حية ولا عقربًا.

قال: واختطّ دار الإمارة والمسجد الأعظم، ولم يُحدث فيه بناء، وكان يصلّي فيه وهو كذلك. فاختلف الناس في القِبْلة وقالوا: «إن أهل الغرب يضعون قبلتهم على قبلة هذا المسجد، فاجهد نفسك في أمرها» فأقاموا مدة ينظرون إلى مطالع الشتاء والصيف من النجوم ومشارق الشمس. فلما رأى عقبة الاختلاف اهتم لذلك وسأل الله تعالى، فأتاه آت في منامه فقال له: «يا وليّ رب العالمين، إذا أصبحت فخُذ اللواء واجعله على عنقك، فإنك تسمع بين يديك تكبيرًا لا يسمعه غيرك. فالموضع الذي ينقطع عنك التكبير فهو قبلتك ومحرابه مسجدك. وقد رضي الله عزّ وجل أمر هذه المدينة وهذا المسجد. وسوف يعزّ بها دينه ويُذل بها من كفره إلى آخر الدهر». فاستيقظ من منامه وقد جزع جزعًا شديدًا. فتوضأ وأخذ في الصلاة في المسجد وهو لم يُبْنَ بعد، ومعه أشراف الناس. فلما طلع الفجر وركع عقبة سمع التكبير بين يديه. فقال لمن حوله: «ألا تسمعون؟» قالوا: «لا نسمع شيئًا» فقال: «إن الأمر من عند الله عزّ وجل» وأخذ اللواء ووضع على عاتقه. وأقبل يتتبع التكبير بين يديه حتى انتهى إلى

(١) شعارى: واحدتها شعراء، وهي الأجمة. (٢) الخشاش: الحشرات والأفاعي.

محراب المسجد. فانقطع التكبير فركز لواءه وقال: «هذا محرابكم». ثم أخذ الناس في بنيان الدور والمساكن والمساجد فعُمرت. وكان دَوْرها ثلاثة آلاف باع وستمائة باع. فكملت في سنة خمس وخمسين. وسكنها الناس وعظم قدرها. وكان في موضع القيروان حصن لطيف للروم يسمّى قَمُونيَة.

قال: ودبر عقبة أمر إفريقية أحسن تدبير إلى أنْ عزل معاوية بن أبي سفيان معاوية بن حُديج عن مصر وولى مَسْلمة بن مُخلَّد الأنصاري مصر وإفريقية.

ذكر ولاية مسلمة بن مخلد

قال: ولما وصل مسلمة إلى مصر، استعمل على إفريقية مولًى له يُقال له دينارًا ويُكنى أبا المُهاجر، وذلك في سنة خمس وخمسين، وعزل عقبة. فلما وصل كره أن ينزل بالموضع الذي اختطه عقبة، فنزل عنه بمسافة ميلين. واختط مدينة وأراد أن يكون له ذكرها ويفسد ما عمله عقبة. فسماها البربر تيكيروان. فأخذ في عمارتها. وأمر الناس أن يخربوا القيروان ويعمروا مدينته.

وتوجه عقبة مغضَبًا إلى معاوية بن أبي سفيان. فقال له: «إني فتحت البلاد، ودانت لي، وبَنَيتُ المساجد، واتخذت المنازل، وأسكنتُ الناس. ثم أرسلتَ عبد الأنصار فأساء عزلي» فاعتذر إليه معاوية وقال: «قد رددتُك إلى عملك واليًا» وتراخى الأمر حتى توفي معاوية وولي يزيد ابنُه. فلما علم حال عقبة غضب وقال: «أدركْها قبل أن تهلك وتفسد» ورده واليًا على إفريقية.

ذكر ولاية عقبة بن نافع ثانية

قال: وكانت ولايته في سنة اثنتين وستين، فسار من الشام. فلما مر على مصر، ركب إليه مَسْلَمة بن مُخَلد وسلم عليه، واعتذر من فعل أبي المهاجر، وأقسم بالله لقد خالفه فيما صنع. فقبل عقبة عذره. ومضى مسرعًا حتى قدم إفريقية. فأوثق أبا المهاجر في الحديد، وأمر بخراب مدينته، ورد الناس إلى القيروان.

ثم عزم على الغزو وترك بالقيروان جندًا وعليهم زهير بن قيس ودعا أولاده فقال لهم: «إني بعتُ نفسي من الله تعالى بيعًا مربحًا أن أجاهد مَن كفر حتى ألحق بالله. ولست أدري أترونني بعدها أو أراكم، لأن أملي الموت في سبيل الله» ثم قال: «عليكم سلام الله، اللهم تقبل مني نفسي في رضاك».

ومضى في عسكر عظيم حتى أشرف على مدينة باغاية[١]، وقاتل أهلها قتالاً شديدًا، وأخذ لهم خيلاً لم ير المسلمون في مغازيهم أصلب منها. ودخل الروم حصنهم.

فكره عقبة أن يقيم عليه. فمضى إلى لميش، وهي من أعظم مدن الروم. فلجأ إليها من كان حولها منهم. وخرجوا إليه وقاتلوه قتالاً شديدًا حتى ظن الناس أنه الفناء. فهزمهم وتبعهم إلى باب حصنهم وأصاب غنائم كثيرة.

وكره المقام عليها فرحل إلى بلاد الزاب. فسأل عن أعظم مدائنهم قَدْرًا فقالوا: مدينة يقال لها أَرْبة[٢] فيها الملك، وهي مجمع ملوك الزاب، وحولها ثلاثمائة قرية وستون قرية كلها عامرة. فلما بلغهم أمره لجئوا إلى حصنهم، وهرب بعضهم إلى الجبال والوعر. فنزل عليها وقت المساء. فلما أصبح أمر بالقتال فكانت بينهم حروب حتى يئس المسلمون من الحياة. فأعطاه الله الظفر. فانهزم القوم وقُتل أكثر فرسان الروم. وذهب عزّهم من الزاب وذلوا آخر الدهر.

ورحل حتى نزل تاهَرْت[٣] فلما بلغ الروم خبره، استعانوا بالبربر فأجابوهم ونصروهم. فقام عقبة وخطب الناس وحرضهم على القتال والتقوا واقتتلوا فلم يكُن للروم والبربر طاقة بقتالهم. فقتلهم قتلاً ذريعًا وفرق جموع الروم عن المدينة.

ثم رحل حتى نزل طنْجَة. فلقيه رجل من الروم يقال له إيليان وكان شريفًا في قومه. فأهدى إليه هدية حسنة ولاطفَه ونزل على حكمه. فسأله عن بحر الأندلس. فقال: «إنه محفوظ لا يُرام» فقال: «دُلني على رجال البربر والروم» فقال: «قد تركت الروم خلفك وليس أمامك إلا البربر. وفرسانهم في عدد لا يعلمه إلا الله تعالى وهم أنْجاد البربر وفرسانهم» فقال عقبة: «فأين موضعهم؟» قال: «في السوس الأدنى[٤]»، وهم قومٌ ليس لهم دين، يأكلون المَيْتة، ويشربون الدم من أنعامهم. وهم أمثال

---

(١) باغاية: الغين معجمة، وألف، وباء: مدينة كبيرة في أقصى إفريقية بين مجانة وقسنطينية الهواء.

(٢) أربة: بالتحريك والباء الموحدة: اسم مدينة بالمغرب من أعمال الزاب، وهي أكبر مدينة بالزاب، يقال إن حولها ثلاثمائة وستين قرية... (معجم البلدان).

(٣) تاهرت: بفتح الهاء، وسكون الراء، وتاء فوقها نقطتان: اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب، يقال لإحداهما تاهرت القديمة وللأخرى تاهرت المحدثة بينها وبين المسيلة ست مراحل، وهي بين تلمسان وقلعة بني حماد... (معجم ياقوت).

(٤) السوس: بلد بالمغرب كانت الروم تسميها قمونية، وقيل: السوس بالمغرب كورة مدينتها طنجة، وهناك السوس الأقصى: كورة أخرى مدينتها طرقلة، ومن السوس الأدنى إلى السوس الأقصى مسيرة شهرين وبعده بحر الرمل وليس وراء ذلك شيء يعرف... (معجم البلدان).

البهائم، يكفرون بالله ولا يعرفونه» فقال عقبة لأصحابه: «ارحلوا على بركة الله». فرحل من طنجة إلى السُّوس الأدنى، وهو في جنوب مدينة طنجة التي تُسَمى تارودَانّت. فانتهى إلى أوائلهم فقتلهم قتلاً ذريعًا. وهرب من بقي منهم، وتفرقت خيله في طلبهم.

ومضى حتى دخل السُّوس الأقصى فاجتمع البربر في عددٍ كثير لا يحصيهم إلا الله تعالى. فقاتلهم قتالاً لم يُسمَع بمثله. فقتل خلقًا كثيرًا منهم. وأصاب نساءً لم يرَ الناسُ مثلهن. فقيل: إن الجارية كانت تساوي بالمشرق ألف مثقال وأكثر وأقل.

وسار حتى بلغ البحر المحيط لا يدافعه أحد ولا يقوم له. فدخل فيه حتى بلغ الماء لبَان[١] فرسه. ورفع يده إلى السماء وقال: «يا رب، لولا هذا البحر لمضيت في البلاد إلى ملك ذي القَرْنين مدافعًا عن دينك، ومقاتلاً مَن كفر بك وعَبَد غيرك».

ثم قال لأصحابه: «انصرفوا على بركة الله وعونه» فخلا الناس عن طريق عساكره هاربين. وخاف المشركون منه أشد مخافة. وانصرف إلى إفريقية. فلما انتهى إلى ماء اسمه اليوم ماء فرس ولم يكن به ماء، فأصابهم عطش أشفى منه عقبة ومَن معه على الموت. فصلّى ركعتين ودعا الله عزّ وجل. فجعل فرسه يبحث الأرض بيديه حتى كشف عن صفاةٍ[٢]. فانفجر منها الماء. وجعل الفرس يمصّ ذلك الماء فنادى عقبة في الناس أنْ احتفروا فحفروا سبعين حَسا[٣] فشربوا وأسْقَوا فسمّي ماء فرس.

وسار حتى انتهى إلى مدينة طُبْنَة، وبينها وبين القيروان ثمانية أيام. فأمر أصحابه أنْ يتقدموا فوجًا بعد فوج إلى إفريقية ثقةً منه بما دَوخ من البلاد، وأنه لم يبقَ أحدٌ يخشاه. وسار يريد تَهُوذة[٤] لينظر إليها وإلى بادس[٥]، ويعرف ما يسدهما من الفرسان، فيترك فيهما بقدر الحاجة. فلما نظر الروم إلى قلّة ما معه، طمعوا فيه وأغلقوا أبواب حصونهم دونه، وشتموه، ورموه بالنبْل والحجارة، وهو يدعوهم إلى الله عزّ وجل. فلما توسط البلاد بعث الروم إلى كَسيلة بن بهْرم الأوْرَبي وكان في عسكر عقبة.

---

(١) لبان الفرس: صدره. (٢) الصفاة: الحجر الصلد الضخم.

(٣) الحسا: الرمل المتراكم أسفله جبل صلد فإذا مطر الرمل تسرب الماء إلى أسفل فيمسكه الجبل، فإذ حفرت قليلاً بزغ الماء.

(٤) تهوذة: بالفتح ثم الضم، وسكون الواو، والذال معجمة: اسم لقبيلة من البربر بناحية إفريقية، لهم أرض تعرف بهم.

(٥) بادس: اسم لموضعين بالمغرب: بادس فاس.. وبادس الزاب... (معجم البلدان).

ذكر خروج كسيلة وقتل عقبة بن نافع واستيلائه على القيروان

كان كَسيلة هذا من أكابر البربر. وكان قد أسلم في ولاية أبي المهاجر وحسن إسلامه. وقدم عقبة فعرّفه أبو المهاجر بحال كسيلة وعظمه في البربر وانقيادهم إليه. فلم يعبأ به عقبة واستخف به وأهانه. فكان من إهانته له أنه أتى بغنم فأمر بذبحها، وأمر كَسيلة أن يسلخ منها شاة. فقال: «أصلح الله الأمير! هؤلاء فتياني وغلماني يكفونني المؤونة» فسبّه عقبة وأمره بالقيام. فقام مغضَبًا وذبح الشاة. وجعل يمسح لحيته بما على يديه من دمها. فجعلت العرب يمرون به ويقولون له: «يا بربري، ما هذا الذي تصنع؟» فيقول: «هذا جيد للشعر» حتى مر به شيخ من العرب فقال: «كلا، إن البربري يتواعدكم» فقال أبو المهاجر لعقبة: «ما صنعت؟ أتيت إلى رجل جبار في قومه وبدار عزه، وهو قريب عهد بالشِّرك، فأفسدت قلبه. أرى أنْ تُوثقَه كتافًا، فإني أخاف عليك من فتكه» فتهاون به عقبة.

فلما رأى كسيلةُ الرومَ قد راسلوه ورأى فرصة، وثب وقام في بني عمه وأهله ومَن اجتمع إليه من الروم. فقال أبو المهاجر لعقبة: «عاجِلْه قبل أن يجتمع أمره» وأبو المهاجر مع ذلك كله صحبة عقبة وهو في الحديد. فزحف عقبة إلى كَسيلة فتنحى عنه. فقال البربر له: «لِمَ تنحيت من بين يديه ونحن في خمسة آلاف؟» فقال: «إنكم كل يوم في زيادة وهو في نقصان، ومدد الرجل قد افترق عنه. فإذا طلب إفريقية زحفت إليه» وأما أبو المهاجر فإنه تمثل بقول أبي مِحْجَن الثقفي[(١)]: [من الطويل]

كفَى حَزنًا أنْ تَمْرِعَ الخيلُ بالقنا وأُتْرَكَ مشدودًا عليّ وَثاقيا[(٢)]

إذا قمتُ عَنّاني الحديد وأُغلقت مصارعُ من دوني تصُم المُناديا[(٣)]

فبلغ ذلك عقبة بن نافع. فأطلقه وقال له: «الحَقْ بالمسلمين فقم بأمرهم وأنا أغتنم الشهادة» فقال أبو المهاجر: «وأنا أغتنم ما اغتنمت» فصلّى عقبة ركعتين وكسر جفن[(٤)] سيفه. وفعل أبو المهاجر كفعله. وكسر المسلمون أغماد سيوفهم. وأمر عقبة أن ينزلوا عن خيلهم، ففعلوا وقاتلوا قتالاً شديدًا. وكَثر عليهم العدو فقُتلوا عن آخرهم ولم يفلت منهم أحد.

---

(١) أبو محجن الثقفي: هو من ثقيف وكان مولعًا بالشراب مشتهرًا به، وكان سعد بن أبي وقاص حبسه فيه... (طبقات الشعراء).

(٢) مزع الفرس: عدا سريعًا أو في خفة. (٣) عناني: أعجزني.

(٤) الجفن: غمد السيف ونحوه.

فعزم زهير بن قيس على قتال البربر فخالفه بعض أصحابه ففارق القيروان، وسار إلى برقة وأقام بها. وتبعه أكثر الناس. وأما كَسيلة فاجتمع إليه جمع كبير فقصد القيروان وبها أصحاب الأثقال والذراري من المسلمين. فطلبوا الأمان من كَسيلة فأمّنهم. ودخل القيروان واستولى على إفريقية. وأقام بها إلى أن قوي أمر عبد الملك بن مروان. فذكر عنده أمر القيروان ومَن بها من المسلمين. فأشار عليه أصحابه بإنفاذ الجيوش إليها، ليستنقذها من يد كسيلة. فاستعمل عليها زهير بن قيس.

ذكر ولاية زهير بن قيس البلوي وقتل كسيلة البربري

قال: ولما أُشير على عبد الملك بن مروان بإرسال الجيش إلى إفريقية، قال: «لا يصلح للطلب بثأر عقبة بن نافع من المشركين إلا مَن هو مثله في دين الله عزّ وجل» فاتفق رأيهم على زهير بن قيس، وقالوا: «هو صاحب عقبة وأعرفُ الناس بسيرته وأولاهم بطلب ثأره» وكان زهير ببرقة مرابطًا منذ قفل من إفريقية. فكتب إليه عبد الملك بالخروج على أعنَّة الخيل إلى إفريقية. فكتب إليه زهير يستمدّه بالرجال والأموال. فوجه إليه بالأموال ووجوه أهل الشام. فلما وصل ذلك إليه أقبل إلى إفريقية في عسكرٍ عظيم، وذلك في سنة تسع وستين. فبلغ خبره كَسيلة فجمع البربر وتحول عن القيروان إلى مَمش[1]. وجاء زهير فأقام بظاهر القيروان ثلاثة أيام حتى استراح وأراح. ثم رحل إلى كَسيلة. والتقيا واشتد القتال وكثر القتل في الفريقيْن. فأجلت الحرب عن قتل كَسيلة وجماعة من أصحابه. وانهزم من بقي منهم. فتبعهم الجيش فقتلوا مَن أدركوه.

وعاد زهير إلى القيروان. فرأى ملك إفريقية ملكًا عظيمًا، فقال: «إنما أحببت الجهاد، وأخاف أنْ أميل إلى الدنيا فأهلك» وكان عابدًا زاهدًا. فترك بالقيروان عسكرًا ورحل في جمع كبير يريد المشرق. وكان قد بلغ الروم بالقسطنطينية مسيره من برقة إلى إفريقية وخلوها، فخرجوا إليها في مراكب كثيرة من جزيرة صقلية[2]. فأغاروا على برقة وقتلوا ونهبوا. ووافق ذلك قدوم زهير من إفريقية فقاتلهم بمَن معه أشدَّ قتال. وترجل هو ومَن معه وقاتلوا فعَظم الخطْب. وتكاثر الروم عليهم فقُتل زهير وأصحابه، ولم ينجُ منهم أحد. وعاد الروم بما غنموه إلى القسطنطينية.

---

(١) لعلها ممسى كما ورد في معجم البلدان لياقوت: وهي قرية بالمغرب.

(٢) صقلية: بثلاث كسرات، وتشديد اللام والياء أيضًا مشددة: من جزائر بحر المغرب مقابلة إفريقية، وهي مثلثة الشكل بين كل زاوية والأخرى مسيرة سبعة أيام... (معجم البلدان).

ولما بلغ عبد الملك قتل زهير عَظم ذلك عليه، وكانت المصيبة به كالمصيبة بعُقْبة. وشغل عبد الملك عن القيروان ما كان بينه وبين عبد الله بن الزبير. فلما قتل ابن الزبير جهّز عبد الملك حسان بن النعمان إليها.

ذكر ولاية حسان بن النعمان الغساني إفريقية

قال: كان عبد الملك قد أمر حسان بن النعمان بالمقام بمصر في عسكر عدّته أربعون ألفًا. وتركه بها عُدة لما يحدث. فكتب إليه بالنهوض إلى إفريقية ويقول: «إني قد أطلقتُ يدك في أموال مصر، فاعطِ مَن معك ومن ورد عليك من الناس، واخرج إلى جهاد إفريقية على بركة الله». قال ابن الأثير[(١)] في تاريخه الكامل: إنه استعمله في سنة أربع وسبعين بعد مقتل عبد الله بن الزبير. وقال ابن الرَّقيق إنه ندبه إلى إفريقية في سنة تسع وستين. قال: فدخل إفريقية بجيشٍ عظيم ما دخلها مثله قط. فدخل القيروان وتجهز منها إلى قرْطاجَنّة.

ذكر فتح قرطاجنّة وتخريبها

قال: ولما دخل حسان إلى القيروان سأل عن أعظم ملك بقي بإفريقية. فقيل له: صاحب قرطاجنّة، وهي بلدة عظيمة، ولم تُفتح بعد، ولا قَدَر عليها عقبة. فسار إليها. وقاتل مَن بها من الروم والبربر أشد قتال. فانهزموا وركبوا في البحر. وسار بعضهم إلى صقلية وبعضهم إلى الأندلس. ودخل حسان قرطاجنّة بالسيف فقتل وسبى ونهب. وأرسل الجيوش إلى حولها. ثم أمر بهدمها فهدم المسلمون منها ما أمكنهم. ثم بلغه أن الروم والبربر قد اجتمعوا في صَطْفورة[(٢)] وبنزرت[(٣)]. فسار إليهم وقاتلهم، فهزمهم وأكثر القتل فيهم. واستولى المسلمون على بلادهم. ولم يترك موضعًا منها حتى وطئه. فخافه أهل إفريقية خوفًا شديدًا. ولجأ المنهزمون من الروم إلى مدينة

---

(١) هو أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري، الملقب عز الدين.. كان إمامًا في لفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به، وحافظًا للتواريخ المتقدمة والمتأخرة، وخبيرًا بأنساب العرب وأخبارهم وأيامهم ووقائعهم، صنّف في التاريخ كتابًا كبيرًا أسماه «الكامل»... (وفيات الأعيان ٣:٣٤٨).

(٢) صطفورة: بالفتح ثم السكون، والفاء، وبعده واو ساكنة، وراء مهملة، وهاء: بلدة من نواحي إفريقية... (معجم البلدان).

(٣) بنزرت: مدينة بإفريقية بينها وبين تونس يومان، وهي من نواحي صطفورة مشرفة على البحر... (معجم ياقوت).

باجَة[١] فتحصنوا بها. وتحصن البربر بمدينة بُونَة[٢]. وعاد حسان إلى القيروان فأقام بها حتى أراح واستراح.

ذكر حروب حسان والكاهنة وتخريب إفريقية وقتل الكاهنة

قال: ثم قال حسَّان للناس: «دلوني على أعظم مَن بقي من ملوك إفريقية» فدلّوه على امرأة تملك البربر تعرف بالكاهنة، وقالوا: «إنها بجبل أوراس، وهي بربرية اجتمع البربر عليها بعد قتل كسيلة». وكانت تخبر بأشياء فتقع كما أخبرت عنها. وعَظَّموا محلَّها عند حسان وقالوا: «إنْ قتلتَها لم تختلف البربر بعدها عليك». فسار إليها. فلما قاربها هدمت حصن باغاية[٣]، ظنًا منها أنه يريد الحصون. فلم يعرج حسان على ذلك وسار إليها. فالتقوا على نهر نِينِي واقتتلوا أشد قتال. فانهزم المسلمون وقُتل منهم خلْق كثير وأُسرت جماعة من أصحابه. فأكرمتهم الكاهنة وأطلقتهم إلا خالد بن يزيد القيسي، وكان شريفًا شجاعًا فاتخذته ولدًا.

وسار حسان منهزمًا وفارق إفريقية. وكتب إلى عبد الملك بما كان من أمره. فأمره بالمقام إلى أنْ يأتيه أمره. فأقام بعمل برقة خمس سنين فسُمِّي ذلك المكان قصور حسان. وملكت الكاهنة إفريقية كلها وأساءت السّيرة في أهلها.

ثم بعث عبد الملك إلى حسان بالأموال والجيوش. وأمره بالمسير إلى إفريقية وقتال الكاهنة. فسار إليها. فقالت الكاهنة لقومها: «إن العرب يريدون البلاد والذهب والفضة، ونحن إنما نريد المزارع والمراعي، ولا أرى إلا خراب إفريقية حتى ييأسوا منها». وفرقت أصحابها ليخربوا البلاد فخربوها، وهدموا الحصون، وقطعوا الأشجار ونهبوا الأموال. قال عبد الرحمٰن بن زياد بن أنْعُم: «وكانت إفريقية من طرابلس إلى طنجة ظلاً واحدًا وقرى متصلة، فأخربت ذلك». فلما قرب حسان من البلاد، لقيه جمع من أهلها من الروم يستغيثون به من الكاهنة. فسره ذلك. وسار إلى قابس. فلقيه أهلها بالأموال والطاعة، وكانوا قبل ذلك يتحصنون من الأمراء. فجعل فيها

(١) باجة: في خمسة مواضع؛ منها: باجة، بلد بإفريقية تعرف بباجة القمح سميت بذلك لكثرة حنطتها بينها وبين تونس يومان... (معجم البلدان).

(٢) بونة: بالضم ثم السكون: مدينة بإفريقية بين مرس الخرز وجزيرة بني فرغناي، وهي مدينة حصينة مقتدرة كثيرة الرخص والفواكه والبساتين القرينة... (معجم ياقوت).

(٣) باغاية: مدينة كبيرة في أقصى إفريقية بين مجانة وقسنطينية الهواء... (معجم البلدان).

غلامًا. وسار على قفَصْة[١] فأطاعه من بها. واستولى عليها وعلى قَسْطيلية[٢] ونَفْزاوة[٣].

وبلغ مقدمه الكاهنة، فأحضرت ولدين لها وخالد بن يزيد وقالت لهم: «إنني مقتولة، فامضوا إلى حسان وخذوا لأنفسكم منه أمانًا» فساروا إليه. فوكل بولديها من يحفظهما. وقدم خالد بن يزيد على أعنّة الخيل.

وسار حسان نحو الكاهنة فالتقوا واقتتلوا، واشتد القتال وكثر القتل حتى ظن الناس أنه الفناء. ثم نصر الله المسلمين. وانهزم البربر وقُتلوا قتلاً ذريعًا. وانهزمت الكاهنة ثم أُدركت فقُتلت. ثم استأمن البربر إلى حسان فأمنهم. وقرر عليهم أن يكون منهم عسكر مع المسلمين عدتهم اثنا عشر ألفًا يجاهدون العدو. وقدم عليهم ابني الكاهنة ثم فشا الإسلام في البربر.

وعاد حسان إلى القيروان وبطل النزاع واستقامت إفريقية له.

فلما مات عبد الملك وولّي الوليد ـ وكان على مصر وإفريقية عبد العزيز بن مروان ـ فعزل حسان واستقدمه. وبعث إليه بأربعين رجلاً من أشراف أصحابه، وأمرهم أن يحتفظوا بجميع ما معه. فعلم حسان ما يُراد منه، فعمد إلى الجوهر واللؤلؤ والذهب، فجعله في قِرَب الماء وطرحها في المعسكر، وأظهر ما وراء ذلك. فلما قدم على عبد العزيز بن مروان بمصر أهدى إليه مائتي جارية ووصيف من خيار ما كان معه ويقال: إن حسان كان معه من السبي خمسة وثلاثون ألف رأس. فانتخب منها عبد العزيز ما أراد وأخذ منه خيلاً كثيرة. ورحل حسان بما بقي معه حتى قدم على الوليد بن عبد الملك فشكا إليه ما صنع به عبد العزيز. فغضب الوليد وأنكره. فقال حسان لمن معه: «ائتوني بالقرب» فأُتي بها فأفرغها بين يدي الوليد. فرأى ما أذهله من أصناف الجوهر واللؤلؤ والذهب. فقال حسان: «يا أمير المؤمنين إنما

(١) قفصة: هي بلدة صغيرة في طرف إفريقية من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير بالجريد بينها وبين القيروان ثلاثة أيام مختطة في أرض سنجة لا تنبت إلا الأشنان والشيح... (معجم ياقوت).

(٢) قسطيلية: بالفتح ثم السكون، وكسر الطاء، وياء ساكنة، ولام مكسورة، وياء خفيفة، وهاء: مدينة بالأندلس وهي حاضرة نحو كورة إلبيرة كثيرة الأشجار متدفقة الأنهار تشبه دمشق... (معجم البلدان).

(٣) نفزاوة: مدينة من أعمال إفريقية، وبها عين تسمى بالبربرية تاورغي، ولها سور صخر وطوب ولها ستة أبواب وفيها جامع وحمام وأسواق حافلة وهي كثيرة النحل والثمار... (معجم ياقوت).

خرجتُ مجاهدًا في سبيل الله، ولم أخُن الله تعالى ولا الخليفة». فقال له الوليد: «أردك إلى عملك وأحسن إليك» فحلف حسان أنه لا وَلي لبني أمية ولاية أبدًا. فغضب الوليد عى عمه عبد العزيز لما عامل به حسانًا. وكان حسان يسمّى الشيخ الأمين لثقته وأمانته ثم ولي بعده موسى بن نُصير.

ذكر ولاية موسى بن نصير إفريقية
وما كان من حروبه وآثاره

كانت ولايته في سنة تسع وثمانين، وذلك أن حسان بن النعمان لما امتنع من إجابة الوليد إلى رجوعه إليها، كتب الوليد إلى عمه عبد العزيز أن يوجه موسى بن نصير إلى إفريقية وأن تكون ولايته من قبل الوليد. وأفرد إفريقية عن مصر. فسار موسى حتى قدم إفريقية وعزل عنها صالحًا خليفة حسان بها.

فبلغه أن بأطراف إفريقية قومًا خارجين عن الطاعة. فوجه إليهم ابنه عبد الله فقاتلهم وظفر بهم. وأتاه بمائة ألف رأس من سبْيهم. ثم وجه ولده مروان إلى جهة أخرى، فأتاه بمائة ألف رأس. ثم توجه هو بنفسه إلى جهة أخرى فأتى بمائة ألف رأس. قال الليث بن[1] سعد: «فبلغ الخمس يومئذ ستين ألف رأس ولم يُسمَع بمثل هذا في الإسلام».

ثم خرج غازيًا إلى طنجة يريد مَن بقي من البربر. فهربوا منه فاتبعهم يقتل فيهم حتى بلغ السوس الأدنى لا يدافعه أحد. فاستأمن البربر إليه وأطاعوه. فقبل طاعتهم وولّى عليهم واليًا. ثم استعمل على طنجة وبلادها مولاه طارق بن زياد. وتركه بها في تسعة عشر ألف فارس من البربر وطائفة يسيرة من العرب لتعلّم البربر القرآن وفرائض الإسلام.

ورجع إلى إفريقية فمرّ بقلعة مَجّانة[2] فتحصن أهلها منه فترك عليها مَن يحاصرها مع بُسْر بن فلان ففتحها، فسُمِّيت قلعة بُسْر. ولم يَبْقَ بإفريقية مَن ينازعه من البربر ولا من الروم.

---

(١) هو أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمٰن إمام أهل مصر في الفقه والحديث؛ كان مولى قيس بن رفاعة، وهو مولى عبد الرحمٰن بن خالد بن مسافر الفهمي وأصله من أصبهان، وكان ثقة سريًا سخيًا... (وفيات الأعيان ٤: ١٢٧).

(٢) مجانة: بالفتح، وتشديد الجيم، وبعد الألف نون: بلد بإفريقية فتحه بسر بن أرطأة وهي تسمى قلعة بسر وبها زعفران كثير ومعادن حديد وفضة، بينها وبين القيروان خمس مراحل... (معجم البلدان لياقوت).

ذكر فتح جزيرة الأندلس وشيء من أخبارها

كان فتح الأندلس في سنة اثنتين وتسعين على يد طارق بن زياد مولى موسى بن نصير. وقد ذكر ابن الأثير في تاريخه الكامل أخبار الأندلس وابتداء أمرها. فاخترنا إيراد ذلك لأنها من أعظم الفتوحات الإسلامية.

قال ابن الأثير: قالوا: أول مَن سكنها بعد الطوفان قوم يعرفون بالأَنْدَلُش - بشين معجمة - ثم عُرِّب بعد ذلك بسين مهملة، والنصارى تسميها إشْبانيَة باسم رجل صُلِب فيها يقال له إشبانش، وقيل: باسم ملك كان لها في الزمان الأول اسمه إشبان بن طيطش. وهذا هو اسمها عند بطليموس. وقيل: سميت بأندلس بن يافث بن نوح، وهو أول مَن عمرها.

وقيل: أول مَن سكنها بعد الطوفان قوم يعرفون بالأندلس فعمروها وتداولوا ملكها دهرًا طويلًا، وكانوا مجوسًا. ثم حبس الله عنهم المطر وتوالَى عليهم القحط. فهلك أكثرهم، وفرّ منها من أطَاق الفرار. فخلت مائة سنة.

ثم ابتعث الله لعمارتها الأفَارِقَة. فدخل إليها قوم منهم أجْلاهم ملك إفريقية لقحط توالى على بلاده حتى كاد يُفني أهلَها. فحملهم في السفن مع أمير من عنده. فأرسوا بجزيرة قادس[1] فرأوا الأندلس وقد أخصبت بلادها وجرت أنهارها. فسكنوها وعمروها. ونصبوا لهم ملوكًا ضبطوا أمرهم. وكانت دار مملكتهم طالقة الخراب من أرض إشبيلية، بنوها وسكنوها. وأقاموا مدة تزيد على مائة وخمسين سنة، ملك منهم فيها أحد عشر ملكًا.

ثم أرسل الله عليهم عجم رُومَة، وملكهم إشْبان بن طيطش فغزاهم ومزقهم وقتل منهم وحاصرهم بطالقة[2]، وقد تحصنُوا بها، فابتنى عليها إشبانية - وهي إشبيلية[3] - واتخذها دار مملكته. وكثرت جموعه وعتا وتجبر. وغزا بيت المقدس وغنم ما فيه، وقتل منه مائة ألف، ونقل المرمر منه إلى إشبيلية وغيرها. وغنم منه

---

(١) قادس: بعد الألف دال مكسورة مهملة ثم سين كذلك: جزيرة في غربي الأندلس تقارب أعمال شذونة طولها اثنا عشر ميلًا... (معجم البلدان).

(٢) طالقة: ناحية من أعمال إشبيلية بالأندلس.

(٣) إشبيلية: بالكسر ثم السكون، وكسر الباء الموحدة، وياء ساكنة، ولام، وياء خفيفة: مدينة كبيرة عظيمة وليس بالأندلس اليوم أعظم منها تسمى حمص أيضًا، وبها قاعدة ملك الأندلس وسريره، وبها كان بنو عبّاد، ولمقامهم بها خربت قرطبة... (معجم ياقوت).

مائدة سليمان بن داود عليهما السلام، وهي التي غنمها طارق لما فتح طليطلة، وغنم قليلة الذهب والحجر الذي لقي بماردة[1].

وكان هذا إشبان قد وقف عليه الخَضِر، وهو يحرث الأرض فقال له: «يا إشبان، سوف تحظى وتعلو وتملك. فإذا ملكت إيليا فارْفُق بذرية الأنبياء» فقال له: «أتسخر بي وكيف ينال مثلي الملك؟» فقال له: «قد جعله فيك من جعل عصاك هذه كما ترى» فنظر إليها، فإذا هي قد أوْرَقت. فارتاع وذهب عنه الخضر وقد وثق بقوله. فداخَل الناس وارتقى حتى ملك ملكًا عظيمًا. وكان ملكه عشرين سنة ودام ملك الإشبانية إلى أن ملك منهم خمسة وخمسون ملكًا.

ثم دخل عليها من عجم رومة أمةٌ يدعَوْن البشتولقات، وملكهم طلوبش بن بيطة، وذلك حين بعث الله المسيح عليه السلام. فغلبوا عليها، واستولوا على مُلْكها، وقتلوا ملكها. وملك منهم سبعة وعشرون ملكًا. وكانت مدينة ماردة دار ملكهم.

ثم دخلت عليهم أمة القوط مع ملك لهم. فغلبوا على الأندلس واقتطعوها من صاحب رومة. وكان ظهورهم من ناحية أنطالية[2] شرق الأندلس، فأغارت على بلاد مجْدُونية من تلك الناحية في أيام قليوديوس قيصر، ثالث القياصرة. فخرج إليهم وهزمهم وقتل فيهم. ولم يظهروا بعدها إلى أيام قسطنطين الأكبر. وأعادوا الغارة. فسيّر إليهم جيشًا فلم يثبتوا له. وانقطع خبرهم إلى دولة ثالث ملك بعد قسطنطين، فقدموا على أنفسهم أميرًا اسمه لذريق، وكان يعبد الأوثان. فسار إلى رومة ليحمل النصارى على السجود لأوثانه وظهر منه سوء سيرة، فتخاذل أصحابه عنه ومالوا إلى أخيه وحاربوه. فاستعان بصاحب رومة. فبعث إليه جيشًا فهزم أخاه ودان بدين النصارى. وكانت ولايته ثلاث عشرة سنة. ثم ولّي بعده أقريط، وبعده أمريق وبعده وغديش. وكانوا قد عادوا إلى عبادة الأوثان. فجمع من أصحابه مائة ألف وسار إلى رومة. فسيّر إليه ملك الروم جيشًا فهزموه وقتلوه. ثم ملك بعده الريق.

ثم تداولها عدة ملوك ذكرهم ابن الأثير: منهم مَن عبد الأوثان ومنهم مَن دان بدين النصرانية، إلى أنْ انتهى الملك إلى غِيْطِشة، وكانت ولايته سنة سبع وسبعين

---

(١) ماردة: كورة واسعة من نواحي الأندلس متصلة بحوز فرّيش بين الغرب والجوف من أعمال قرطبة إحدى القواعد التي تخيرتها الملوك للسكنى من القياصرة والروم، وهي مدينة رائقة كثيرة الرخام عالية البنيان فيها آثار قديمة حسنة تقصد للفرجة والتعجب. . . (معجم البلدان).

(٢) أنطالية: بلد كبير من مشاهير بلاد الروم كان أول من نزله أنطالية بنت الروم بن اليقن بن سام بن نوح أخت أنطاكية فسمي بها. . . (معجم ياقوت).

للهجرة. ثم توفي وخلف ولدين. فلم يرضَ بهما أهل الأندلس ورضوا برجل يقال له رُذريق، وكان شجاعًا وليس من بيت الملك.

وكانت عادة ملوك الأندلس أنهم يبعثون أولادهم الذكور والإناث إلى مدينة طُلَيْطلة[١] يكونون في خدمة الملك لا يخدمه غيرهم، يتأدبون بذلك. فإذا بلغوا الحُلمُ أنكح بعضهم بعضًا وتولى تجهيزهم. فلما ولّي رذريق، أرسل إليه يليان ـ وهو صاحب الجزيرة الخضراء[٢] وسَبْتة[٣] وغيرهما ـ ابنته فاستحسنها رذريق فافْتضها. فكتبت إلى أبيها بذلك. فأغضبه فكتب إلى موسى بن نصير عامل إفريقية بالسمع والطاعة. واستدعاه فسار إليه. فأدخله يليان مدائنه. وأخذ عليه العهود له ولأصحابه بما يرضى به. ثم وصف له الأندلس ودعاه إليها، وذلك في آخر سنة تسعين. فكتب موسى إلى الوليد بذلك، واستأذنه في غزوها. فأذن له إذا لم يكن الوصول إليها في بحر متسع.

فبعث موسى مَولًى من مواليه، يقال له طَريف، في أربعمائة رجل ومعهم مائة فارس. فساروا في أربع سفن. فخرجوا في جزيرة بالأندلس فسُميت جزيرة طريف. ثم أغار على الجزيرة الخضراء فأصاب غنائم كثيرة ورجع سالمًا، في شهر رمضان سنة إحدى وتسعين. فلما رأى الناس ذلك، تسرعوا إلى الغزو.

ثم إن موسى دعا مولاه طارق بن زياد، وكان على مقدمات جيوشه، فبعثه في سبعة آلاف من المسلمين أكثرهم البربر والموالي وأقلّهم العرب. فساروا في البحر. وقصدوا جبلًا مُنيفًا في البحر، وهو متصل بالبر. فنزله فسُمِّي الجبل جبل طارق. ولما ملك عبد المؤمن البلاد أمر ببناء مدينة على هذا الجبل وسمّاه جبل الفتح، فلم يثبت له هذا الاسم، وجرت الألسن على الاسم الأول. وكان حلول طارق به في شهر رجب سنة اثنتين وتسعين.

---

(١) طليطلة: مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالأندلس يتصل عملها بعمل وادي الحجارة من أعمال الأندلس وهي غربي ثغر الروم وبين الجوف والشرق من قرطبة... (معجم البلدان).

(٢) الجزيرة الخضراء: مدينة مشهورة بالأندلس، وقبالتها من البر بلاد البربر سبتة، وأعمالها متصلة بأعمال شذونة، وهي شرقي شذونة وقبلي قرطبة، ومدينتها من أشرف المدن وأطيبها أرضًا... (معجم ياقوت).

(٣) سبتة: هي بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ومرساها أجود مرسى على البحر، وهي على بر البربر تقابل جزيرة الأندلس على طرف الزقاق الذي هو أقرب ما بين البر والجزيرة... (معجم البلدان).

قال: ولما ركب طارق البحر غلبته عينه، فرأى النبيّ ﷺ ومعه المهاجرون والأنصار وقد تقلدوا السيوف وتنكّبوا القسيّ. فقال النبي ﷺ له: «يا طارق تقدم لشأنك» وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد. ونظر طارق فرأى النبيّ ﷺ وأصحابه قد دخلوا الأندلس أمامه. فاستيقظ من نومه، وبشر أصحابه، وقويت نفسه، وأيقن بالظّفر.

فلما تكامل أصحاب طارق بالجبل نزل إلى الصحراء، وفتح الجزيرة الخضراء فأصاب بها عجوزًا. فقالت له: «إنّي كان لي زوج، وكان عالمًا بالحوادث، وكان يحدثهم عن أمير يدخل بلدهم ويغلب عليه، ووصف من صفته أنه ضخم الهامة وأن في كتفه الأيسر شامةً عليها شعر» فكشف طارق ثوبه فإذا الشامة كما ذكرت فاستبشر.

قال: ولما فتح الجزيرة الخضراء وفارق الحصن الذي في الجبل، بلغ رذريق خبره. فأعظم ذلك، وكان غائبًا في غزاة فرجع منها، وقد دخل طارق بلاده. فجمع له جمعًا يُقال بلغ مائة ألف. فكتب طارق إلى موسى يستمده ويخبره بما فتح. فأمده بخمسة آلاف، فتكامل المسلمون اثني عشر ألفًا، ومعهم يليان يدلُّهم على عَوْرة البلاد ويتجسس لهم الأخبار. وأتاهم رُذريق في جنده، فالتقوا على نهرِ بكّة من أعمال شَذُونة[1] لليلتيْن بقيتا من شهر رمضان سنة اثنتين وتسعين. واتصلت الحرب بينهم ثمانية أيام. وكان على ميمنة رذريق وميسرته ولدا الملك الذي كان قبله وغيرهما من أبناء الملوك. فاتفقوا على الهزيمة بغضًا لرذريق وقالوا: «إنَّ المسلمين إذا امتلأت أيديهم من الغنيمة عادوا إلى بلادهم وبقي الملك لنا» فانهزموا. وهزم الله رذريق ومَن معه وغرق في النهر.

وسار طارق إلى مدينة إسْتجَة في اتباعهم. فلقيه أهلها ومعهم من المنهزمين خلْق كثير. فقاتلوه قتالاً شديدًا ثم انهزم أهل الأندلس. ونزل طارق على عين بينها وبين مدينة إستجة أربعة أميال فسميت عين طارق.

قال: ولما سمع القُوط بهاتيْن الهزيمتين، قذف الله في قلوبهم الرعب، وهربوا إلى طُليْطُلة، وأخلوا مدائن من الأندلس فقال له يليان: «قد فرغت من الأندلس، ففرِّق جيوشك، وسرْ أنت إلى طليطلة» ففرّق جيوشه من مدينة إستجة: فبعث جيشًا إلى قُرْطبة، وجيشًا إلى أغرناطة، وجيشًا إلى مالقة، وجيشًا إلى تُدْمير[2].

---

(١) شذونة: بفتح أوله، وبعد الواو الساكنة نون: مدينة بالأندلس تتصل نواحيها بنواحي موزور من أعمال الأندلس، وهي منحرفة عن موزور إلى الغرب مائلة إلى القبلة... (معجم البلدان).

(٢) تدمير: بالضم ثم السكون، وكسر الميم، وياء ساكنة، وراء: كورة بالأندلس تتصل بأهواز كورة جيان، وهي شرقي قرطبة، ولها معادن كثيرة ومعاقل ومدن ورساتيق... (معجم ياقوت).

وسار هو ومعظم الجيش إلى طليطلة. فلما بلغها وجدها خالية وقد لحق مَن بها بمدينة خلف الجبل يُقال لها مَايَة. قال: وفتح سائر الجيوش الذين بعثهم ما قصدوه من البلاد. قال: ولما رأى طارق طليطلة خالية، ضم إليها اليهود وترك معهم رجالاً من أصحابه. وسار هو إلى وادي الحجارة[١]. وقطع الجبل من فَجّ فيه فسُمّي بفج طارق. وانتهى إلى مدينة خلف الجبل تسمى مدينة المائدة[٢]، وفيها مائدة سليمان بن داود عليهما السلام، وهي من زبرجدة خضراء، حافاتها وأرجلها منها مكلّلة باللؤلؤ والمرجان والياقوت وغير ذلك، وكان لها ثلاثمائة وستون رجلاً.

ثم مضى إلى مدينة ماية فغنم منها. ورجع إلى طليطلة في سنة ثلاث وتسعين. وقيل: إنه اقتحم أرض جِلِّيقِيَة[٣] فاخترقها حتى انتهى إلى مدينة اسْتُرْقة، وانصرف إلى طليطلة. ووافته جيوشه التي وجهها من إستجة بعد فراغهم من فتح تلك المدائن التي سيّرهم إليها.

ودخل موسى بن نصير الأندلس في شهر رمضان سنة ثلاثٍ وتسعين في جمْع كثير، وقد بلغه ما صنع طارق فحسده. فلما نزل الجزيرة الخضراء قيل له: «تسلك طريق طارق؟» فأبى. فقال له الأدلاء: «نحن ندلُّك على طرق أشرف من طريقه ومدائن لم تُفتح بعد». ووعده يليان بفتح عظيم، فسُرَّ بذلك. فساروا به إلى مدينة ابن السليم فافتتحها عنوة. ثم سار إلى مدينة قَرْمُونة[٤]، وهي أحصن مدن الأندلس. فتقدم إليها يليان وخاصته على حال المنهزمين فأدخلوهم مدينتهم. وأرسل موسى إليهم الخيل ففتحوها لهم ليلاً. فدخلها المسلمون وملكوها. ثم سار موسى إلى إشبيلية، وهي من أعظم مدائن الأندلس بنيانًا وأغربها آثارًا فحصرها أشهرًا وفتحها، وهرب مَن بها. فأنزلها موسى اليهود. وسار إلى مدينة ماردة فحصرها، وقد كان أهلها خرجوا إليه فقاتلوه قتالاً شديدًا. فكمن لهم موسى ليلاً في مقاطع الصخر، فلم يرهُمْ الكفار. فلما أصبحوا زحف إليهم. فخرجوا إلى المسلمين على عادتهم. فخرج عليهم الكمين، وأحْدَقُوا بهم، وحالوا بينهم وبين البلد، وقتلوهم قتلاً ذريعًا. ونجا مَن سلم منهم

---

(١) وادي الحجارة: بلد بالأندلس، ينسب إليه عبد الباقي بن محمد بن سعيد بن يريال الحجاري أبو بكر...
(٢) المائدة: مدينة على مقربة من قلعة منارس.
(٣) جليقية: ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمالي الأندلس في أقصاه من جهة الغرب...
(٤) قرمونية (في معجم ياقوت): كورة بالأندلس يتصل عملها بأعمال إشبيلية غربي قرطبة وشرقي إشبيلية قديمة البنيان.

فدخل المدينة، وكانت حصينة. فحصرهم بها أشهرًا. وزحف إليهم بدَبابة عملها ونقبوا سورها. فخرج أهلها على المسلمين فقتلوهم عند البرج فسمِّي برج الشهداء. ثم افتتحه آخر شهر رمضان سنة أربع وتسعين صلحًا، على أن جميع أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهاربين إلى جليقية وأموال الكنائس وحليها للمسلمين.

ثم إن أهل إشبيلية اجتمعوا وقصدوها، فقتلوا من بها مِن المسلمين. فسيّر موسى إليها ابنه عبد العزيز بجيش فحصرها وقتل مَن بها من أهلها.

وسار عنها إلى لَبْلة وباجة فملكهما وعاد إلى إشبيلية.

قال: وسار موسى من مدينة ماردة في شوال بريد طليطلة. فخرج طارق إليه فلقيه. فلما أبصره نزل إليه، فضربه موسى بالسّوط على رأسه، ووبخه على ما كان من خلافه. ثم سار به إلى مدينة طليطلة وطلب منه ما غنم والمائدة. فأتاه بها وقد انتزع رجلاً من أرجلها. فسأله عنها فقال: «لا علم لي بها. كذلك وجدتها» فعمل عِوَضها من ذهب.

وسار موسى إلى مدينة سَرَقُسْطة[١] ومدائنها فافتتحها.

وأوغل في بلاد الفرنج. فانتهى إلى مفازةٍ كبيرة وأرض سهلة ذات آثار فأصاب فيها صنمًا قائمًا، فيه مكتوب: «يا بني إسماعيل، إلى هاهنا منتهاكم، فارجعوا. وإنْ سألتم إلى ماذا ترجعون، أخبركم أنكم ترجعون إلى الاختلاف فيما بينكم حتى يضرب بعضكم أعناق بعض، وقد فعلتم» فرجع ووافاه رسول الوليد في أثناء ذلك يأمره بالخروج عن الأندلس والقفول إليه. فساءه ذلك ومَطَل الرسول، وهو يقصد بلاد العدو في غير ناحية الصنم، يقتل ويسبي ويهدم الكنائس ويكسر النواقيس، حتى بلغ صخرة بِلاي على البحر الأخضر، وهو في قوة وظهور. فقدم عليه رسول آخر من الوليد يستحثّه، وأخذ بعنان بغلته وأخرجه. وكان موافاة الرسول له بمدينة لُكّ[٢] بجليقية. وخرج على الفج المعروف بفج[٣] موسى. ووافاه طارق من الثغر الأعلى فأقْفله معه، ومضيا جميعًا.

---

(١) سرقسطة: بفتح أوله وثانيه ثم قاف مضمومة، وسين مهملة ساكنة، وطاء مهملة: بلدة مشهورة بالأندلس تتصل أعمالها بأعمال تطيلة، ذات فواكه عذبة لها فضل على سائر فواكه الأندلس... (معجم البلدان).

(٢) لك: بالضم وتشديد الكاف: بلدة من نواحي برقة بين الإسكندرية وطرابلس الغرب. ولُكّ أيضًا: مدينة بالأندلس من أعمال خرص البلوط، ولك أيضًا: قرية قرب الموصل من أعمال نينوى في الجانب الغربي... (معجم ياقوت).

(٣) الفج: الطريق الواسع بين الجبلين، وجمعه فجاج ثم كل طريق فج... (معجم ياقوت).

واستخلف موسى على الأندلس ابنه عبد العزيز بن موسى. فلما عبر موسى البحر إلى سبتة استخلف عليها وعلى طنجة وما والاهما ابنه عبد الملك. واستخلف على إفريقية وأعمالها ابنه الكبير عبد الله. وسار إلى الشام. وحمل الأموال التي غُنمت من الأندلس والذخائر والمائدة، ومعه ثلاثون ألف بكر من بنات ملوك القُوط وأعيانهم، ومن نفيس الجوهر والأمتعة ما لا يُحصى. فورد الشام، وقد مات الوليد واستُخلف سليمان بن عبد الملك، وكان منحرفًا عن موسى بن نصير. فعزله عن جميع أعماله وأقصاه وأغْرمَه غرمًا حتى احتاج أنْ يسأل العرب في معونته.

وقيل: إنه قدم إلى الشام والوليد حيٌّ. وكان قد كتب إليه، وادعى أنه هو الذي فتح الأندلس وأخبره خبر المائدة. فلما حضر عنده عرض عليه ما معه وعرض المائدة، ومعه طارق. فقال طارق: «أنا غنمتها» فكذبه موسى. فقال طارق للوليد: «سَلْه عن رجلها المعدومة» فسأله عنها، فلم يكن عنده منها علم. فأظهرها طارق وذكر أنه أخفاها لهذا السبب. فعلم الوليد صدق طارق. وإنما فعل هذا لأن موسى كان قد ضربه وحبسه حتى أرسل الوليد «أخْرِجْه» وقيل: لم يحبسه.

قالوا: ولما دخلت الروم بلاد الأندلس، كان في مملكتهم بيت إذا ولّي ملك منهم أقْفل عليه قفلاً. فلما ملكت القوط فعلوا كفعلهم. فلما ملك رذريق فتح الأقفال فرأى في البيت صور العرب، عليهم العمائم الحمر على خيول شُهْب، وفيه كتاب: «إذا فُتح هذا البيت دخل هؤلاء القوم هذا البلد» ففتحت الأندلس في تلك السنة.

ذكر غزو جزيرة سردانية

قال: ولما فتح موسى بلاد الأندلس سيّر طائفة من عسكره إلى هذه الجزيرة، وهي في بحر الروم كثيرة الفواكه. فدخلوها في سنة اثنتين وتسعين. فعمد النصارى إلى ما يملكونه من آنية الذهب والفضة فألقُوا الجميع في الماء. وجعلوا أموالهم في سقف البِيعة[1] الكبرى التي تحت السقف الأول. وغنم المسلمون منها ما لا يُحَد ولا يوصف، وأكثروا الغُلول[2]. واتفق أن رجلاً من المسلمين اغتسل في الماء فعلق في رجله شيء. فأخرجه، فإذا هو صَحْفة من فضة. فأخرج المسلمون جميع ما فيه. ودخل رجل من المسلمين إلى تلك الكنيسة فنظر إلى حَمام. فرماه بسهم فأخطأه

(١) البيعة: معبد النصارى.

(٢) الغلول: الخيانة. والمراد احتجازهم المغانم لأنفسهم دون اقتسامها.

ووقع في السقف. فانكسر لوح ونزل منه شيء من الدنانير. فأخذوا الجميع. وزادوا في الغلول، فكان بعضهم يذبح الهِرّ، ويرمي ما في جوفه، ويملأه دنانير، ويَخيط عليها، ويلقيه في الطريق. فإذا خرج أخذه. وكان يضع قائم سيفه على الجفن ويملأه ذهبًا. فلما ركبوا في البحر سمعوا قائلاً يقول: «اللهم غرِّقهم» فغرقوا عن آخرهم.

ذكر ولاية محمد بن يزيد مولى قريش ومقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير

قال: ثم استعمل سليمان بن عبد الملك محمد بن يزيد مولى قريش. وقال له عند ولايته: «يا محمد، اتّقِ الله وحده لا شريك له، وقُم فيما وليتك بالحق والعدل. اللهم اشهد» فخرج محمد وهو يقول: «ما لي عذر إنْ لم أعدل» وكانت ولايته في سنة تسع وتسعين. فولّي سنتين وشهورًا. وكتب إليه سليمان يأمره أن يأخذ آل موسى بن نصير وكل من انتسب إليه حتى يقوموا بما بقي عليه وهو ثلاثمائة ألف دينار ولا يرفع عنهم العذاب. فقبض على عبد الله والي القيروان فحبسه في السجن. ثم وصل البريد من قبل سليمان يأمر بضرب عنقه.

وأما عبد العزيز فإنه لما استخلفه أبوه موسى على الأندلس سدّ ثغورها، وضبط بلادها، وافتتحَ مدائن كانت بقيت بعد أبيه، وكان خَيِّرًا فاضلاً. فتزوج امرأة الملك لذريق. فحَظيت عنده، وغلبت على رأيه. فحملته على أن يأخذ أصحابه بالسجود له إذا دخلوا عليه كما كان يُفعَل بزوجها. فقال: «إن ذلك ليس من ديننا» فلم تزَل به حتى أمر بفتح باب قصير لمجلسه الذي كان يجلس فيه. فكان أحدهم إذا دخل عليه من الباب طأطأ رأسه فيصير كالراكع. فرضيت بذلك وقالت: «الآن لحقت بالملوك. وبقي أنْ أعمل لك تاجًا مما عندي من الذهب واللؤلؤ» فأبى. فلم تزل به حتى فعل. فانكشف للمسلمين، فقالوا: «تنصر» وفطنوا للباب فثاروا عليه، فقتلوه في آخر سنة تسع وتسعين في آخر خلافة سليمان بن عبد الملك. ثم مكثوا بعد ذلك سنة لا يجمعهم إمام.

وحكى الواقدي قال: لما بلغ عبد العزيز بن موسى ما نزل بأبيه وأخيه وأهل بيته، خلع الطاعة وخالف. فأرسل إليه سليمان رسولاً، فلم يرجع. فكتب سليمان إلى حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع ووجوه العرب سرًّا بقتله. فلما خرج

عبد العزيز إلى صلاة الصبح، قرأ فاتحة الكتاب ثم قرأ الحاقة[(١)] فقال له حبيب: «حَقّت عليك يا ابن الفاعلة» وعلاه بالسيف فقتله فحُمل رأس عبد الله ورأس عبد العزيز ابنيْ موسى حتى وُضعا بين يدي أبيهما، وعُذِّب حتى مات.

وأُضيفت ولاية الأندلس إلى إفريقية. فاستعمل عليها محمد الحُر بن عبد الرحمٰن القيسي. ولم يزل محمد بإفريقية إلى أن مات سليمان وولّي عمر بن عبد العزيز، فعزله واستعمل إسماعيل بن عبد الله.

ذكر ولاية إسماعيل بن عبد الله ابن أبي المهاجر مولى بني مخزوم

قال: ولما ولّي عمر بن عبد العزيز الخلافة استعمل إسماعيل على إفريقية، وكان خير وال. فدعا إسماعيل مَن بقي من البربر إلى دين الإسلام. فأسلموا وغلب الإسلام على المغرب جميعه. ودامت ولايته إلى سنة إحدى ومائة، إلى أن توفي عمر بن عبد العزيز وولّي يزيد بن عبد الملك، فاستعمل على إفريقية يزيد بن أبي مُسلم مولى الحجاج فقدمها في سنة اثنتين ومائة وقُتل. وقد ذكرنا سبب مقتله في أخبار يزيد بن عبد الملك.

ثم ولّي بعده بِشر بن صَفوان الكَلْبي، فقدمها في سنة ثلاث ومائة. فلما قدم استعمل على الأندلس عَنْبَسة الكلبي وعزل الحُر بن عبد الرحمٰن القيسي. ثم غزا بشر جزيرة صقلية بنفسه فأصاب سَبْيًا كثيرًا. ثم رجع من غزوته فتوفي بالقيروان في سنة تسع ومائة في خلافة هشام بن عبد الملك.

عبيدة بن عبد الرحمٰن السلمي

فلما اتصلت وفاته بهشام استعمل على إفريقية: عبيدة بن عبد الرحمٰن السُّلَمي وهو ابن أخي أبي الأعور السُّلَمي، صاحب خيل معاوية. فأخذ عمال بشر بن صفوان فحبسهم وأغْرمهم وتحامل عليهم وعذب بعضهم. وكان فيهم أبو الخَطّار بن ضرار الكلبي، وكان قائدًا جليلاً، فقال: [من الطويل]

أَفَأْتُم بني - مروان - قَيْسًا دماءَنا ... وفي الله إنْ لم يَعْدلوا حَكَمٌ عَدْلُ[(٢)]

كأنكمُ لم تشهدوا ليَ وقعةً ... ولم تعلموا مَن كان قَبْلُ له الفَضْلُ

---

(١) الحاقة: السورة ٦٩.

(٢) المراد جعلتم دماءنا فيئًا ومغنمًا لبني قيس.

وقيناكمُ حَرَّ القَنا بصُدورنا   وليس لكم خيلٌ سوانا ولا رَجْلُ[١]
فلما بلغتم نَيْل ما قد أردتمُ   وطاب لكم فينا المشاربُ والأكلُ
تغافلتُمُ عنّا كأنْ لم نكن لكم   صديقًا وأنتم ما علمتم لنا وَصْلُ

وبعث بها إلى هشام. فلما قُرئت عليه غضب وأمر بعزل عبيدة. فقَفَل[٢] عنها، واستخلف على إفريقية عُقْبة بن قُدامة التُّجِيبي[٣]، وترك بها عبد الله بن المغيرة بن بُرْدة القرشي قاضيًا، وذلك في شوال سنة أربع عشرة ومائة.

عبيد الله بن الحبحاب مولى بني سلول

ثم استعمل هشام عبيد الله بن الحَبْحاب مولى بني سَلول، وكان رئيسًا كاتبًا بليغًا، حافظًا لأيام العرب وأشعارها ووقائعها. وهو الذي بنى الجامع ودار الصناعة بمدينة تونس. وكانت ولايته في شهر ربيع الأول سنة ست عشرة ومائة.

فاستعمل على طنجة[٤] وما والاها عمر بن عبد الله المُرادي. فأساء السيرة وتعدى في الصدقات والقَسْم. وأراد أن يخمس البربر وزعم أنهم فَيءٌ للمسلمين، وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله. وإنما كانت الولاة يخمسون من لم يُجِب منهم إلى الإسلام. فانتقضت البربر بطنجة على عبيد الله وتداعت عليه بأسرها، وذلك في سنة اثنتين وعشرين ومائة. وهي أول فتنة كانت بإفريقية في الإسلام.

وخرج مَيْسَرة المدْغري[٥] وقتل عمر المرادي. وظهر بالمغرب في ذلك الوقت قوم جَرَت منهم دعوة الخوارج، وصار منهم عدد كبير وشوكة قوية. قال: فبعث عبيد الله الجيوش من أشراف العرب لقتال المدْغري، وجعل عليهم خالد بن أبي حبيب الفهري. وأردفَه بحبيب بن أبي عبيدة. فسار خالد حتى أتى ميسرة دون طنجة. فالتقوا واقتتلوا قتالاً لم يُسمع بمثله. ثم انصرف ميسرة إلى طنجة. فأنكرت عليه

---

(١) الرجل: اسم لجمع الراجل الماشي على رجليه.
(٢) قفل: عاد.
(٣) نسبة إلى تجيب، اسم قبيلة من كندة، وهم ولد عدي وسعد ابني أشرس بن شبيب بن السكون بن أشرس بن ثور بن مرتع، وهو كندة، وأمهما تجيب بنت ثوبان بن سليم بن رها من مذحج... (معجم ياقوت).
(٤) طنجة: بلد على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة الخضراء، وهو من البر الأعظم وبلاد البربر... (معجم البلدان).
(٥) المدغريّ: نسبة إلى مدغرة، وهي قبيلة بربرية.

البربر سوء سيرته، وتغيروا عما كانوا بايعوه عليه، وكان قد بويع بالخلافة فقتلوه وولوا أمرهم خالد بن حميد الزَّناتي.

ثم التقى خالد بن أبي حبيب بالبربر، وكان بينهم قتالٌ شديد. فبينما هم كذلك إذ غشيهم خالد بن حميد الزناتي بعسكر عظيم. فانهزم أصحاب خالد بن أبي حبيب. وكره هو أن ينهزم فألقى بنفسه هو وأصحابه فقُتل هو ومن كان معه، ولم يسلم منهم أحد. وقُتل في هذه الوقعة حُماة العرب وفرسانها فسميت وقعة الأشراف.

وانتقضت البلاد ومرِج[1] الناس واختلفت الأمور على عبيد الله. فاجتمع الناس وعزلوه عن أنفسهم وبلغ ذلك هشام بن عبد الملك فقال: «أقتل أولئك الرجال الذين كانوا يقدمون علينا من العرب؟» قيل: «نعم» فقال: «والله، لأغضَبن لهم غضبةً عربيةً، ولأبعثن إليهم جيشًا أوله عندهم وآخره عندي. ثم لا تركت حصن بربري إلا جعلت إلى جانبه خيمة قيسي أو يمني». وكتب إلى عبيد الله بن الحبحاب يستقدمه. فخرج في جُمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين ومائة.

قال: وكان عبيد الله لما قدم إفريقية استعمل على الأندلس عُقْبة بن الحجاج وعزل عَنبسة. فلما بلغ أهل الأندلس ثورة البربر وثبوا على عقبة فعزلوه. وولّوا عليهم عبد الملك بن قَطَن الفهْري. قال: ثم استعمل هشام بن عبد الملك على إفريقية كُلْثوم بن عياض القُشَيْري، فقدم في شهر رمضان سنة ثلاث وعشرين ومائة، وقد عُقد له على اثني عشر ألف فارس من أهل الشام. وكتب إلى والي كل بلد أن يخرج معه، فسار معه عمال مصر وبرقة وطرابلس. فلما قدم إفريقية نَكَّب[2] عن القيروان وسار إلى سبتة. واستخلف على القيروان عبد الرحمٰن بن عُقبة الغفَاري، وهو إذ ذاك قاضي إفريقية وكان حبيب بن أبي عبيدة مواقف البربر. فسار كلثوم ومَن معه حتى وافى البربر، وهم على وادي طنجة، وهم في ثلاثين ألفًا. وتوجه إليهم خالد بن حميد الزناتي فصاروا في جميع كبير. فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديدًا، فقُتل كلثوم بن عياض، وحبيب بن أبي عبيدة، وسليمان بن أبي المهاجر، ووجوه العرب. وانهزمت العرب، وكانت هزيمة أهل الشام إلى الأندلس، وعبروا في المراكب، وهزيمة أهل مصر وأهل إفريقية إلى إفريقية.

قال: ولما بلغ أهل إفريقية قتل كلثوم، كان بها هرج. فثار عكاشة بن أيوب الفَزاري مخالفًا على الناس بمدينة قابس، وكان صُفْريًا[3]، وهو الذي قدم على طليعة

---

(١) مرج الناس: اختلطوا. (٢) نكّب عنه: عدل وتنحى.

(٣) الصفرية: طائفة من الخوارج الأولى كانت في العراق وبقيت زمن الدولة الأموية.

أهل الشام مع عبيد الله بن الحبحاب فسار إليه عبد الرحمٰن بن عقبة فقاتله. فانهزم عكاشة، وقُتل كثيرٌ من أصحابه، وتفرق مَن بقي منهم.

حنظلة بن صفوان الكلبي

ولما بلغ هشام بن عبد الملك ذلك، بعث إلى إفريقية حنظلة بن صَفْوان الكَلْبي، وكان عامله على مصر ولاه عليها في سنة تسع عشرة ومائة، فأقام بها إلى أن بعثه إلى إفريقية. فقدمها في شهر ربيع الآخر سنة أربع وعشرين ومائة. فلم يمكث بالقيروان إلا يسيرًا حتى زحف إليه عكاشة الصُفْري الخارجي في جمع عظيم من البربر، لم يَرَ أهل إفريقية مثله ولا أكثر منه، وكان لما انهزم جمع قبائل البربر. وزحف إلى حنظلة أيضًا عبد الواحد بن يزيد الهواري في عدد عظيم وكانا قد افترقا من الزاب: فأخذ عكاشة على طريق مَجانة[1] فنزل القرن، وأخذ عبد الواحد على طريق الجبال فنزل طَبِيناس، وعلى مقدمته أبو قرة المغيلي. فرأى حنظلة أن يعجل قتال عكاشة قبل أن يجتمعا عليه، فزحف إليه بجماعة أهل القيروان. والتقوا بالقرن وكان بينهم قتالٌ شديد فني فيه خلق كثير. وهزم الله عكاشة ومَن معه. وقُتل من البربر ما لا يُحصَى كثرة. وانصرف حنظلة إلى القيروان خوفًا أن يخالفه عبد الواحد إليها.

وقيل: إن عبد الواحد لما وصل إلى باجة، أخرج إليها حنظلة رجلًا من لَخْم في أربعين ألف فارس. فقاتلوه بباجة شهرًا في الخنادق والوعر. ثم انهزم اللخمي إلى القيروان، وفقد ممن معه عشرين ألفًا.

ونزل عبد الواحد بالأصنام من جُراوةَ ثلاثةَ أميال عن القيروان، وكان في ثلاثمائة ألف. فأخرج حنظلة جميع ما في الخزائن من السلاح، ونادى في الناس. فكان يعطي لكل منهم درعًا وخمسين دينارًا. فلم يزلْ يفعل ذلك حتى كثر عليه الناس، فرد العطاء إلى أربعين ثم إلى ثلاثين. ولم يقدم إلا شابًا قويًا. فعبأ الناس طول ليلته والشمع حوله وبين يديه. فعبأ في تلك الليلة خمسة آلاف دارع[2] وخمسة آلاف نابِل[3]. وأصبح وقدّم للقتال. وكسرت العرب جفون سيوفها. والتقوا واقتتلوا. ولزم الرجال الأرض وجثوا على الرُّكَب فانكسرت ميسرة العرب وميسرة البربر ثم كرت ميسرة العرب على ميمنة البربر. فكانت الهزيمة على البربر. وقُتل عبد الواحد

---

(١) مجانة: بالفتح، وتشديد الجيم، وبعد الألف نون: بلد بإفريقية، بينها وبين القيروان خمس مراحل، ومعدن المرتك والحديد والرصاص في جبل من جنوبها... (معجم البلدان).

(٢) الدارع: الذي يلبس الدرع. (٣) النابل: الذي يرمي النبل.

وأُتي حنظلة برأسه فخرّ ساجدًا لله. وقيل: إنه ما عُلم في الأرض مقتلة أعظم منها قُتل فيها من البربر مائة ألف وثمانون ألفًا. وكانوا صُفْرية يستحلون الدماء وسبي النساء. ثم أُتي بعكاشة أسيرًا فقتله حنظلة. وكتب بذلك إلى هشام. فكان الليث بن سعد يقول: «ما غزوةٌ كنتُ أحب أن أشهدها بعد غزوة بدر أحبّ إليّ من غزوة القرن والأصنام».

ذكر أخبار عبد الرحمٰن بن حبيب وتغلبه على إفريقية ورجوع حنظلة إلى المشرق

كان عبد الرحمٰن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري قد هرب إلى الأندلس عند هزيمة كلثوم. فلم يزلْ يحاول أن يغلب على الأندلس، وهو لا يمكنه ذلك، إلى أن وَجَّه حنظلة بن صفوان أبا الخَطار بن ضرار الكلبي إلى الأندلس وأطاعه الناس ودانت له البلاد. فخاف عبد الرحمٰن على نفسه. فخرج مستترًا وركب في البحر إلى تونس. فنزل بها في جُمادى الأولى سنة سبع وعشرين ومائة. ودعا الناس إلى نفسه فأجابوه.

وسار حتى نزل سِمِنْجة. فأراد أصحاب حنظلة الخروج لقتاله فمنعهم حنظلة كراهةً لهراقة دماء المسلمين، وكان رجلًا وَرِعًا زاهدًا لا يرى بذل السيف إلا في الكفرة والصُّفْرية الذين يستبيحون دماء المسلمين. فوجه حنظلة إلى عبد الرحمٰن جماعة من وجوه أهل إفريقية يدعوه إلى مراجعة الطاعة والرجوع عما هو عليه. فلما قدموا عليه أوْثَقهم في الحديد. وقال: «إنْ رماني أحد من أوليائهم بحجر قتلتهم» فبلغ ذلك من الناس كل مبلغ. فلما رأى حنظلة ذلك دعا القاضي وجماعة من أهل الدين والفضل. وفتح بيت المال بحضرتهم وأخذ منه ألف دينار وترك الباقي. وقال: «ما آخذ منه إلا بقدر ما يكفيني ويبلِّغني» ثم شخص عن إفريقية في جُمادى الآخرة سنة سبع وعشرين ومائة.

وأقبل عبد الرحمٰن بن حبيب ودخل القيروان ونادى مناديه ألا يخرج أحد إلى حنظلة ولا يشيعه. وكان حنظلة مجاب الدعوة فقال: «اللهم لا تُهنّ عبد الرحمٰن بن حبيب هذا الملك ولا أهله، واسفكْ دماءهم بأيديهم، وابعث عليهم شرار خلقك». ودعا على أهل إفريقية. فوقع الوباء والطاعون بها سبع سنين لا يكاد يرتفع إلا وقتًا في الشتاء ووقتًا في الصيف.

قال: ولما ولّي عبد الرحمٰن، ثار عليه جماعة من العرب والبربر ثم ثار عليه عروة بن الوليد الصَّدَفي واستولى على تونس. ثم ثار عليه عرب الساحل. وقام ابن

عطّاف الأزدي حتى نزل بَطبيناس. وثارت البربر من الجبال. وثار ثابت الصنهاجي بباجة فأخذها. وخرج بناحية طرابلس رجلان يُقال لأحدهما عبد الجبار والآخر الحارث، وهما من البربر على دين الخوارج. فقاتل كل من خرج عليه، طائفةً بعد أخرى بنفسه وبجيوشه، حتى دَوَّخ المغرب كله، وأذلّ مَن به من القبائل. ولم ينهزم له عسكر ولا رُدَّت له راية. وخافه جميع أهل المغرب.

وكتب إلى مروان بن محمد، وأهدى له هدية، وتقوّل على حنظلة، ونسب إليه ما لم يقع منه. فكتب إليه مروان بولاية إفريقية والمغرب كله والأندلس.

ثم قُتل مروان وانقرضت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية. فكتب عبد الرحمٰن إلى أبي العباس السفاح بطاعته، وأقام الدعوة العباسية. فلما صار الأمر إلى أبي جعفر المنصور كتب إلى عبد الرحمٰن يدعوه إلى الطاعة. فأجابه وكتب بطاعته، وأرسل إليه بهدية نَزْرة كان فيها بُزاة وكلاب. وكتب إليه: «إن إفريقية اليوم إسلامية كلها، وقد انقطع السبي منها. فلا تسألني ما ليس قبَلي». فغضب أبو جعفر المنصور وكتب إليه يتوعده. فلما وصل كتابه إليه غضب غضبًا شديدًا. ثم نادى: «الصلاة جامعة». فاجتمع الناس في المسجد الجامع. ثم خرج عبد الرحمٰن في مُطْرَف خَزّ، وفي رجليه نعلان. فصعد المنبر. فحمد الله وأثنى عليه، وصلّى على محمد نبيه ﷺ. ثم أخذ في سبّ أبي جعفر. ثم قال: «إني ظننت هذا الخائر[1] يدعو إلى الحق ويقوم به، حتى تبين لي منه خلاف ما بايعته عليه من إقامة الحق والعدل. وأنا الآن قد خلعته كما خلعت نَعْليَّ هاتين». وقذفهما وهو على المنبر. ثم دعا بخلعة أبي جعفر التي كان أرسلها إليه، وفيها سواده - وكان قد لبسها قبل ذلك ودعا فيها لأبي جعفر، وهو أول سَواد لُبس بإفريقية - فأمر بتخريقها وحرقها. وأمر كاتبه خالد بن ربيعة أن يكتب كتابًا بخلعه، ويُقرَأ على المنابر في سائر بلاد المغرب، ففعل ذلك.

ذكر مقتل عبد الرحمٰن بن حبيب
وولاية أخيه إلياس بن حبيب وقتله
وولاية حبيب بن عبد الرحمٰن وقتله

كان سبب قتل عبد الرحمٰن أنه لما قُتل مروان بن محمد الحمار هرب جماعة من بني أمية ومعهم حَريمهم نحو إفريقية، فتزوج عبد الرحمٰن وإخوته منهم. وكان ممن قدم عليه ابنان للوليد بن يزيد بن عبد الملك، يقال لأحدهما العاص والآخر

---

(١) الخائر: الذي ضعف وانكسر.

عبد المؤمن. وكانت ابنة عمهما تحت إلياس بن حبيب. فأنزلهما عبد الرحمٰن بدار شيبة بن حسان. وتسلك عليهما ليسمع كلامهما وكانا على نبيذ، وغلامهما يسقيهما. فقال العاص: «ما أغفل عبد الرحمٰن! أيظن أنه يتهنى معنا بولاية ونحن أولاد الخلفاء؟». فنزل وانصرف ولم يعلما به ثم أمر بقتلهما. فقالت ابنة عمهما لزوجها إلياس: «إنه قتل أَخْتانك[1] تهاوُنًا بك، وجعل العهد من بعده لابنه حبيب وأنت صاحب حربه وسيفه الذي يصول به»! ولم تزل تغريه به. وكان عبد الرحمٰن إذا ثار عليه ثائر أو خرج عليه خارجي يرسل أخاه إلياس لقتاله. فإذا ظفر، نسب الظفر لابنه حبيب وجعل العهد فيه. فاجتمع رأي إلياس بن حبيب وعبد الوارث أخيه على قتل عبد الرحمٰن أخيهما. ووالاهما على ذلك جماعة من أهل القيروان والعرب وغيرهم، على أن يكون الأمر لإلياس، الدعاء لأبي جعفر المنصور. فأتاه إلياس ليلاً فاستأذن عليه بعد العشاء الآخرة. فقال: «ما جاء به وقد ودعني؟» وكان إلياس قد عزم على الخروج إلى تونس. وأذن له، فدخل عليه وهو في غلالة[2] وردية وابن له صغير في حجره. فقعد طويلاً وعبد الوارث يغمز. فلما قام يودعه، أكبّ عليه يعانقه، فوضع السكين بين كتفيه حتى صارت إلى صدره. فصاح عبد الرحمٰن وقال: «فعلتها يا ابن اللخناء؟». ثم ضربه إلياس بالسيف. فاتقاه بمرفقه، فأبان يده. وضربه حتى أثْخنه. ودهش إلياس وخرج هاربًا. فقال له أصحابه: «ما فعلت؟» قال: «قتلته» فقالوا: «ارجع وحُزّ رأسه، وإلا قُتلنا عن آخرنا» ففعل. وثارت الصيحة. وأخذ إلياس أبواب دار الإمارة.

وسمع حبيب بن عبد الرحمٰن الصيحة فهرب من القيروان. وأصبح بقرب تونس فدخلها، واجتمع مع عمه عمران بن حبيب. ولحق بهما موالي عبد الرحمٰن من كل ناحية. فخرج إليهما إلياس إلى سمنجة. فَوافياه بمن معهما، وهَمُّوا بالقتال. ثم اصطلحوا على أن يعود عمران إلى ولاية تونس وصَطْفورة والجزيرة، ويكون حبيب على قفصة وقصيطلة ونفزاوة، ولإلياس سائر إفريقية والمغرب.

ومضى إلياس مع عمران إلى تونس، وانصرف حبيب إلى القيروان. فوثب إلياس على أخيه عمران، وعلى عمر بن نافع بن أبي عبيدة الفهري، وعلى الأسود بن موسى بن عبد الرحمٰن بن عقبة وعلى ابن قطن، فشَدهم وثاقًا، ووجههم في سفينة إلى الأندلس إلى يوسف بن عبد الرحمٰن بن عقبة.

---

(١) الختن: كل من كان من قبل المرأة كأبيها، وأخيها، وكذلك زوج البنت أو زوج الأخت. جمع أختان.

(٢) الغلالة: ثوب رقيق يلبس تحت الدثار.

وانصرف إلى القيروان فبلغه عن حبيب أخبار كرهها. فأغرى إلياس به، وأرسل إليه مَن زَين له الخروج إلى الأندلس، ففعل. وجهزه إلياس في سفينة. فتعذّرت عليهم الريح. فكتب إلى إلياس أن الريح قد ردته، وأن المسير لا يمكنه. فاتهمه إلياس وخاف ناحيته. وكتب إلى عامله سليمان بن زياد الرُّعَيْني يحذره أمره. فاجتمع إلى حبيب موالي أبيه، فأسروا سليمان بن زياد وشدوه وثاقًا وكان معسكرًا يُحارس حبيبًا. وأخرجوا حبيبًا إلى البرّ وأظهروا أمره. فتوجه إلى الأُرْبُس[1] فأخذها.

وبلغ خبره إلياس فتوجه إليه. واجتمع لكل واحد منهما جماعة. فلما التقيا، قال حبيب لعمه إلياس: «لِمَ نقتل موالينا وصنائعنا بيننا وهم لنا حصن؟ ولكن ابرز أنت وأنا، فأينا قتل صاحبه استراح منه: إنْ قتلتَني ألحقتني بأبي، وإن قتلتك أدركت ثأري منك» فارتاب إلياس ساعة. فنادى الناس: «قد أنصفك فلا تجبن، فإن ذلك سُبَّة عليك وعلى ولدك من بعدك» فخرج كل منهما إلى صاحبه والتقيا ساعة. فضرب إلياس حبيبًا فأعمل السيف في ثيابه ودرعه ووصل إلى جسمه. فعطف حبيب عليه وضربه بالسيف ضربة سقط بها عن فرسه إلى الأرض. فألقى حبيب نفسه عليه فحزّ رأسه ثم أمر برفعه على رمح. وهرب عبد الوارث بن حبيب ومن كان معه إلى بطن من البربر يقال لهم وَرْفَجُومة ودخل حبيب القيروان وبين يديه رأس إلياس، ورأس محمد بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع عم أبيه، ورأس محمد بن المغيرة بن عبد الرحمٰن القرشي. وجاءه محمد بن عمرو بن مصعب الفزاري وهو زوج عمة أبيه مهنئًا له، فضرب عنقه. وكان ذلك كله في شهر رجب سنة ثمان وثلاثين ومائة.

قال: ولما وصل عبد الوارث بن حبيب ومن معه إلى ورفجومة نزلوا على عاصم بن جميل الورفجومي. فكتب إليه حبيب يأمره أن يوجه بهم إليه، فلم يفعل، فَنَهد[2] إليه حبيب. ولقيه عاصم واقتتلوا فانهزم حبيب. وكان قد استخلف على القيروان أبا كُرَيب جميل بن كريب القاضي. فقوي أمر ورفجومة، وكاتَبَهم بعض وجوه القيروان خوفًا منهم على أنفسهم. فزحف عاصم بن جميل وأخوه مُكرَّم بالبربر وبمن لجأ إليهم وصاروا بناحية قابِس. فلما قربوا من القيروان، خرج إليهم أبو كريب القاضي بأهل القيروان. حتى إذا دنوا من بعضهم، خرج من عسكر عاصم جماعة من

(١) الأربس: بالضم ثم السكون والباء الموحدة مضمومة وسين مهملة: مدينة وكورة بإفريقية، وكورتها واسعة، وأكثر غلتها الزعفران، وبها معدن حديد، وبينها وبين القيروان ثلاثة أيام من جهة المغرب. . . (معجم ياقوت).

(٢) نهد: برز.

أهل القيروان، فخذلوا الناس ودعَوْهم إلى عاصم. فافترق أكثر الناس عن أبي كريب ورجعوا إلى القيروان. وثبت أبو كريب في نحو ألف رجل من وجوه الناس، وأهل البصائر والخشية والدين. وقاتلوا فقُتل أبو كريب. وقاتل من معه حتى قُتلوا. ودخلت ورفجومة القيروان. فاستحلوا المحَارم وارتكبوا العظائم. ونزل عاصم بعسكره بالموضع الذي يسمّى مصلّى روح.

واستخلف على القيروان عبد الملك بن أبي جَعْدة النَّفْزي. وسار إلى حبيب وهو بقابس. فقاتله فانهزم حبيب ولحق بجبل أوراس[1] وهم أخوال أبيه. فسار عاصم في طلبه إلى أوراس، والتقوا واقتتلوا، فهُزم عاصم وقُتل هو وأكثر أصحابه. وأقبل حبيب إلى القيروان. فخرج إليه عبد الملك بن أبي جعدة والتقوا. فقُتل حبيب في المحرم سنة أربعين ومائة. فكانت ولاية عبد الرحمٰن بن حبيب عشر سنين وأشهرًا، وولاية إلياس ستة أشهر، وولاية حبيب بن عبد الرحمٰن سنة واحدة وستة أشهر.

ذكر تغلب ورفجومة على إفريقية وما كان منهم ومن ولي بعدهم إلى أن ولّي محمد بن الأشعث

قال: ولما حكمت ورفجومة على القيروان، قتلوا من بها من قريش وساموهم سوء العذاب، وربطوا دوابهم في المسجد الجامع. وندم الذين أعانوهم أشد ندامة.

قال: ثم دخل رجل من الإباضية[2] القيروان فرأى ناسًا من الورفجوميين قد أخذوا امرأة وأرادوها على نفسها، والناس ينظرون. فترك حاجته التي أتى فيها، وخرج إلى أبي الخطاب عبد الأعلى بن السَّمْح المَعافري، فأعلمه بالذي رأى. فخرج وهو يقول: «لبيك اللهم لبيك». فاجتمع إليه أصحابه من كل مكان. وتوجهوا نحو طرابلس فأخرجوا منها عمر بن عثمان القرشي، واستولى عليها أبو الخطاب.

ثم سار إلى القيروان فخرج إليه عبد الملك بن أبي جعدة بجماعة ورفجومة. والتقوا فقُتل عبد الملك وأصحابه، وذلك في صفر سنة إحدى وأربعين. فكان تغلّب

---

(١) أوراس: بالسين المهملة: جبل بأرض إفريقية فيه عدة بلاد وقبائل من البربر. . . (معجم البلدان).

(٢) الإباضية: فرقة من الخوارج شاع أمرها في أواخر الدولة الأموية، تنسب إلى عبد الله بن إباض التميمي.

ورفجومة على القيروان سنة وشهرين. وتبع أبو الخطاب من انهزم منهم فقتلهم. ثم انصرف إلى القيروان فولّى عليها عبد الرحمٰن بن رستم القاضي، ومضى إلى طرابلس. فصارت طرابلس وما يليها وإفريقية كلها في يده، إلى أن وجه أبو جعفر المنصور محمد بن الأشعث في سنة أربع وأربعين.

ذكر ولاية محمد بن الأشعث الخزاعي

قال: لما غلبت الصُّفْرية على إفريقية بعد أن قتلت ورفجومة من قتلت من عربها، خرج جماعة إلى أبي جعفر المنصور، منهم عبد الرحمٰن بن زياد بن أَنْعُم، ونافع بن عبد الرحمٰن السُّلَمي، وأبو البهلول بن عبيدة، وأبو العِرْباض. فأتوا المنصور يستنصرون به على البربر، ووصفوا عظيم ما لقوه منهم. فولّى المنصورُ أبو جعفر محمد بن الأشعث مصر. فوجه أبا الأحْوص عمرو بن الأحوص العجْلي إلى إفريقية. فهزمه أبو الخطاب في سنة اثنتين وأربعين.

فكتب أبو جعفر المنصور إلى محمد بن الأشعث يأمره بالمسير بنفسه، ووجه إليه الجيوش. فخرج في أربعين ألفًا: ثلاثين ألف فارس من أهل خراسان، وعشرة آلاف من أهل الشام. ووجه معه الأغلب بن سالم التَّميمي والمحارب بن هلال الفارسي، والمُخارق بن غِفار الطائي، وأمرهم بالسمع والطاعة له. فإن حدث به حدث كان أميرهم الأغلب، فإن حدث به حدث فالمخارق، فإن حدث به حدث فالمحارب بن هلال. فمات المحارب قبل وصولهم إلى إفريقية. وبلغ أبا الخطاب خروج محمد بن الأشعث إليه، فجمع أصحابه من كل ناحية. ومضى في عدد عظيم فوصل إلى سُرْت[1]. واستقدم عبد الرحمٰن بن رستم من القيروان، فقدم بمن معه.

فضاق ابن الأشعث ذَرْعًا بلقاء أبي الخطاب لما بلغه من كثرة جموعه. فاتفق تنازع زَناته وهَوارة فيما بينهم. فقتلت هوارة رجلاً من زناته. فاتهمت زناتة أبا الخطاب في ميله مع هوارة، ففارقه جماعة منهم. فبلغ ذلك ابن الأشعث فسر به. وضبط أفواه السكك[2] حتى انقطع خبره عن أبي الخطاب. فرجع إلى طرابلس.

(١) سرت: بضم أوله، وسكون ثانيه، وآخره تاء مثناة من فوق: مدينة على ساحل البحر الرومي بين برقة وطرابلس الغرب لا بأس بها... (معجم البلدان).

(٢) السكك: جمع السكة: وهي الطريق المستوي.

ووصل ابن الأشعث إلى سُرْت. فخرج إليه أبو الخطاب حتى صار بورَدْاسَة. فلما قرب منه ذكر ابن الأشعث لأصحابه أن خبرًا أتاه من المنصور بالرجوع إلى المشرق. وأظهر لهم المسرة بالرجوع. فشاع ذلك في الناس. وسار منصرفًا ميلاً ثم نزل. فانتهى ذلك إلى أبي الخطاب وسمع به من معه، فتفرق كثير منهم. ثم أصبح ابن الأشعث فسار أميالاً متثاقلاً في سيره. وفعل ذلك في اليوم الثالث. ثم اختار أهل الجَلَد والقوة من جيشه، وسار بهم ليله كله. فصبح أبا الخطاب وقد اختلّ عسكره. فلما التقوا ترجَّل جماعة من أصحاب ابن الأشعث وقاتلوا. فانهزم البربر وقُتل أبو الخطاب وعامة من معه، وذلك في شهر ربيع الأول من سنة أربع وأربعين ومائة. فكانت عدة من قُتل من البربر أربعين ألفًا.

ولما انتهى الخبر إلى عبد الرحمٰن بن رستم هرب إلى تَيْهَرْت[1] واختطها وبلغ أهل القيروان خبر أبي الخطاب، فأوثقوا عامل ابن رستم وولّوا عليهم عمرو بن عثمان القرشي إلى أن قدم محمد بن الأشعث.

ووصل ابن الأشعث إلى طرابلس فاستعمل عليها المخارق بن غفار الطائي.

ووجه إسماعيل بن عكرمة الخُزاعي إلى زَويلة وما والاها، ففتح تلك النواحي وقتل من بها من الخوارج.

وتوجّه محمد إلى القيروان، وأمر ببناء سورها، وذلك في يوم السبت غرة جُمادى الأولى. فبُني في ذي القعدة، وكان تمامه في شهر رجب سنة ست وأربعين. وضبط إفريقية وأعمالها. وأمعن في قتل كل من خالفه من البربر فخافوه خوفًا شديدًا وأذعنوا له بالطاعة.

ثم فسد عليه جنده بعد ذلك، وتحدثوا أن المنصور كتب إليه يأمره أن يَقْدَم عليه وأنه أبى ذلك. فاجتمع رأيهم على إخراجه وتولية عيسى بن موسى الخُراساني. فلما رأى ذلك علم أنه لا طاقة له بهم. فخرج في شهر ربيع الأول سنة ثمان وأربعين ومائة. وقام بأمر الناس عيسى بن موسى من غير أمر أبي جعفر ولا رضا العامة إلا أن قواد المُضَرِية تراضوا به.

---

(١) تيهرت: هي تاهرت: اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب، يقال لإحداهما تاهرت القديمة وللأخرى تاهرت المحدثة، بينها وبين المسيلة ست مراحل؛ وهي بين تلمسان وقلعة بني حماد... (معجم ياقوت).

ذكر ولاية الأغلب بن سالم
ابن عقال بن خفاجة التميمي

قال: ولما بلغ المنصور ما كان من المُضَرية وصَرْفهم محمد بن الأشعث، بعث إلى الأغلب عهده بولاية إفريقية، وكان بطُبنَة[١] فقدم إلى القيروان وأخرج عيسى بن موسى في جُمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين. وأخرج جماعة من قواد المضرية واستقامت له الحال.

ثم خرج عليه أبو قُرَّة في جمع كثير من البربر. فسار إليه الأغلب في جميع قواده، فهرب منه. وقدم الأغلب الزاب، وعزم على الرحيل إلى تلمْسان ثم إلى طنجة. فاشتد ذلك على الجند، وجعلوا يتسللون عنه ويخرجون ليلاً إلى القيروان، حتى بقي في نفر يسير من وجوههم.

وكان الحسن بن حرب الكنْدي بتونس. فلما خرج الأغلب يريد أبا قرة، كاتب جماعة من القواد. فلحق به بعضهم الذين فارقوا الأغلب من الزاب. فأقبل إلى القيروان، ووازَره على ذلك بسطام بن الهُذيل القائد والفضل بن محمد وغيرهما، فدخل القيروان من غير ممانعة. وحبس سالم بن سوادة التَّميمي، وهو الذي استخلفه الأغلب على القيروان عند رحيله منها. وبلغ الخبر الأغلب فأقبل في عدة يسيرة ممن صبر على طاعته. وكتب إلى الحسن بن حرب يُعرِّفه فضل الطاعة وعقبى المعصية. فأعاد جوابه وكتب في آخره: [من الوافر]

ألا قُولا لأغلبَ غيرَ سِرٍّ ... مُغلغلَةً من الحَسنِ بنِ حربِ[٢]
بأنَّ البَغْيَ مَرتَعُهُ وَخيمٌ ... عليكَ وقُربُه لكَ شرُّ قربِ
وإنْ لم تَدْعُني لتَنالَ سَلمِيْ ... وإلا فاذنْ من طَعْني وضربي

فأقبل الأغلب نحوه يُجِد السير. فأشار عليه أصحابه الذين معه بالمصير إلى قابس، وأن يلطُف بالناس حتى يرجعوا عن الحسن إليه. ففعل ذلك. وقدم رسول المنصور إلى الأغلب، وإلى الحسن بن حرب يدعوه إلى الطاعة فلم يفعل. فزحف إليه الأغلب واقتتلوا قتالاً شديدًا. فانهزم الحسن وقُتل من أصحابه خلق كثير. فرجع إلى تونس. وأقبل الأغلب إلى القيروان.

---

(١) طبنة: بضم أوله ثم السكون، ونون مفتوحة: بلدة في طرف إفريقية مما يلي المغرب على ضفة الزاب... (معجم ياقوت).

(٢) المغلغلة: الرسالة المحمولة من بلد إلى بلد.

وحشد الحسن بن حرب وسار في عدة عظيمة إلى القيروان. فجمع الأغلب أهل بيته وخاصته وأعلمهم أنه يُلاقي الحسن وحده إنْ لم يُعنْه أحد. فلما قرب، خرج إليه الأغلب فشدّ هو وأصحابه على الميمنة فكشفهم. ثم انصرف وهو يقول: [من الرجز]

لم يبقَ إلا القلبُ أو أموتُ إن تَخمَ لي الحربُ فقد حَميتُ
* وإنْ تولَّيتُ فلا بقيتُ *

ثم حمل على القلب فلم يثن حَدَّه حتى قُتل بسهم أصابه، وذلك في شعبان سنة خمسين ومائة. قال: ولما سقط الأغلب صاح الناس: «قُتل الأمير». وارتفعت الأصوات بذلك. قال: وكان سالم بن سوادة في الميمنة هو وأبو العنبس. فقال سالم لأبي العنبس: «لا أنظر إلى الدنيا بعد اليوم». ودفع في عسكر الحسن بن حرب، فقَتل من أصحاب الحسن مَقْتلةً عظيمة. ووُجد الحسن بن حرب مقتولاً.

ذكر ولاية عمر بن حفص هزارمرد

وتفسيره بالفارسية ألف رجل، ويكنى أبا جعفر. وكان شجاعًا بطلاً. وهو من ولد قَبيصة بن أبي صُفْرة أخي المُهلَّب. استعمله المنصور على إفريقية لما بلغه قتل الأغلب. فقدمها في صفر سنة إحدى وخمسين ومائة في خمسمائة فارس. فاجتمع إليه وجوه الناس، فوصلهم وأحسن إليهم. فاستقامت له الأمور ثلاث سنين وأشهرًا من ولايته.

ثم سار إلى الزاب فنزل طُبْنَة. واستخلف على القيروان حبيب بن حبيب بن يزيد بن المهلب، وكان كتاب المنصور قدم عليه بالشخوص إلى الزاب لبناء طبنة. فخلت إفريقية من الجند فثار بها البربر. فخرج إليهم حبيب وقاتلهم فقُتل. واجتمع البربر بطرابلس وولوا عليهم أبا حاتم يعقوب بن حبيب مولى كِنْدة، وهو الذي يسمى أبا قادم. وكان عامل عمر على طرابلس الجُنَيْد بن سَيار الأزدي، فبعث إليهم الجنيد خيلاً عليهم خازم بن سليمان. فالتقوا واقتتلوا، فانهزم خازم وأصحابه ولحقوا بالجنيد بطرابلس.

فكتب الجنيد إلى عمر يستمده. فبعث إليه خالد بن يزيد المهلبي في أربعمائة فارس. فاجتمع هو والجنيد والتقيا مع البربر. فانهزم خالد والجنيد إلى قابس.

فبعث عمر بن حفص سليمان بن عباد المهلبي في جماعة من الجند. فلقي أبا قادم بقابس، فقاتله. فانهزم سليمان إلى القيروان. فسار إليها وحصرها، وعمر مقيم بطُبْنة، وقد صارت إفريقية وأعمالها نارًا تتّقد.

وأتى البربر من كل مكان، ومضوا إلى طُبْنة فأحاطوا بها وهم في اثني عشر عسكرًا: أبو قُرَّة الصُفْري في أربعين ألف فارس، وعبد الرحمٰن بن رستم الإباضي في خمسة عشر ألف فارس، وأبو حاتم في عدد كثير، وكان إباضيًا، وعاصم السِّدْراتي الإباضي في ستة آلاف، والمسْوَر الزَّناتي الإباضي في عشرة آلاف فارس، وعبد الملك بن سُكَرديد الصِّنْهاجي الصُفْري في ألفي فارس، وجماعة غير هؤلاء، وليس مع عمر إلا خمسة آلاف وخمسمائة.

فلما رأى ما حلّ به جمع قواده فاستشارهم في مناجزتهم. فأشاروا عليه ألا يخرج من المدينة. فأعمل الحيلة في صَرْف الصُفْرية، ووجه إليهم رجلاً من أهل مِكْناسَة[1] يقال له إسماعيل بن يعقوب. ودفع إليه أربعين ألف درهم وكُسًا كثيرة، وأمره بدفع ذلك إلى أبي قرة على أن ينصرف عنهم. فقدم عليه وعرض المال والكسا. فقال له: «أبعد أربعين سنة يُسلَّم علي بالإمامة أبيع حربكم بعَرَض قليل من الدنيا؟ لا حاجة لي به». فانصرف إلى ابنه وقيل إلى أخيه. ودفع إليه أربعة آلاف درهم وأثوابًا على أن يعمل في صرف أبيه ورَد الصفرية إلى بلدهم فعمل ذلك من ليلته. فلم يشعر أبو قرة حتى ارتحل العسكر منصرفين إلى بلدهم. فلم يجد بُدًّا من أتباعهم.

فلما انصرف الصفرية وجه عمر مَعْمر بن عيسى السَّعْدي في ألف وخمسمائة إلى ابن رستم، وهو بتَهُوذا في خمسة عشر ألف فارس. فالتقوا فانهزم ابن رستم ووصل إلى تَيْهَرْت.

ثم أقبل عمر بن حفص يريد القيروان. واستخلف على طُبْنة المُهَنّا بن المُخارق بن غفار الطائي. فلما بلغ أبا قرة مسيره، أقبل بجموعه وحصر المهنا بطبنة. فخرج إليه وقاتله. فانهزم أبو قرة واستباحوا عسكره.

وكان أبو حاتم لما حاصر القيروان أقام عليها ثمانية أشهر، وليس في بيت مالها درهم واحد ولا في أهْرائها[2] شيء من الطعام وكان الجند في تلك المدة يقاتلون البربر طرفي النهار حتى جهَدهم الجوع، وأكلوا دوابهم وكلابهم. فجعل الناس

(١) مكناسة: بكسر أوله وسكون ثانيه، ونون، وبعد الألف سين مهملة: مدينة بالمغرب في بلاد البربر على البر الأعظم، بينا وبين مراكش أربع عشرة مرحلة نحو المشرق، وهي مدينتان صغيرتان على ثنية بيضاء بينهما حصن جواد. . . (معجم البلدان).

(٢) الأهراء: المستودعات يجمع فيها الطعام.

يخرجون فيلحقون بالبربر. فبلغ ذلك عمر فأقبل يريد القيروان في نحو سبعمائة من الجند حتى نزل مدينة الأُرْبُس فبلغ البربر إقباله، فرجعوا إليه بأجمعهم ورحلوا عن القيروان. فلما بلغه إقبالهم توجه إلى ناحية تونس، وأغَذّ السير. ومضى البربر حتى صاروا بناحية سمنجة. وسار عمر من تونس وخرج جميل بن صخر من القيروان، فالتقوا في بئر السلامة. ثم أقبل حتى دخل القيروان. فبثّ خيوله حول القيروان وجعل يُدخل إليها ما يُصلحه من الطعام والحطب وغير ذلك. واستعدّ للحصار، وخندق خندقًا على باب أبي الربيع فعسكر فيه الجند.

ثم قدم أبو حاتم في جنوده وقد بلغوا مائة ألف وثلاثين ألفًا. فقاتله عمر بمن معه أشدّ قتال. فانكشف حتى صار إلى الفسطاط[1]. ثم اقتتلوا بالفسطاط واشتد قتالهم وكاثَرُوه حتى انحاز إلى الخندق بباب أبي الربيع. وكان عمر يخرج إليهم في كل يوم ويقاتلهم فما زالوا على ذلك حتى فنيت أقواتهم وأكلوا دوابهم والسنانير. فاضطرب على عمر أمره وضجر أصحابه وساءت آراؤهم. فقال لمن معه من الجند: «قد كان أصابكم من الجهد أمر عظيم حتى قدمت عليكم ففرج الله عنكم بعض ما كنتم فيه. وقد ترون ما أنتم الآن فيه. فإن شئتم خرجت أنا على ذراريهم وبلادهم. وجعلت عليكم أي الرجلين شئتم: جميلاً أو المخارق. وأخرج في ناس من الجند فأُغير على نواحيهم وآتيكم بالميرة»[2]. فقالوا: «قد رضينا». وكان قد اجتمع حول القيروان من الإباضية مع أبي حاتم ثلاثمائة ألف وخمسين ألفًا: الخيل منها خمسة وثلاثون ألفًا. فلما همّ بالخروج، اختلفوا عليه وقالوا: «تحب أن تخرج ونبقى نحن في الحصار، لا تخرج وأقم معنا». قال: «نعم، أقيم معكم وأُخرج جميلاً والمخارق ومن أحببتم». قالوا: «نعم». فلما جاؤوا إلى باب المدينة قالوا: «تقيم أنت في الراحة ونخرج نحن! لا والله لا نفعل». فغضب عمر وقال: «والله لأُورِدَنّكم حياض الموت».

وجاءه وهو محصور كتاب خُليدة بنت المُعارك امرأته تخبره فيه: إن أمير المؤمنين قد استبطأك فبعث يزيد بن حاتم إلى إفريقية، وهو قادم في ستين ألفًا، ولا خير في الحياة بعد هذا. قال خراش بن عَجْلان: فأرسل إلى فجئته، وقد ثار عرق بين عينيه وكان علامة غضبه. فأقرأني الكتاب فدمعت عيناي. فقال: «ما لك؟»

---

(١) الفسطاط: مدينة مصر التي بناها عمرو بن العاص.

(٢) الميرة: الطعام يجمع للسفر ونحوه.

فقلت: «وما عليك أن يقدمَ رجل من أهلك فتخرج من هذا الحصار؟» فقال: «إنما هي رقدة حتى نُبعَث إلى الحساب فاحفظ وصيتي».

قال خراش: فأوصى بما أحب. وخرج كالبعير الهائج. فلم يزل يطعن ويضرب حتى قُتل، وذلك في يوم السبت للنصف من ذي الحجة سنة أربع وخمسين ومائة.

فلما قُتل بايع الناس جميل بن صخر، وهو أخو عمر لأمه. فلما طال عليه الحصار دعاه ذلك إلى موادعة أبي حاتم. فصالحه على أن جميلاً وأصحابه لا يخلعون طاعة سلطانهم ولا ينزعون سوادهم، وعلى أن كل دم أصابه الجند من البربر فهو هَدَر، وعلى أن لا يُكرهوا أحدًا من الجند على بيع سلاحهم ودوابهم. فأجابهم إلى ذلك أبو حاتم. ففتح جميل أبواب المدينة وخرج أكثر الجند إلى طُبْنة. وأحرق أبو حاتم أبواب المدينة وأثَّر في سورها.

وبلغه قدوم يزيد بن حاتم فتوجه إلى طرابلس، واستخلف على القيروان عبد العزيز بن السَّمْح المَعافري. ثم بعث إليه أبو حاتم يأمره بأخذ سلاح الجند، وألا يجتمع منهم اثنان في مكان واحد، وأن يوجه إليه بهم واحدًا بعد واحد. فاجتمعوا واستوثق بعضهم من بعض بالأيمان المؤكدة أن لا يرضوا بهذا. وقويت قلوبهم بيزيد بن حاتم. فلقوا عمر بن عثمان الفهري واتفقوا معه وولوه أمرهم. فقَبله وقام على أصحاب أبي حاتم فقتلهم. واتصل ذلك بأبي حاتم فزحف من طرابلس. فلقي عمر بن عثمان ومن معه. فاقتتلوا فقُتل من البربر خلق كثير. ومضى عمر بن عثمان وأصحابه نحو تونس. ومضى جميل بن صخر والجنيد بن سيار هاربين نحو المشرق.

وخرج أبو حاتم في طلب عمر بن عثمان. ووجه قائدًا من قواده يقال له جرير بن مسعود المديوني على مقدمته. فأدركه بجِيجَل[1] من ناحية كُتامة. فقاتلوه فقُتل جرير بن مسعود وأصحابه. وانصرف عمر والمخارق فدخلا تونس، ومضى أبو حاتم إلى طرابلس حين بلغه قدوم يزيد بن حاتم. ولحق جميل بن صخر بيزيد وهو بسُرْت. فأقام إلى أن لقي أبا حاتم.

فيقال: إنه كان بين الجند والبربر من لدن قتالهم عمر بن حفص إلى انقضاء أمرهم ثلاثمائة وخمس وسبعون وقعة.

---

(١) جيجل: بكسر الجيم الأولى، وفتح الثانية، بينهما ياء ساكنة، وآخره لام: موضع... (معجم البلدان).

ذكر ولاية يزيد بن حاتم بن قبيصة[١] ابن المهلب بن أبي صفرة

قال: ولما اتصل بأبي جعفر المنصور حال عمر بن حفص وحَصْره ثم بلغه أنه قُتل، غَمَّه ذلك وساءه. فوجه يزيد بن حاتم في ثلاثين ألفًا من أهل خراسان، وستين ألفًا من أهل البصرة والكوفة والشام. فأقبل حتى صار إلى سُرْت. فاجتمع بجميل بن صخر وبمن معه من الجند القادمين عليه من القيروان، وسار نحو طرابلس. فسار أبو حاتم إلى جبال نفوسة[٢]. وجعل يزيد على مقدمته سالم بن سَوادة التَّميمي. فالتقى سالم هو وأبو حاتم، واقتتلوا قتالاً شديدًا. فانهزم سالم وأصحابه، ورجعوا إلى عسكر يزيد.

وهال أبو حاتم أمر يزيد فطلب أوعر المنازل وأمنعها، فعسكر فيها، وخَنْدق على عسكره. فأتاه يزيد من ناحية الخندق، والتقوا واقتتلوا. فقُتل أبو حاتم وأهل البصائر من أصحابه، وانهزم الباقون. وطلبهم يزيد فقتلهم قتلاً ذريًا. وبعث خيله في طلبهم بكل ناحية. فكان عدة من قُتل منهم ثلاثين ألفًا. ويقال: إنه لم يُقتَل من الجند إلا ثلاثة. وذلك في يوم الاثنين لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة خمس وخمسين ومائة. وأقام يزيد بمكانه ذلك نحوًا من شهر. وبثّ خيله في طلب الخوارج فقتلهم في كل سهل وجبل.

ثم رحل حتى نزل قابس فدخلها لعشر بقين من جُمادى الآخرة. واستقامت له الأمور بعد أن قتل البربر بكل ناحية. وبنى يزيد المسجد الأعظم بالقيروان، وجدده في سنة سبع وخمسين. ورتب أسواق القيروان، وجعل كل صناعة في مكانها، حتى لو قيل: إنه الذي مَصَّرها، لم يُبْعَد من الحق.

ولم تزل البلاد مستقيمة والأمور ساكنة مدةَ حياته إلى أن توفي في شهر رمضان

---

(١) هو يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي، أرسله المنصور لحرب الخوارج واستمر واليًا على إفريقية خمس عشرة سنة وكان من الممدحين الأجواد... (شذرات الذهب ١: ٢٧٥).

(٢) نفوسة: بالفتح ثم الضم، والسكون، وسين مهملة: جبال في المغرب بعد إفريقية عالية نحو ثلاثة أميال في أقل من ذلك، وفيها منبران في مدينتين إحداهما سروس في وسط الجبل... والأخرى يقال لها جادو من ناحية نفزاوة... (معجم البلدان).

سنة سبعين ومائة في خلافة الرشيد. وكان كريمًا شجاعًا نافذ الرأي، بعيد الصّيت، غاية في الجود. وهو القائل: [من البسيط]

لا يألف الدرهَمُ المَضْروبُ خِرْقَتنا إلا لِـمـامًـا قـلـيـلاً ثـم يـنـطـلـقُ
يَـمُـرُّ مَـرًّا عـلـيـهـا وهـي تَـلْـفـظـه إني امرؤٌ لـم يُحالفْ خرْقَتي الوَرِقُ(١)

وله أخبار بإفريقية تدل على كرمه وبُعْد همته. فمن مشهورها أن بعض وكلائه أتاه يومًا فقال: «أعزّ الله الأمير! أُعطيت في الفول الذي زرعناه بفَحْص القيروان كذا وكذا!». وذكر مالاً جليلاً. فسكت وأمر قَهْرمانه وطباخه أن يخرجا إلى ذلك الموضع. وأمر فرّاشيه أن يضربوا قُبة، فضربوا مضارب كثيرة. وخرج مع أصحابه فتنزه فيه وأطعم. فلما أراد الانصراف دعا بالوكيل وأمر بمأدبة وقال له: «يا ابن اللَّخْناء، أردت أن أُعيَّر بالبصرة فيقال: يزيد بن حاتم باقلاني! أمثْلي يبيع الفول، لا أُمَّ لك؟». ثم أمر بإباحته. فخرج الناس إليه من بين آكل وشارب ومتنزه حتى أتوا على جميعه.

ومن أخباره المشهورة أنه خرج متنزهًا إلى مُنْية الخيل، فنظر في طريقه إلى غنم كثيرة. فقال: «لمن هذه؟» قالوا: «لابنك إسحاق» فدعا به فقال له: «ألك هذه الغنم؟» قال: «نعم» قال: «لِمَ أردتها؟» قال: «آكل من خرافها وأشرب من ألبانها وأنتفع بأصوافها» قال: «فإذا كنت أنت تفعل هذا، فما بينك وبين الغنامين والجزارين فرق» وأمر أن تُذبح وتُباح للناس. فانتهبوها وذبحوها وأكلوا لحومها. وجعلوا جلودها على كُدْية(٢)، فهي تعرف بكدية الجلود.

وله مكارم يطول شرحها رحمه الله تعالى.

ذكر ولاية داود بن يزيد بن حاتم

قال: ولما مرض يزيد استخلف ابنه داود، فاستقل بالأمر بعده فانتقض عليه البربر بجبال باجة، وخرج صالح بن نُصَير النَّفْري في الإباضية. فلقيه المهلَّب بن يزيد بباجة. فهزموه وقتلوا من أصحابه جماعة. فوجه إليهم داود سليمان بن الصِّمَّة بن يزيد بن حبيب بن المهلب في عشرة آلاف فارس. فهزم البربر وتبعهم وقتل منهم أكثر من عشرة آلاف، وسلّم الجند. قال: وانضم إلى صالح بن نصير جماعة من مَشْيَخة البربر. فزحف إليهم سليمان بن الصمة فقتل من أهل البصائر منهم وانصرف إلى القيروان.

(١) المراد بالورق: الدراهم المضروبة.
(٢) الكدية: الأرض الغليظة.

وأقام داود على إفريقية حتى قدم عمه رَوْح بن حاتم أميرًا. فكانت ولاية داود تسعة أشهر ونصف شهر. وسار إلى المشرق فأكرمه الرشيد وولاه مصر، ثم ولّي السند فمات بها.

ذكر ولاية روح بن حاتم بن قبيصة ابن المهلب بن أبي صفرة

قال: ولما بلغ الرشيد وفاة يزيد بن حاتم استعمل روح بن حاتم على المغرب، وكان أكبر من يزيد سنًّا. فوصل إلى القيروان في شهر رجب سنة إحدى وسبعين ومائة في خمسمائة فارس من الجند. ثم لحق به ابنه قَبيصَة في ألف وخمسمائة فارس. ولم تزل البلاد معه هادئة والسبل آمنة. ومُلِيء البربر منه رعبًا. ورغب في موادعة عبد الوهاب بن رستم الإباضي صاحب تيهرت، وهو الذي تنسب إليه الوهبية. فلم تزل الأحوال مستقيمة مدة ولايته إلى أن توفي لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة أربع وسبعين ومائة.

ذكر ولاية نصر بن حبيب المهلبي

قال المؤرخ: كان روح بن حاتم قد أَسَنّ وكبر، وإذا جلس للناس غلبه النوم من الضعف. فكتب أبو العنبر القائد وصاحب البريد إلى الرشيد بضعفه وكبره، وأنهما لا يأْمنان موته، وهو ثَغْر لا يقوم بغير سلطان، وذكرا نصر بن حبيب، وحسن سيرته، ومحبة الناس له. وقالا: «إنْ رأى أمير المؤمنين ولايته في السر إنْ حدث بروح حادث حتى يرى أمير المؤمنين رأيه» فكتب الرشيد عهده سرًّا.

فلما مات روح فُرش لابنه قبيصة في الجامع فجلس واجتمع الناس للبيعة له. فركب أبو العنبر وصاحب البريد إلى نصر ومعهما عهده. فأوصلاه العهد وسلّما عليه بالإمرة، وأركباه إلى المسجد فيمن معهما. فأقاما قبيصة وأجلسا نصرًا. وقُرِىء كتاب الرشيد على الناس فسمعوا وأطاعوا. فَبَسط العدل وأحسن إلى الناس. وأقام واليًا على المغرب سنتين وثلاثة أشهر.

وكان الفضل بن روح لما مات أبوه عاملاً على الزاب، فلما ظهر كتاب الرشيد بولاية نصر سار إلى الرشيد، ولزم بابه حتى ولاه المغرب.

ذكر ولاية الفضل بن روح

قال: ولما ولاه الرشيد كتب إلى إفريقية بعزل نصر، وأن يقوم بإفريقية المهلب بن يزيد إلى أن يقدم. ثم قدم في المحرم سنة سبع وسبعين ومائة.

وولّى على تونس ابن أخيه المُغِيرة بن بِشْر بن رَوْح، وكان غِرًّا فاستخفّ بالجند، وسار فيهم بغير سيرة من تقدمه، ووثق أن عمه لا يعزله. فاجتمعوا وكتبوا إلى الفضل كتابًا يخبرونه بسوء صنيع المغيرة فيهم وقبيح سيرته. فتثاقل الفضل عن جوابهم. فانْضاف هذا إلى أمور كانوا قد كرهوها من الفضل منها استبداده برأيه دونَهم. فاجتمعوا وولوا أمرهم عبد الله بن الجارُود وهو المعروف بعَبْدُويْه وبايعوه بعد أن استوثق منهم.

ثم انصرفوا إلى دار المغيرة فحصروه. فبعث إليهم يسألهم ما الذي يريدون. فقالوا: «ترحل عنا وتلحق بصاحبك أنت ومن معك» وكتب عبدويه إلى الأمير الفضل:

«من عبد الله بن الجارود.

أما بعد، فإنا لم نخرج المغيرة إخراجَ خلاف عن طاعة، ولكن لأحداث أحدثها فيها فساد الدولة. فوَلِّ علينا من نرضاه وإلا نظرنا لأنفسنا، ولا طاعة لك علينا والسلام».

فكتب إليه: «من الفضل بن روح إلى عبد الله بن الجارود.

أما بعد، فإن الله عزّ وجل يُجْرِي قضاياه فيما أحب الناس أو كرهوا، وليس اختياري واليًا اخترته لكم أو اخترتموه بحائل دون شيء أراد الله عزّ وجل بلوغه فيكم. وقد وليتُ عليكم عاملاً، فإن دفعتموه فهو آية النُّكْث منكم. والسلام».

وبعث عبد الله بن يزيد المهلّبي عاملاً على تونس. وضم إليه النَّضر بن حَفْص، وأبا العنبر، والجنيد بن سيار. فلما وصل ظاهر تونس، أشار أصحاب عبدويه عليه بقَبْضه هو ومن معه وحبسهم. فخرج أصحاب عبدويه إلى عبد الله بن يزيد، فحملوا عليه وقتلوه وأسروا من معه. فقال عبدويه: «ما لهذا بعثتكم، فأما إذ وقع فما رأيكم؟» فأجمعوا على الخلاف.

وأخذوا في المكائد. وتولى أمر عبدويه محمد بن الفارسي، وهو الذي أثار هذه الفتنة. وشرع في مكاتبة القواد وإفسادهم، ووعد كل واحد منهم أنه يوليه الأمر. ففسد الحال على الفضل. وكانت أمور يطول شرحها، وحرب آخرها أن ابن الجارود

سار فيمن معه إلى القيروان، وقاتل الفضل وهزمه، واستولى على البلد وأخرجه منها. ثم قبض عليه وأراد أن يحبسه. فقال أصحابه: «لا نزال في حرب ما دام الفضل حيًّا» فدافع عنه محمد بن الفارسي وأشار أن لا يقتلوه. فقاموا إليه وقتلوه. فعند ذلك أمر عبدويه المهلب بن يزيد ونصر بن حبيب وخالدًا وعبد الله بن يزيد بالخروج من إفريقية، فخرجوا كلهم.

ذكر أخبار عبد الله بن الجارود

قال: ولما قُتل الفضل واستولى عبد الله على القيروان، سمع شَمْدُون القائد ما صنع بالفضل، فقام غضبًا له. واجتمع في الأُرْبُس هو وفَلاح بن عبد الرحمٰن الكُلاعي القائد، والمغيرة، وغيرهم. وأقبل عليهم أبو عبد الله مالك بن المُنْذِر الكَلْبي من مِيلَة[1]، وكان واليًا عليها في عدد كثير، فقدموه على أنفسهم. واجتمع إليهم الناس. والتقوا بابن الجارود واقتتلوا. فقُتل مالك بن المنذر، وانهزم أصحابه حتى صاروا إلى الأُرْبُس.

فكتب شمدون إلى العلاء بن سعيد ـ وهو بالزاب ـ أن يقدم عليه. فأقبل إلى الأربس واجتمع بالمغيرة وشمدون وفلاح وغيرهم. وأقبل العلاء يريد القيروان فصادف ابن الجارود وقد خرج منها يريد يحيى بن موسى خليفة هَرْثَمة بن أعْيَن، وذلك أن الرشيد لما اتصل به وثوب ابن الجارود على الفضل وإفساده إفريقية، وجَّه يَقْطين بن موسى لمحله من دعوتهم، ومكانه من دولتهم، وكبر سنّه، وحاله عند أهل خراسان. وأمره بالتلطف بابن الجارود وإخراجه من البلد. ووجه معه المهلب بن رافع. ثم وجه منصور بن زياد، وهرثمة بن أعين أميرًا على المغرب. فأقام ببرقة.

وقدم يقطين القيروان فجرى بينه وبين ابن الجارود كلام كثير. ودفع إليه كتاب الرشيد، فقال ليقطين: «قد قرأت كتاب أمير المؤمنين، وأنا على السمع والطاعة. وفي كتاب أمير المؤمنين أنه ولّى هرثمة بن أعين، وهو ببرقة يصل بعدكم. ومع العلاء البربر، فإن تركت الثغر وثب البربر فأخذوه وقتلوا العلاء ولا يدخله وال لأمير المؤمنين أبدًا، فأكون أشأم الخلق على هذا الثغر. ولكن أخرج إلى العلاء، فإنْ ظفر بي فشأنكم بالثغر، وإن ظفرتُ به انتظرت قدوم هرثمة. ثم أخرج إلى

---

(١) ميلة: بالكسر ثم السكون، ولام: مدينة صغيرة بأقصى إفريقية، بينها وبين بجاية ثلاثة أيام، ليس لها غير المزدرع وهي قليلة الماء، بينها وبين قسطنطينية يوم واحد... (معجم البلدان).

أمير المؤمنين» فاجتمع يقطين مع محمد بن يزيد الفارسي - وهو صاحب ابن الجارود - ووعده التقدم وقيادة ألف فارس وصلة وقطيعة في أي المواضع شاء، على أن يفسد حال عبد الله بن الجارود. ففعل ذلك وسعى في إفساد الخواطر على ابن الجارود، ورغّب الناس في الطاعة. فمالوا إليه وانضموا له. وخرج على ابن الجارود، فخرج عبد الله لقتاله. فلما تواقفا للقتال، ناداه ابن الجارود أن اخرج إلي حتى لا يسمع كلامي وكلامك غيرنا. فخرج إليه فحدثه وشاغَله بالكلام، وكان قد وضع على قتله رجلاً من أصحابه يقال له أبو طالب فخرج إليه - وهو مشغول بحديث عبد الله - فما شعر حتى حمل عليه وضربه فدقّ صلبه، فانهزم أصحابه.

وقدم يحيى بن موسى خليفة هرثمة إلى طرابلس. فصلّى عيد الأضحى بالناس وخطبهم. وقدم عليه جماعة من القواد واستفحل أمره.

وأقبل العلاء بن سعيد يريد القيروان. فعلم ابن الجارود أنه لا طاقة له بالعلاء. فكتب إلى يحيى أن اقدم إلى القيروان فإني مسلم إليك سلطانها. وأجاب إلى الطاعة. فخرج يحيى بن موسى بمن معه من طرابلس في المحرم سنة تسع وسبعين ومائة. فلما بلغ قابس تلقاه بها عامة الجند الذين بالقيروان. وخرج ابن الجارود من القيروان في مستهلّ صفر، واستلخف عليها عبد الملك بن عباس. وكانت أيام ابن الجارود سبعة أشهر. وأقبل العلاء بن سعيد ويحيى بن موسى متسابقين إلى القيروان، فسبقه العلاء إليها. فقتل منها جماعة من أصحاب ابن الجارود. فبعث إليه يحيى: «إن كنت على الطاعة ففَرِّق جموعك» فأمر من معه بالانصراف إلى مواضعهم. وسار في نحو ثلاثمائة من خاصته إلى طرابلس. وكان ابن الجارود قد وصل إليها قبل وصوله وخرج مع يقطين بن موسى نحو المشرق حتى وصل إلى هارون الرشيد.

قال: وكتب العلاء إلى منصور وهرثمة أنه الذي أخرج ابن الجارود من إفريقية. فكتب إليه هرثمة بالقدوم، وأجازه بجائزة سنية. وبلغ خبره هارون، فكتب إليه بمائة ألف درهم صلة سوى الكِسَا، فلم يلبث إلا يسيرًا حتى توفي بمصر.

ذكر ولاية هرثمة بن أعين

قال: وقدم هرثمة القيروان في مستهلّ شهر ربيع الآخر سنة تسع وسبعين ومائة فأمن الناس وسكنهم وأحسن إليهم. وهو الذي بنى القصر الكبير بالمُنَستِير[1] في سنة

---

(١) المنستير: بضم أوله، وفتح ثانيه، وسكون السين المهملة، وكسر التاء المثناة من فوقها، وياء، وراء: هو موضع بين المهدية وسوسة بإفريقية، بينه وبين كل واحدة منهما مرحلة، وهي خمسة قصور يحيط بها سور واحد يسكنها قوم من أهل العبادة والعلم... (معجم البلدان).

ثمانين ومائة. وبنى أيضًا سور مدينة طرابلس مما يلي البحر. وواتر الكتب إلى الرشيد أن يعفيه من إفريقية لما رأى الاختلاف بها وسوء طاعة أهلها. فكتب إليه بالقدوم إلى المشرق. فرجع في شهر رمضان سنة إحدى وثمانين ومائة.

ذكر ولاية محمد بن مقاتل بن حكيم العكي(١)

قال: ولما كتب هرثمة إلى هارون يسأله الإعفاء وجّه محمد بن مقاتل أميرًا للمغرب، وكان رضيع هارون. فقدم القيروان في شهر رمضان سنة إحدى وثمانين ومائة. ولم يكن بالمحمود السيرة، فاضطربت عليه أحواله واختلف جنده، وكان سبب الاضطراب عليه أنه اقتطع من أرزاق الجند وأساء السيرة فيهم وفي الرعية. فقام فلاح القائد، ومشى في أهل الشام وخراسان حتى اجتمع رأيهم على تقديم مرة بن مخلد الأزدي.

وخرج عليه بتونس تَمام بن تَميم التَّميمي ـ وكان عامله عليها ـ فَبايعه جماعة من القواد وأهل الشام وأهل خراسان. فخرج في النصف من شهر رمضان سنة ثلاث وثمانين ومائة إلى القيروان. وخرج إليه ابن العكي فيمن معه، فقاتله قتالاً شديدًا في منية الخيل، فانهزم ابن العكي ودخل القيروان، وتحصن في دار كان قد بناها، وجلا عن دار الإمارة. وأقبل تمام ودخل القيروان في يوم الأربعاء لخمس بقين من شهر رمضان. فأمَّنه تمام على دمه وماله، على أنه يخرج عنه.

فخرج تلك الليلة وسار حتى وصل إلى طرابلس ثم مضى إلى سُرْت. وعاد إلى طرابلس بمكاتبة بعض أهل خراسان.

فنهض إبراهيم بن الأغلب من الزاب على تمام غضبًا للعكّي. فلما بلغ تمامًا إقباله جلا عن القيروان، ودخلها إبراهيم بن الأغلب. فخطب الناس وأعلمهم أن أميرهم محمد بن مقاتل. وكتب إليه بالرجوع، فرجع.

ثم أخذ تمام في مراسلة الناس وإفسادهم على العكي فمالوا إليه. فكثُر جمعه وطاب نفسًا بقتال العكي. وكتب إليه: «أما بعد. فإن إبراهيم بن الأغلب لم يبعث إليك فيردك من كرامتك عليه ولا للطاعة التي يُظهرها، ولكنه كره أن يبلغك أنه أخذ البلاد فترجع إليه. فإن منعك كان مخالفًا، وإن دفعها إليك كان كارهًا. فبعث إليك

(١) نسبة إلى عكّ، وهي قبيلة يضاف إليها مخلاف باليمن ومقابله مرساها دهلك... (معجم ياقوت ٤:١٤٢).

لترجع ثم يسلمك إلى القتل. وغدًا تعرف ما جربت من وقعتنا أمس» وفي آخره: [من الطويل]

وما كان إبراهيمُ من فَضْل طاعة ... يَرُدُّ عليك الثَّغرَ إلا لتُقتَلا
فلو كنتَ ذا عقلٍ وعلمٍ بكيده ... لَما كنتَ منه يا بن عكٍّ لتَقْبلا

فلما وصل كتابه، قرأه العكي ودفعه إلى إبراهيم بن الأغلب. فقرأه وضحك وقال: «قاتله الله! ضَعْفُ عقله زَيَّن له ما كتب به» فكتب إليه ابن العكي:

«من محمد بن مقاتل إلى الناكث تمام.

أما بعد، فقد بلغني كتابك، ودلني ما فيه على قلة رأيك. وفهمت قولك في إبراهيم. فإن كنت كتبتَ نصيحة، فليس من خان الله ورسوله وكان من المفسدين بمقبول منه ما يَتنصَّح به. وإن كانت خديعة فأقبحُ الخدائع ما فُطِن له. وأما ما ذكرت من إسلام إبراهيم إذا التقينا، فَلعمْر أبيك ما يلقاك أحد غيره. وأما قولك: إنا جربنا من وقعتك أمس ما سنعرفه غدًا، فإن الحرب سِجال[1]: فلنا يا تمام عليك العُقْبَى إن شاء الله» وفي أسفله: [من الطويل]

وإنّي لأرجو إن لَقيت ابنَ أغلَبٍ ... غداةَ المنايا أن تُفَلَّ وتُقْتَلا[2]
تُلاقي فتىً يَسْتصحب الموتَ في الوغى ... ويحمي بصدر الرمح مَجْدًا مؤثَّلا[3]

فأقبل تمام من تونس في جمع عظيم. وأمر ابن العكي من كان معه من أهل الطاعة بالخروج إليه وتقدمة إبراهيم بن الأغلب. والتقوا واقتتلوا فانهزم تمام إلى تونس، وقُتل جماعة من أصحابه.

وانصرف العكي إلى القيروان ثم أمر إبراهيم بالمسير إلى تمام بتونس، وذلك في شهر المحرم سنة أربع وثمانين ومائة. فلما بلغ تمامًا إقباله كتب إليه يسأله الأمان، فأمّنه. وأقبل به إلى القيروان يوم الجمعة لثمان خلون من الشهر. فلما صار الأمر إلى إبراهيم بن الأغلب بعث تمام بن تميم وغيره من وجوه الجند الذين شأنهم الوثوب على الأمراء إلى بغداد، فحبسوا في المُطْبَق[4].

---

(١) الحرب بينهم سجال: أي نصرتها بينهم متداولة، سجل منها على هؤلاء، وآخر على هؤلاء. والسّجل: النصيب من الشيء.
(٢) تفلّ: فلَّ حدُّ السيف تقطّع وتكسّر.
(٣) المؤثّل: الأصيل الشريف.
(٤) المطبق: السجن تحت الأرض.

قال: ودام محمد بن مقاتل في القيروان إلى أن عزله الرشيد واستعمل إبراهيم بن الأغلب، على ما نذكره في أخبار دولة بني الأغلب إن شاء الله تعالى.

ذكر ابتداء دولة بني الأغلب

هذه الدولة أول دولة قامت بإفريقية وجرى عليها اسم الدولة. وكان من قَبْلهم عمالاً إذا مات أحد منهم أو صَدَر منه ما يوجب العزل، عزله من يكون أمر المسلمين إليه من الخلفاء في الدولة الأموية والعباسية. فلما قامت هذه الدولة كانت كالمستقلة بالأمر. وإنما كانت ملوكها تراعي أوامر الدولة العباسية، وتعرف لها حق الفضل والأمر، وتُظهر طاعة مَشوبة بمعصية. ولو أرادوا عزل واحد منهم والاستبدال به من غير البيت لخالفوهم. وصار ملوك هذه الدولة يوصون بالملك بعدهم لمن يرونه من أولادهم وإخوتهم، فلا يخالفه قوادهم ولا يراعون أهلية من يوصَى إليه بل يقدمونه على أي صفةٍ كان مستحقًا أو غير مستحق. وسنذكر من أخبارهم ما يدل على ذلك. وكان عدّة من ملك منهم أحد عشر ملكًا. ومدة أيامهم مائة سنة واثنتي عشرة وأيامًا. وأول من ملك منهم إبراهيم بن الأغلب.

ذكر ولاية إبراهيم بن الأغلب بن سالم ابن عقال بن خفاجة التميمي

قال: لما كان من أمر إبراهيم بن الأغلب ما ذكرناه، من نُصْرته لابن العكي وإخراجه تمام بن تميم وإعادة العكي، كتب يحيى بن زياد صاحب البريد بالخبر إلى هارون الرشيد. فقرأ الكتاب على أصحابه، وقال لهرثمة بن أعين: «أنت قريب العهد» فقال: «يا أمير المؤمنين، قد سألتني في مقدمي منها عن طاعة أهلها، وأخبرتك أنه ليس بها أحد أفضل طاعة ولا أبعد صيتًا ولا أرضى عند الناس من إبراهيم. ثم صدق قولي قيامُه بطاعتك» فأمر الرشيد بكتابة عهده على إفريقية. فلما وصل إليه العهد، أرسل إلى ابن العكي: «أقم ما شئت حتى تتجهز».

فأقام أيامًا ثم رحل إلى طرابلس. فوافاه حماد السعودي بكتابين قدم بهما إلى إفريقية على العادة. فافترى ابن العكي كتابًا ثالثًا بعزل إبراهيم وولايته وبعث به إلى القيروان. فلما قرىء على الناس قالوا لإبراهيم: «أقم بمكانك واكتب إلى أمير المؤمنين، فإن ابن العكي اختلق هذا زورًا، ولم يكافئك على نصرتك له وحقنك دمه» فقال: «والله لقد ظننت ظنكم وإنما اجترأ ابن العكي على الثغر لموضعه من

جعفر بن يحيى» ثم عسكر إبراهيم يريد الخروج إلى الزاب وأتى كتاب محمد بن مقاتل إلى سهل بن حاجب يستخلفه إلى أن يقدم. فكتب صاحب البريد إلى الرشيد. فغضب وكتب إلى ابن العكي: «أما بعد، فلم يكن آخر أمرك يشبه إلا أوله. فلأيِّ مناقبك أوثِرك على إبراهيم بولاية الثغر: ألفرارك وإقدامه أم لجزعك وصبره أم لِخلافك وطاعته؟ فإذا نظرت في كتابي، فاقْدَم غيرَ محمود الفعال». وكتب إلى إبراهيم بتجديد ولايته. فوصل الرسول إلى القيروان وإبراهيم بالزاب فمضى إليه. وكانت ولايته الثانية التي استقر بها ملكه وملك بنيه من بعده، لاثنتي عشرة ليلة مضت من جُمادى الآخرة سنة أربع وثمانين ومائة. وقفل ابن العكيّ إلى المشرق.

قال: ولما ولّي إبراهيم قمع أهل الشر بإفريقية، وضبط البلاد، وأحسن إلى من بها. وبعث بأهل الشر الذين جرت عادتهم بمخالفة الأمراء والوثوب عليهم إلى بغداد كما ذكرنا.

وابتنى إبراهيم قصرًا وجعله متنزهًا. ثم جعل ينقل إليه السلاح والأموال سرًا. وهو مع ذلك يراعي أمور أجناده ويُصلح طاعتهم ويصبر على جفائهم. وأخذ في شراء العبيد وأظهر أنه يحب أن يتخذ من كل صناعة من يُغنيه عن استعمال الرعية في كل شيء. ثم اشترى عبيدًا لحمل سلاحه وأظهر للجند أنه أراد بذلك إكرامهم عن حمله. ولما تهيأ له من ذلك ما أراده انتقل من دار الإمارة وصار إلى قصره بعبيده وحشمه وأهل بيته؛ وكان انتقاله ليلاً. وأسكن معه من يثق به من الجند. وكان يتولّى الصلاة بنفسه في المسجد الجامع بالقيروان والمسجد الذي بناه بالقصر.

وفي أيامه خرج حمديس بن عبد الرحمٰن الكندي فخلع السواد. وجمع جموعًا كثيرة وأتى بعرب أهل البلد وبربرها، وكثرت جموعه بمدينة تونس. فبعث إليه إبراهيم عمران بن مجالد ومعه وجوه القواد. فالتقوا بسبخة تونس واقتتلوا قتالاً شديدًا، وكثر بينهم القتل. وجعل أصحاب حمديس يقولون: «بغداد بغداد، فلا والله لا اتخذت لكم طاعة بعد اليوم أبدًا». ثم قُتل حمديس وانهزم أصحابه. ودخل عمران تونس وتتبع من كان مع حمديس وقتلهم حتى أفناهم. وكان خروجه في سنة ست وثمانين ومائة.

وفي أيامه جمع إدريس[1] بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب جموعًا كثيرة، وأطاعه من حوله من القبائل. فكره إبراهيم قتاله وعمل في

(١) كان إدريس فارسًا شجاعًا شاعرًا... (مقاتل الطالبيين ٤٩١).

إفساد أصحابه عليه. وكتب إلى بهلول بن عبد الواحد المدغري، وكان رئيسًا مطاعًا في قومه، وهو القائم بأمر إدريس وصاحب سره، ولم يزل به حتى فارقه وعاد إلى الطاعة. فلما فعل ذلك كتب إدريس إلى إبراهيم كتابًا يستعطفه ويسأله الكفّ عنه ويذكر قرابته من رسول الله ﷺ، فلم يجر بينهما حرب.

وخرج عن طاعة إبراهيم أيضًا عمران بن مجالد. وكان سبب خروجه أن إبراهيم لما بنى قصره المعروف القديم ركب يومًا وهو يفكر في الانتقال إليه ومعه عمران بن مجالد. فجعل عمران يحادثه من حيث ركبا إلى أن بلغا مصلّى روح، فلم يفقه إبراهيم من حديثه شيئًا. فقال لعمران: «ألم تعلم أني لم أسمع من حديثك شيئًا أعِدْه علي» فغضب عمران وقال: «أحدثك من حيث خرجت وأنت لاهٍ عني». وتغير من ذلك اليوم وألب على إبراهيم. فلما انتقل إبراهيم إلى قصره وأقام مدة، ثار عمران في جيشه. واستولى على القيروان وقوي أمره وكثرت أتباعه. ودامت الحرب بينه وبين إبراهيم سنة كاملة، كانت خيل إبراهيم تضرب إلى القيروان فتقتل من قدرت عليه، وخيل عمران تفعل مثل ذلك.

ثم وصل إلى إبراهيم رسول أمير المؤمنين بأرزاق الجند فوجه ابنه عبد الله إلى طرابلس، فقبض أرزاق الجند ووصل بها إلى أبيه. فلما صار المال إليه، تطلعت أنفس الجند إلى أرزاقهم وهمُّوا بإسلام عمران. وتبين ذلك له. فركب إبراهيم في خيله ورَجْله وعبيده، وعبأ عساكره تعبئة الحرب، وتوجه إلى القيروان. حتى إذا قرب منها أمر مناديه فنادى: «من كان له اسم في ديوان أمير المؤمنين فليقدم لقبض عطائه». ثم انصرف إلى قصره ولم يُحْدث شيئًا. فلما أمسى عمران أيقن أن الجند تسلمه. فركب وسار إلى الزاب ليلاً ومعه عمرو بن معاوية وعامر بن المعتمر. فخلع إبراهيم أبواب القيروان وثلم في سورها. وقوي عند ذلك أمره. وزاد في بناء القصر القديم. وأقطع فيه الدور لأهل بيته وأنصاره ومَواليه.

وبقي عمران بالزاب إلى أن توفي إبراهيم وصار الأمر إلى ابنه أبي العباس. فكتب إليه يسأله الأمان فأمنه. وقدم إليه وأسكنه القصر. ثم سُعي به فقتله.

واستمرت أيام إبراهيم إلى سنة ست وتسعين ومائة، فتوفي لثمان بقين من شوال منها، وهو ابن ست وخمسين سنة. وكانت مدة ولايته اثنتي عشرة سنة وأربعة أشهر وعشرة أيام.

وكان فقيهًا، عالمًا، خطيبًا، شاعرًا، ذا رأي وبأْس، وحزم، وعلم بالحروب ومكائدها، جريء الجَنان، طويل اللسان، حسن السيرة. قال ابن الرقيق: لم يَلِ

إفريقية قبله أحد من الأمراء أعدل منه سيرة ولا أحسن سياسة، ولا أرفق برعية، ولا أضبط للأمر. وكان كثير الطلب للعلم، والاختلاف إلى الليث بن سعد. وله أخبار حسنة وآثار جميلة، رحمه الله تعالى.

ذكر ولاية أبي العباس عبد الله ابن إبراهيم بن الأغلب

قال: لما مات إبراهيم بن الأغلب، صار الأمر بعده إلى ابنه أبي العباس عبد الله، وكان إذ ذاك بطرابلس، فقام له أخوه زيادة الله بالأمر، وأخذ له البيعة على نفسه وأهل بيته وجميع رجاله. وقدم عبد الله من طرابلس في صفر سنة سبع وتسعين ومائة. فتلقاه زيادة الله وسلّم إليه الأمر.

قال: فحمل عبد الله في ولايته على أخيه زيادة الله حملاً شديدًا وتَنَقصه، وأمر بإطلاق من كان في حبسه. وزيادة الله مع ذلك يُظهر له التعظيم والتبجيل.

وأراد عبد الله أن يحدث جورًا عظيمًا على الرعية فأهلكه الله عزّ وجل قبل ذلك. وكان قد أمر صاحب خراجه أن لا يأخذ من الناس العشر، ولكن يجعل على كل زوج تحرث ثمانية دنانير أصاب أم لم يصب. فاشتد ذلك على الرعية وسألوه فلم يجب سؤالهم. وقدم حفص بن حُميد الجَزَري[1]، ومعه قوم صالحون من أهل الجزيرة وغيرها. فاستأذنوا على أبي العباس فأذن لهم. فدخلوا عليه ـ وكان من أجمل الناس ـ فكلمه حفص بن حميد فكان فيما قال له: «أيها الأمير، اتق الله في شبابك، وارحم جمالك وأشفِق على بدنك من النار. ترى على كل زوج يُحرَث به ثمانية دنانير. فأزل ذلك عن رعيتك، وخذ فيهم بكتاب الله وسنّة نبيه ﷺ. فإن الدنيا زائلة عنك كما زالت عن غيرك» فلم يُجبه إلى شيء مما أراد. وتمادى على سوء فعله وأظهر الاستخفاف بهم. فخرج حفص بن حميد ومن معه فتوجهوا نحو القيروان. فلما صاروا بوادي القصارين قال لهم حفص: «قد يئسنا من المخلوقين فلا نيأس من الخالق». فسألوا الله وتضرعوا إليه، فدعوا الله على أبي العباس أن يمنعه مما أراده بالمسلمين ويكفّ جوره عنهم. ثم دخلوا مدينة القيروان، فخرجت لأبي العباس قرحة تحت أذنه فقتلته في اليوم السابع من دعائهم واسودّ لونه. وكانت وفاته ليلة الجمعة لست خلون من ذي الحجة سنة إحدى ومائتين. فكانت مدة ولايته خمس سنين وشهرًا واحدًا وأربعة عشر يومًا.

---

(١) نسبة إلى الجزيرة.

ذكر ولاية أبي محمد زيادة الله ابن إبراهيم بن الأغلب

قال: ولما توفي أخوه أبو العباس صار الأمر إليه بعده. وهو أول من سُمِّي زيادة الله. وكذلك هبة الله بن إبراهيم بن المهدي، هو أول من سمّي هبة الله.

قال: ولما ولي زيادة الله أغلظ على الجند، وأمعن في سفك دمائهم، واستخف بهم، وحَمَله على ذلك سوء ظنه بهم لتوثُّبهم على الأمراء قبله وخِلافهم على أبيه مع عمران بن مجالد. وكان أبوه أغضى عن كثير من زلاتهم وصفح عن إساآتهم فسلك زيادة الله فيهم غير سبيل أبيه. وكان أكثر سفكه وسوء فعله إذا شرب وسكر. فخرجوا عليه. وكان الذي هاجهم على الخروج عليه أنه ولّى عمر بن معاوية القيسي، وكان من شجعان الجند ورؤسائهم وأهل الشرف منهم، على القصرين وما يليهما. فتغلب على تلك الناحية وأظهر الخلاف عليه. وكان له ولدان يقال لأحدهما حُباب والآخر سُكنان. فوجه إليه زيادة الله موسى مولى إبراهيم المعروف بأبي هارون، وكان قد ولاه القيروان. فخرج إليه وحاصره أيامًا. فلما ضاق به الأمر ألقى بيده ونزل معه. وسار إلى زيادة الله هو وولداه. فلما قدموا عليه حبسهم عند غلبون ابن عمه. ثم نقلهم إلى حبسه من يومه وقتلهم.

فلما بلغ منصور بن نصر الطُّنبُذي وهو من ولد دُرَيد بن الصِّمَّة ذلك ساءه، وكان على طرابلس. فقال: «يا بني تميم، لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد» فكتب صاحب الخبر بكلامه إلى زيادة الله. فعزله واستقدمه، فقدم. وكان غلبون معتنيًا به فأصلح أمره عند الأمير زيادة الله، فخلى عنه. فأقام أيامًا يتردّد إلى زيادة الله حتى ذهب ما بقلبه عليه. ثم استأذنه في الوصول إلى منزله فأذن له. فخرج إلى تونس، وكان له بإقليم المحمدية قصر يقال له طُنبُذة، وبه لقّب الطنبذي، فنزل به. وجعل يُراسل الجند ويذكر لهم ما يلقَون من زيادة الله وما فعل بعمر بن معاوية وابنيه، ويخوفهم أن يفعل بهم وبأولادهم كفعله بعمر.

فبلغ ذلك زيادة الله فعَرَض الجند على عادته. ثم دعا محمد بن حمزة فأخرجه في خمسمائة فارس بالسلاح كما عُرِضوا بين يديه. وقال له: «امض إلى تونس فلا يشعر منصور إلا وقد أخذته ومن معه، واقْدَم به موثقًا». فخرج ابن حمزة حتى أتى تونس فلقي منصورًا غائبًا بقصره، فنزل في دار الصناعة. ووجه إلى منصور شجرة بن عيسى القاضي وأربعين شيخًا من أهل تونس، يُرَغبه في الطاعة ويدعوه إلى إتيانه.

فمضوا إليه وأبلغوه رسالة محمد بن حمزة فقال: «ما خلعتُ يدًا من طاعة، ولا أحدثتُ حَدَثًا، وأنا صائر إليه معكم. ولكن أقيموا عليّ يومي هذا حتى أُعدَّ لهؤلاء القوم ما يُصلحهم». فأقاموا. فوجه إلى ابن حمزة ببقر وغنم وعلف وأحمال نبيذ. وكتب إليه: «إني قادم بالغداة مع القاضي» فركن إلى قوله، وأخذ هو ومن معه في الأكل والشرب.

فلما أمسى منصور قبض على القاضي ومن معه، وحبسهم في قصره. وجمع خيله ورجْله ومضى إلى تونس. فما شعر به محمد بن حمزة حتى ضرب طبوله على باب دار الصناعة. فقام ابن حمزة وأصحابه لأخذ سلاحهم وقد عمل الشراب فيهم. فأوقع بهم منصور وأصحابه فقتلهم. ولم يسلم منهم إلا من ألقى نفسه في البحر فسبح. وأصبح منصور، فاجتمع إليه الجند. وكان عامل زيادة الله على تونس إسماعيل بن سفيان بن سالم من أهل بيت زيادة الله، فقتله منصور وقتل ابنه.

فلما اتصل بزيادة الله قتل ابن عمه وولده ورجاله، جمع صناديد الجند، ووجَّههم مع غلبون. وركب بنفسه مشيِّعًا له. فلما ودع الجند قال لهم زيادة الله: «انظروا كيف تكونون وكيف تناصحون. فبالله أقسم إن انصرف إليّ أحد منكم منهزمًا لا جعلتُ عقوبته إلا السيف». فكان ذلك مما ساءت به نفوس القوم حتى همُّوا بالوثوب على غلبون. فمنعهم من ذلك جعفر بن مَعْبد وقال: «لا تحملكم إساءة زيادة الله فيكم أن تغدروا بمن أحسن إليكم وفكّ رقابكم». وكان غلبون يعتني بأمر القواد عند زيادة الله. فانصرفوا عن رأيهم فيه ومضوا حتى صاروا بسبخة تونس. فكاتب القواد الذين مع غلبون منصورًا وأصحابه وأعلموهم أنهم منهزمون عنه. فلما التقوا حمل منصور وأصحابه عليهم فانهزموا بأجمعهم. ثم اجتمعوا بعد الهزيمة إلى غلبون واعتذروا وحلفوا أنهم ناصحون واجتهدوا. وقالوا: «نحن لا نأمن على أنفسنا. وإن أصبت لنا ما نأمن به قدِمنا إن شاء الله». وتفرقوا عنه. وسار كل منهم إلى جهة فتغلب عليها. واضطربت إفريقية فصارت نارًا تتَّقد.

وصار الجند كلهم إلى منصور الطنبذي، وأعطوه أزمة أمورهم، وولّوه على أنفسهم. وقدم غلبون على زيادة الله فأعلمه الخبر. فكتب الأمانات وبعث بها إلى الجند والقواد. فلم يقبلوها وخلعوا الطاعة.

ثم جمعوا جمعًا ووجه عليهم منصور عامر بن نافع. فعقد زيادة الله لمحمد بن عبد الله بن الأغلب، ووجه معه جيشًا كثيفًا وأوعب فيه من رجاله ومواليه. فالتقوا واقتتلوا، فانهزم محمد بن عبد الله وقُتل جماعة من وجوه أصحابه، منهم محمد بن

غلبون، وعبد الله بن الأغلب، ومحمد بن حمزة الرازي، وغيرهم، وقُتلت الرجَّالة عن آخرهم. وتتبع الجند أصحاب زيادة الله فقتلوهم.

فعند ذلك زحف زيادة الله بنفسه ونزل بين القيروان والقصر وخَنْدَق هناك. وكانت بينهم وقعات كثيرة تارة لهؤلاء وتارة لأولئك. ثم انهزم منصور ومن معه حتى لحقوا بتونس. وكان أهل القيروان أعانوا منصورًا على قتال زيادة الله، فقال له أصحابه «ابدأ بها واقتل من فيها» فقال: «إني عاهدت الله تعالى إن ظفرت أن أعفو وأصفح» فعفا عنهم إلا أنه هدم سور القيروان ونزع أبوابها.

قال: ثم اجتمع لمنصور أصحابه وقوي أمره. ولم يبق في يد زيادة الله من إفريقية كلها إلا الساحل وقابس. فكتب الجند إلى زيادة الله: «أن ارحَلْ حيث شئت وخَلِّ عن إفريقية، ولك الأمان في نفسك ومالك وما ضمه قصرك». فاستشار أصحابه في ذلك. فقال له سفيان بن سوادة: «أيها الأمير، أمكِنِّي من ديوان رجالك حتى أنتقي مائتي فارس ممن أثق به». فدفع إليه الديوان فاختار منه مائتي فارس، وأعطاهم وأفْضَل عليهم ثم خرج حتى أتى نفزاوة[1] وعليها من الجند عبد الصمد بن جُناح الباهلي. فدعا سفيان بربر ذلك الموضع فأجابوه. فاجتمع إليه خلق كثير من زناتة وغيرهم وسائر القبائل. ففتح البلاد بلدًا بلدًا حتى بلغ قسطيلية[2]. ثم قدم على زيادة الله في سنة ثماني عشرة ومائتين. فكان سعيد يقول: «والله، ما رأيت أعظم بركة من تلك المائتي فارس».

ووقع الشتات والحسد بين الجند. ووقع الخلاف بين منصور وعامر بن نافع. فحاصره عامر بقصره بطنبذة. فجرت بينهما السفراء على أن يؤمن منصورًا على نفسه وماله وحشمه، ويركب سفينة فيتوجه فيها إلى المشرق، فأجابه عامر إلى ذلك. فقال له بعض أصحابه: «تفعل ذلك بنفسك ويسومك الضيم؟ انهض إلى الأربس فإنهم سامعون مطيعون» فوافق على ذلك وخرج من القصر ليلًا وسار إلى الأربس. فلما أصبح عامر لم يره بقصره، فسار في إثره إلى الأربس وحاصره. وآخر الأمر أنه عاد سأل الأمان على أن يتوجه إلى المشرق ويركب في سفينة من تونس. وخرج إلى عامر

(١) نفزاوة: بالكسر ثم السكون، وزاي، وبعد الألف واو مفتوحة: مدينة من أعمال إفريقية.. وبها عين تسمى بالبربرية تاورغي، وهي عين كبيرة لا يدرك قعرها.. ولها سور صخر وطوب ولها ستة أبواب... (معجم البلدان).

(٢) قسطيلية: بالفتح ثم السكون، وكسر الطاء، وياء ساكنة، ولام مكسورة، وياء خفيفة، وهاء: مدينة بالأندلس وهي حاضرة نحو كورة إلبيرة كثيرة الأشجار متدفقة الأنهار تشبه دمشق... (معجم ياقوت).

فوجه معه خيلاً. وأمر صاحب الخيل أن يأخذ به على طريق قَرْنة وأن يُصيِّره في سجنها. ففعل ذلك وحبسه بها عند حمديس بن عامر. ثم كتب عامر إلى ابنه أن يضرب عنقه ففعل. وضرب عامر عنق أخي منصور.

وصار أمر الجند إلى عامر بن نافع فظن أن الأمور تستقيم له. فكتب إليه زيادة الله كتابًا يدعوه فيه إلى الطاعة ويبذل له الأمان. فكتب إليه عامر يعدد عليه مساوىء أفعاله، ويقول في آخره: «ما بيني وبينك موادّة حتى تضع الحرب أوزارها ويحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين». ثم اختلف الجند على عامر، وانتقض عليه أمره، ووَجد[1] عليه قواد المضرية، لما صنع بمنصور وأخيه، فنافروه وحاربوه. وخالفه عبد السلام بن المفَرِّج، وكان قد استولى على باجة وبايع له جماعة من الجند. وزحف إلى عامر فاقتتلوا، فانهزم عامر، ومضى إلى قرنة، وتفرق شمل الجند وأمر زيادة الله يعلو.

ثم اعتلّ عامر فلما أيقن بالموت استدعى بنيه وقال لهم: «يا بني، ما رأيت في الخلاف خيرًا. فإذا أنا مت ودفنتموني فلا تُعرِّجوا على شيء حتى تلحقوا بزيادة الله، فهو من أهل بيت عفو. وأرجو أن يسركم ويقبلكم أحسن قبول». فلما مات، فعلوا ذلك وأتوا زيادة الله. وجعل الجند يستللون إلى زيادة الله ويستأْمنون، وهو يؤمنهم ويُحسن إليهم.

وأما عبد السلام فقاتلته عساكر زيادة الله وحصروه وضايقوه فوُجد ميتًا فقيل مات عطشًا. فبعثوا برأسه إلى زيادة الله.

واستقامت إفريقية وصفت بعد أن دامت الفتنة ثلاث عشرة سنة.

قال: ثم أمر زيادة الله ببناء المسجد الجامع بالقيروان وهدم ما كان بناه يزيد بن حاتم، وذلك في جُمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين ومائتين. وذكر أن زيادة الله قال يومًا لخاصته «إني لأرجو رحمة الله، وما أراني إلا أفوز بها إذا قدمت عليه يوم القيامة وقد علمت أربعة أشياء: بنيت المسجد الجامع بالقيروان وأنفقت عليه ستة وثمانين ألف دينار، وبنيت قنطرة باب أبي الربيع، وقصر المرابطين بسوسة[2]، ووليت القضاء أحمد بن أبي محرز».

---

(١) وجد عليه: غضب وحزن.

(٢) سوسة: بضم أوله: بلد بالمغرب، وهي مدينة عظيمة بها قوم لونهم لون الحنطة يضرب إلى الصفرة، ومن السوسة يخرج إلى السوس الأقصى على ساحل البحر المحيط بالدنيا... (معجم البلدان).

وفي أيام زيادة الله فُتحت صقلية، وذلك أنه وجه إليها أسد بن الفرات القاضي في عشرة آلاف. فزحف إليه ملكها في مائة وخمسين ألفًا. فهزمه وفتحها. واستعمل عليها زيادة الله محمد بن عبد الله بن الأغلب.

وكانت وفاة زيادة الله في يوم الثلاثاء لأربع عشرة خلت من شهر رجب سنة ثلاثة وعشرين ومائتين، وهو ابن إحدى وخمسين سنة. وكانت ولايته على إفريقية إحدى وعشرين سنة وسبعة أشهر وثمانية أيام.

وكان من أفصح أهل بيته لسانًا وأكثرهم بيانًا، وكان يُعرب كلامه ولا يلحن من غير تشَادُق ولا تَقْعير. وكان يقول الشعر الحسن الجيد.

حكي أن رسولاً أتاه من أبي عبد الله المأمون بغير ما يحب. فكتب جواب الكتاب وهو سكران، وفي آخره أبياتًا، وهي: [من الطويل]

أنا النارُ في أحجارِها مستكِنَّةٌ ... فإن كنتَ ممن يَقْدَح الزَّنْدَ فاقْدَحِ[١]

أنا الليث يحمي غِيلَه بزئيره ... فإن كنتَ كلبًا حان يومُك فانْبَحِ[٢]

أنا البحر في أمواجه وعُبابِه ... فإن كنت ممن يَسْبح البحر فاسْبَح

فلما صحا بعث في طلب الرسول ففاته. فكتب كتابًا آخر فيه تلطف. فوصل الكتاب الأول والثاني. فأعرض المأمون عن الأول وأجاب عن الثاني بكل ما أحب.

وله حكايات حسنة تدل على عفوه وصَفْحه وحِلْمه. فمن ذلك أنه بلغ أُمَّه جلاجل أن أخت عامر بن نافع قالت: «والله لأجعلنَّ جلاجل تطبخ لي الفول بِيصارا». فلما ظفر ابنها زيادة الله بالقيروان، أمرت جلاجل بفول فطُبِخ بِيصارا وبعثت منه إليها مع بعض خدمها، فوُضع بين يديها، وقالت الجارية التي أحضرته إليها: «سيدتي تسلم عليك وتقول لك: قد طبختُ هذا لك لأبرّ قَسَمك» فأوْحَشها ذلك وقالت: «قولي لها: قد قدرتِ فافعلي ما شئت» فبلغ ذلك زيادة الله فقال لأمه: «قد ساءني ما فعلت يا أم، إن الاستطالة مع القدرة لؤم ودناة، وقد كان أولى بك أن تفعلي غير هذا» قالت: «نعم، سأفعل ما يُرضيك ويُحسن الأُحدوثة عنا» وبعثت إليها بكسوة وصلة وألطاف. ورَفَقت بها حتى قبلت ذلك وطابت نفسها.

---

(١) الزند: العود الأعلى الذي تقدح به النار، والأسفل هو الزندة.

(٢) الغيل: الشجر الكثير الملتفّ، مكان الأسد.

ذكر ولاية أبي عقال الأغلب
ابن إبراهيم بن الأغلب

قال: ولما توفي زيادة الله ولّي أخوه أبو عقال، وهو الملقب بخَزَر. وكان في مبدإ ولاية أخيه زيادة الله قد خافه على نفسه لأن الأغلب كان شقيق عبد الله. فخشي أن يطالبه زيادة الله بفعل أخيه فاستأذنه على الحج، فأذن له. فخرج وأخرج معه ابني أخيه عبد الله، وهما محمد وإبراهيم. فحجّ وأقام بمصر. ثم كتب إلى زيادة الله يستعطفه ويستميله. فقدم إليه، فأكرمه وأحسن إليه. وجعل أمور دولته بيده.

فلما مات زيادة الله وصار الأمر إليه، لم يكن في أيامه حروب فأمن الجند وأحسن إليهم. وغيّر أحداثًا كثيرة كانت للعمال، وأجرى على العمال الأرزاق الواسعة والعطايا الجزيلة. وقبض أيديهم عن أموال الناس، وكَفَّهم عن أشياء كانوا يتطاولون إليها. وقطع النبيذ من القيروان.

وتوفي في يوم الخميس لسبع بقين من شهر ربيع الآخر سنة ست وعشرين ومائتين. فكانت ولايته سنتين وتسعة أشهر وتسعة أيام. وكان شبيهًا بجده الأغلب في الخَلْق والخُلُق.

ذكر ولاية أبي العباس محمد بن الأغلب
ابن إبراهيم بن الأغلب

قال: ولّي بعد أبيه، وكان من أجهل الناس، لكنه أُعطِي في إمارته ظفرًا على من ناوأه. وقلّد أخاه كثيرًا من أعماله. وكان قد غلب عليه وتولّى أموره ووزارته ابنا علي بن حُمَيد، وهما أبو عبد الله وأبو حميد. فساء ذلك أبا جعفر أخاه، وعَظُم عليه وعلى أصحابه، وحسدوهما على مكانهما من الأمير محمد وكان المقدم عند أبي جعفر أحمد بن الأغلب نصر بن حمزة الجَرَوي. فأخذ أبو جعفر في التدبير على أخيه الأمير محمد. وصانع رجالاً من مواليه، ومحمد في غفلة عن ذلك قد اشتغل باللهو واللعب وانهمك على الملاذّ. فلما اجتمع لأحمد من أصحابه ما علم أنه يقوم بهم ركب في وقت الظهيرة ـ وقد خلا باب محمد من الرجال ـ فهجم على أبي عبد الله بن علي بن حميد فقتله، وعلا الصياح. فبلغ الخبر محمدًا فقصد قبّة عمه زيادة الله. ووقع القتال بين رجال الأمير محمد ورجاله أخيه أحمد. فجعل أصحاب أحمد يقولون لأصحاب محمد: «ما لكم تقاتلون؟ لا طاعة إلا طاعة محمد. إنما قمنا على

أولاد علي بن حُميد الذين قهروكم واستأثروا بمال مولاكم دونكم. وأما نحن ففي الطاعة ما خلعنا منها يدًا» فلما سمعوا ذلك فشلوا عن القتال.

ولما رأى محمد ما دهمه ـ وهو على غير استعداد ـ جلس في مجلس العامة. وأذن لأخيه أحمد والذين معه من الرجال بالدخول، فدخلوا عليه. فعاتب أخاه أحمد فقال له: «إن أولاد علي بن حميد كادوا الدولة وأرادوا زوال ملكك، فقمت غضبًا لك وحذرًا على أيامك» فلم يجد محمد بُدًا من مداراته والإغضاء عما فعل. فتحالفا أن لا يغدر أحد منهما بصاحبه. واصطلحا على أن يدفع محمد لأخيه أحمد أبا حميد بن علي، وكان قد لجأ إليه في وقت قتل أخيه. فدفعه إليه على أن أحمد لا يقتله ولا يصله بمكروه. فانصرف إلى منزله.

وعظم قدر أحمد، واشتد سلطانه، وجعل الدواوين إلى نفسه. وصار الأمر كله له، ولم يبق لمحمد من الإمارة إلا مجرد الاسم وعزل أحمد حجاب محمد، وجعل على بابه حجابًا من قبله. ووكل خمسمائة من عبيده ومواليه ببابه. وعذب أبا حميد، وأخذ أمواله. ووجه به مع أبي نصر مولى إبراهيم بن الأغلب، وأمره أن يسير به إلى طرابلس ويبعثه إلى مصر. وأسرَّ إليه أنه إذا صار بقَلْشانة[1] يقتله. ففعل ذلك وخنقه حتى مات. وحمله على نعش إلى قلشانة. وأحضر من شهد أنه لا أثر فيه ولا جرح وقال: «إنه سقط عن الدابة فمات».

قال: ولما صارت الأمور إلى أحمد قدم نصر بن أحمد الجروي واستوزره. وكان داود بن حمزة الرادري يظن أنه يكون المقدم عليه لأنه كان المدبر لهذا الأمر. ففسدت نيته وأخذ في العمل على أحمد ومكاتبة محمد، وكان محمد قد ترك اللهو وأخذ في الحيلة والتدبير على أخيه أحمد. وكان محمد قد ولّى سالم بن غلبون الزاب. فلما كان من أمر أحمد ما كان، خالف سالم على أحمد، ولم يُطعه. وجعل محمد يبعث إلى وجوه قَرابته وجنده وعبيده ويسألهم نُصْرَته ويعدهم ويمنّيهم. فكان ممن سعى في نصرة محمد وأتقن له الأمور وأحسن التدبير أحمد بن سفيان بن سَوادة. وكان يقال لأحمد: «إن أخاك يعمل عليك» فلا يُصدق، وعنده أنه قد أتقن التدبير. وكان من حال محمد أنه إذا جاءه رسول من أخيه أحمد يستدعي كأسًا كبيرًا ويمسكه بيده، ويحضر الرسول فيتوهم أنه يشرب. فإذا انصرف رد الكأس فلا يشربه.

(١) قلشانة: بالفتح ثم السكون، وشين معجمة، وبعد الألف نون: مدينة بإفريقية أو ما يقاربها.

فلما كان في اليوم الذي عزم محمد فيه على الوثوب على أخيه، بعث إلى أحمد بنِ سفيان. فجعل يُسلِك من واعَده من العبيد والموالي وغيرهم حتى أدخلهم من أبوابِ المدينة في الأكسية. وجعلهم يحملون على رؤوسهم جرار الماء حتى اجتمع منهم قبل الزَّوال ثلاثمائة رجل. فصيَّرهم أحمد بن سفيان في داره وأعطاهم السلاح وكان أحمد إذا قيل له: «إنك تُراد ويُعمَل عليك». غضب على من يقول ذلك. واشتغل بالشراب كما كان أخوه في أول أمره. وكان جماعة ممن نصر محمدًا واعَدُوه أن ينزلوا بقصر الماء، والأمارة بينهم أن يسمعوا الطبل ويروا الشمع في أعلى القبّة. وكان أحمد قد دخل الحمام في ذلك اليوم وأطال اللُّبْث فيه. وأتاه عثمان بن الربيع بعد الظهر؛ فأخبره أن أخاه يريده تلك الليلة، وأنه أعدّ رجالاً بقصر الماء. فلم يصدق ذلك، ووجه خيلاً إلى قصر الماء فلم يجدوا به أحدًا. وكان الموعد المغرب، فازداد أحمد تكذيبًا للأخبار وقلّة الاكتراث بما يراد به.

فلما قربت صلاة المغرب، وجه محمد خادمًا له إلى جماعة رجال أخيه الذين كان قد جعلهم ببابه، فقال: «يقول لكم الأمير: إني أحببت بِرَّكم وإكرامكم، فاجتمعوا حتى أبعث إليكم طعامًا وشرابًا. فاجتمعوا، وبعث إليهم بطعام وشراب، فأكلوا وشربوا حتى إذا ظنّ أن الشراب قد عمل فيهم، أرسل الخادم إليهم وقال: يقول لكم الأمير: إني قد أحببت أنْ أُحَلِّي لكم سيوفكم، فمن كان عنده سيف فليَأْت به» فجعلوا يتسابقون بسيوفهم طمعًا في ذلك. فلما كان وقت المغرب وغُلِّقت أبواب القصر، أتاهم عامر بن عَمْرون القرشي فيمن معه. فوضعوا فيهم السيوف فقتلوهم عن آخرهم.

ثم أمر بالطبل فضُرب، والشموع فأُوقدت، فأقبل أصحابه من كل ناحية إلى نُصْرته. وخرج أحمد بن سفيان بن سوادة فجعل يقتل من علم أنه من ناحية أحمد. وأقام القتال بين أحمد بن سفيان وأصحاب أحمد بن الأغلب بقية ليلتهم كلها. وبعث أحمد بن سفيان إلى القيروان يستنصر بأهلها. فأقبلوا إليه في جموع عظيمة وهم ينادون بطاعة محمد. فانهزم أصحاب أحمد بن الأغلب ووُضِعت السيوف فيهم، وهرب أحمد إلى داره.

وكان في حبسه خَفاجة بن سفيان بن سوادة، فأخرجه وقال له: «اللّهَ اللّهَ في دمي وحُرَمي، فإنها حرمك» فقال له خفاجة: «حبستَني ظلمًا منذ سبعة أشهر» فقال: «ليس هذا وقت العتاب فأغثني» فقال له خفاجة: «أعطني فرسًا وسلاحًا» ففعل فركب خفاجة. وصاح به الناس: «يا خفاجة، يا ابن شيخنا ومن نكرمه ونحفظه، إنما

أخرجك هذا الملعون من حبسه الساعة بعد سبعة أشهر، فما هذه النصيحة له؟» فانصرف إلى أحمد فقال له: «أما إنه لا طاقة لك بالقوم، فاستأمِنْ إلى أخيك من قبل أن تهلك» قال: «وكيف لي بذلك؟ فكُنْ أنت رسولي إليه» فسار إليه واستأمن له. فأمنه محمد وأتاه.

فأمر محمد بالخلع على أهل القيروان ومن نصره. فخُلع عليهم جميع ما كان في خزائنه، ورجع إلى ثياب حرمه. وأمر أهل القيروان بالانصراف. ولما صار أحمد إلى أخيه محمد عدَّد عليه ما فعل ثم أخرجه إلى مصر، وسار إلى العراق.

قال: وبنى محمد بن الأغلب القصر الذي بسوسة في سنة ثلاثين.

وفي أيامه توفي سَحْنون بن سعيد[١] في سنة أربعين ومائتين، ودفن بباب نافع. وكان يتولى المظالم بمدينة القيروان.

قال: واعتل محمد بن الأغلب فأقام بعلته أربعة أشهر. ثم توفي في يوم الاثنين لليلتين خلتا من المحرم سنة اثنتين وأربعين ومائتين، وله ست وثلاثون سنة وولايته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأيام.

ذكر ولاية أبي إبراهيم أحمد بن محمد ابن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب

قال: ولما مات محمد، ولّي بعده ابنه أحمد. وكانت أيامه كلها ساكنة، لم يحدث فيها إلا ما كان بناحية طرابلس. وذلك أن قبائل البربر تجمعت، فكان بينهم وبين عاملها عبد الله بن محمد بن الأغلب حروب كثيرة. فكتب إلى أبي إبراهيم بذلك فأرسل إليهم العساكر، فكانت بينهم وبين البربر حروب شديدة. ثم انهزم البربر وقُتلوا قتلاً ذريعًا. ولأبي إبراهيم آثار عظيمة في المباني بإفريقية. فمن ذلك بنيان المأجَل الكبير بباب تونس. وهو بمعنى الصهريج عندنا. وزاد في جامع القيروان البهو والمجنَّبات والقبة. وبنى المأجَل الذي بباب أبي الربيع والمأجل الكبير الذي بالقصر القديم، وبنى المسجد الجامع بمدينة تونس. وبنى سور مدينة سوسة. وكان آخر ما عمل المأجل الذي بالقصر القديم. فلما فرغ اعتلّ أبو إبراهيم فكان يسأل: هل دخله الماء، إلى أن دخله، فعرفوه فسُرّ به وأمرهم أن يأتوه بكأس مملوءة منه، فشربها

---

(١) هو مفتي القيروان وقاضيه أبو سعيد عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي الحمصي الأصل المغربي المالكي صاحب المدونة أخذ عن أبي القاسم وابن وهب وأشهب وله عدة أصحاب وعاش ثمانين سنة... (شذرات الذهب ٢: ٩٤).

وقال: «الحمد لله، الذي لم أمت حتى كمل أمره» ثم مات إثر ذلك. ولم يَزَل أهل القيروان ومن دخلها يترحمون عليه.

وفي أيامه فُتحت قَصْريانَة[١]، وهي من أعظم مدن الروم بصقلية.

وكانت وفاة أبي إبراهيم يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة تسع وأربعين ومائتين وله تسع وعشرون سنة. ومدة ولايته سبع سنين وعشرة أشهر وخمسة عشر يومًا.

وكان رحمه الله تعالى حسن السّيرة، جميل الأثر، كريم الأخلاق والأفعال، من أجود الملوك وأسمحهم وأرفقهم برعيته، مع دين وإنصاف للمظلوم، هذا مع حداثة سنه. وكان يركب ليالي شعبان وشهر رمضان، وبين يديه الشمع. فيخرج من القصر القديم حتى يدخل من باب أبي الربيع، ومعه دواب محملة دراهم. فيأمر بإعطاء من لقيه حتى ينتهي إلى المسجد الجامع بالقيروان. ويقصد دور العلماء والصالحين فيأمر بقرع أبوابهم. فإذا خرجوا إليه أمر بإعطائهم من ذلك المال.

ذكر ولاية أبي محمد زيادة الله بن محمد ابن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب

ولي بعد أخيه. ولم تطل أيامه حتى توفي. وكانت وفاته ليلة السبت لعشر بقين من ذي القعدة سنة خمسين ومائتين فكانت ولايته سنة واحدة وسبعة أيام. وكان عالمًا، عاقلاً جميلاً، حسن السيرة، جميل الأفعال، ذا رأي ونجدة وجُود وشجاعة، رحمه الله تعالى.

ذكر ولاية أبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد ابن الأغلب المكنّى بأبي الغرانيق

ولّي بعد عمه زيادة الله.

وكان مشغوفًا بالصيد، فلقب أبا الغرانيق، وذلك أنه بنى قصرًا في السهلين لصيد الغرانيق[٢]، أنفق فيه ثلاثين ألف دينار.

---

(١) قصريانة: بالياء المثناة من تحت، وألف ساكنة ثم نون مكسورة وبعدها هاء ساكنة: هو اسم لمدينة كبيرة بجزيرة صقلية على سنّ جبل يشتمل سورها على زروع وبساتين وعيون ومياه... (معجم ياقوت).

(٢) الغرانيق: جمع غرنوق، وهو طائر مائي طويل القوائم والعنق، أو هو الكركي.

ولُقِّب في آخر أيامه بالميت، وذلك أنه اعتلّ وطالت علته، فكان يُشنَّع عليه بالموت في كثير من الأيام.

وكان في أيامه حروب منها اضطراب ثغر الزاب عليه. فأخرج إليه أبا خفاجة محمد بن إسماعيل في عسكرٍ عظيم. ففتح فتوحات عظيمة في طريقه. وخافه جميع البربر ولم يقُم أحد له إلى أن وصل تَهُودة وبَسْكِرَة[١]. وأعطاه أهل تلك النواحي أزمة أمورهم.

ثم نهض إلى طُبنة، وأتى حي بن مالك البلوي في خيل بَلِزْمَة، فصار في عسكره.

ثم نهض إلى مدينة أُبَّة[٢] بجميع عساكره فنزلها. فخافه البربر وسمعوا له وأطاعوا وبذلوا له الرهائن والخراج والعشور والصدقات فلم يقبل منهم.

ومضى يريد بني كملان من هوارة، وكبيرهم في ذلك الوقت مهلب بن صولات فتحرزوا منه، وأرسلوا إليه يطلبون الأمان، ويبذلون له كل ما طلب، فلم يقبل وقاتلهم. فلما نشبت الحرب بينهم، جرّ الهزيمة عليه حي بن مالك من أهل بلزمة. فقُتل أبو خفاجة في جماعة من القواد وكثير من الناس. ووصلت الهزيمة إلى طبنة.

وفي أيامه فتحت مالطة، وهي جزيرة في البحر على يد أحمد بن عمر بن عبد الله بن الأغلب.

وتوفي أبو عبد الله محمد في يوم الأربعاء لست خلون من جُمادى الأولى سنة إحدى وستين ومائتين، وهو ابن أربع وعشرين سنة. وكانت مدة ولايته عشر سنين وخمسة أشهر وستة عشر يومًا.

وكان غاية في الجود، مسرفًا في العطاء، حسن السّيرة في الرعية رفيقًا بهم، غير أن اللهو والطرب والاشتغال بالصيد واللذات والشراب غلب عليه، حتى إنه مرة سكر وهو بمدينة سوسة وقد ركب في البحر حتى صار إلى جزيرة قَوْصَرَة[٣]. فلما

---

(١) بسكرة: بكسر الكاف، وراء: بلد بالمغرب من نواحي الزاب، بينها وبين قلعة بني حماد مرحلتان... وهي مدينة مسورة ذات أسواق وحمامات.. وبها جبل ملح يقطع منه كالصخر الجليل... (معجم ياقوت).

(٢) أُبّة: بضم أوله وتشديد ثانيه والهاء: اسم مدينة بإفريقية، بينها وبين القيروان ثلاثة أيام، وهي من ناحية الأربس، موصوفة بكثرة الفواكه وإنبات الزعفران... (معجم البلدان).

(٣) قوصرة: بالفتح ثم السكون، والصاد مهملة: هي جزيرة في بحر الروم بين المهدية وجزيرة صقلية... (معجم ياقوت).

ذهب عنه السكر انصرف وهو خائف. وما زال على الانهماك طول عمره. ولم تكن له همّة في جمع المال، فلما مات لم يجد إخوته في بيت المال شيئًا.

ذكر ولاية أبي إسحاق
إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب

قال ابن الرقيق: كان أبو الغرانيق قد عقد لابنه أبي العقال ولاية العهد، وبايع له، واستحلف إبراهيم بن أحمد أخاه خمسين يمينًا بجامع مدينة القيروان أن لا ينازعه في ملكه، وذلك بحضرة مَشْيخة بني الأغلب وقضاة القيروان وفقهائها. فلما مات أبو الغرانيق، أتى أهل القيروان إلى إبراهيم وهو إذ ذاك والٍ عليهم فقالوا له: «قُم فادخل القصر فإنك الأمير» وكان إبراهيم قد أحسن السيرة فيهم. فقال: «قد علمتم أن أخي عقد البيعة لابنه، واستحلفني خمسينَ يمينًا أن لا أنازع ولده ولا أدخل قصره» فقالوا: «نحن الدافعون له عن الأمر، والكارهون ولايته، والمانعون له. وليست له في أعناقنا بيعة». فركب من القيروان ومعه أكثر أهلها. فحاربوا أهل القصر حتى دخله إبراهيم. وبايعه شيوخ القيروان ووجوهها وجماعة من بني الأغلب.

فلما ولّي أمر بإنفاذ الكتب إلى العمال والجُباة بحسن السيرة والرفق بالرعية. وولّى حجابته محمد بن قَرْهَب.

وفي صفر سنة ثلاث وستين ومائتين ابتدأ إبراهيم في بناء رَقَّادة[1] وانتقل إليها في السنة. قال: ودَوْرُها أربعة عشر ألف ذراع. وليس بإفريقية أرق هواء ولا أعدل نسيمًا ولا أطيب تربةً من موضعها. قال ابن الرقيق: وقد سمعت من منتقري المعاني من يزعم أنه يعرض له فيها الضحك من غير عجب، والسرور من غير سبب.

وفي أيامه فتحت سَرَقُوسة من صقلية في شهر رمضان سنة أربع وستين ومائتين، على يد أحمد بن الأغلب، وقتل فيها أكثر من أربعة آلاف علج. وأصاب من الغنائم ما لم يوجد في مدينة من مدائن الشّرك. ولم ينجُ من رجالها أحد. وكان مقام المسلمين عليها إلى أن فتحت تسعة أشهر. وأقاموا بعد فتحها شهرين ثم هدموها وانصرفوا.

---

(١) رقادة: بلدة كانت بإفريقية بينها وبين القيروان أربعة أيام، ولم يكن بإفريقية أطيب هواء ولا أعدل نسيمًا وأرقّ تربة منها. . . (معجم البلدان).

وفي سنة أربع وستين، وثب الموالي على إبراهيم وعقدوا الخلاف في القصر القديم، ومنعوا من يجوز إلى رقادة من القيروان. وسبب ذلك أن إبراهيم أمر بقتل رجل منهم يقال له مطروح بن بادر فخالفوا عليه لذلك. فأقبل إليهم أهل القيروان في عدد لا يحصى. فارتدع الموالي وسألوا الأمان فأُمّنوا. فلما جاؤوا وقت إعطاء الأرزاق، جلس إبراهيم بقصر أبي الفتح، وحضر جميع العبيد لقبض أرزاقهم. فكلما تقدم رجل نُزع سيفه حتى أُخذوا كلهم فقُتل أكثرهم بضرب السياط وصُلبوا. وحُبس بعضهم بسجن القيروان حتى ماتوا فيه. ونُفي بعضهم إلى صقلية. وأمر بشراء العبيد فاشتُري منهم عدد كثير. وحملهم وكساهم وأخرجهم في الحروب، فظهر منهم شجاعة وجلد وقوة.

وفي سنة خمس وستين ومائتين، تجهز العباس بن أحمد بن طولون من مصر عند خروجه على أبيه يريد برقة. واجتمع إليه الناس على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار الدولة الطولونية. فأخرج إليه إبراهيم حاجبه محمد بن قَرْهَب فلقيه بوادي ورداسة. فاقتتلوا فانهزم ابن قرهب. وقدم ابن طولون إلى لَبْدة[1] فأخذها. ثم نهض منها يريد طرابلس فحصرها أيامًا. فعزم إبراهيم على الخروج بنفسه، فلما صار إلى قابس لقيه ابن قرهب بالفتح وهزيمة العباس. وأخذ من أمواله كثيرًا.

وفي أيامه في سنة ثمان وستين ومائتين اشتد القحط وغلت الأسعار حتى بلغ قفيز[2] القمح ثمانية دنانير. والقفيز مقدار إردب[3] وربع بالمصري. فهلك الناس حتى أكل بعضهم بعضًا.

وفي أيامه عصت وَزْداجَة ومنعوا صدقاتهم. فقاتلهم العامل عليهم وهو الحسن بن سفيان فهزموه حتى وصل إلى باجة. فأرسل إبراهيم حاجبه محمد بن قرهب بالجيوش إليهم. فسار ونزل بجبل من جبال وزداجة يقال له المنار. فكانت خيله تخرج إليهم صباحًا ومساءً. فلم يزل حتى أخذ رهائنهم وأطاعوا واستقاموا.

---

(١) لبدة: مدينة بين برقة وإفريقية، وقيل بين طرابلس وجبل نفوسة، وهو حصن من بنيان الأُول بالحجر والآجر وحوله آثار عجيبة، يسكن هذا الحصن قوم من العرب نحو ألف فارس... (معجم ياقوت).

(٢) القفيز: مكيال كان يكال به قديمًا، ويختلف مقداره في البلاد، ويعادل بالتقدير المصري الحديث نحو ستة عشر كيلوجرامًا.

(٣) الإردب: مكيال يسع أربعة وعشرين صاعًا، أو ست ويبات.

وكانت هوارة قد عاثت في البلاد وقطعت السبل فمضى الحاجب إليهم وعرض عليهم الأمان والرجوع إلى الطاعة. فأبوا فقاتلهم وهزمهم. ونهب العسكر ما في منازلهم وأحرقها بالنار. وعاد الحاجب ثم استأمنت هوارة بعد ذلك.

ثم تجمعت لواتة بأجمعها وحاصروا مدينة قرنة أيامًا وانتهبوا ما كان فيها. ومضوا إلى باجة وقصر الإفريقي. فأخرج إليهم إبراهيم محمد بن قرهب. فالتقوا واقتتلوا فانهزم أصحاب ابن قرهب وكبابه فرسه فأدركوه، وهرب من كان معه. وذلك في ذي الحجة سنة ثمان وستين ومائتين. فاشتد ذلك على إبراهيم، وأمر بحشد الجند والأنصار والموالي. وأخرجهم مع ابنه أبي العباس عبد الله في سنة تسع وستين. فانتهى الخبر إلى لواتة فهربوا بين يديه فلحقهم بباجة وقتلهم قتلاً ذريعًا. وافترق من سلم منهم في كل ناحية.

وفي سنة ثمان وسبعين ومائتين بلغ إبراهيم أن جماعة من الخدام والصقالبة يريدون قتله وقتل أمه، فقتلهم عن آخرهم. وقتل بناته بعد ذلك.

وفي هذه السنة قتل رجال بَلزْمَة بمدينة رقادة. وكان قبل ذلك قد زحف إليهم وبادرهم بنفسه فلم يتمكن منهم. فأظهر العفو عنهم ورجع. ثم وَفَد عليه وفدهم ووفد أهل الزاب. فأنزلهم في رقادة في دار عظيمة كالفندق، وأجرى عليهم نُزُلاً واسعًا، وخلع عليهم وأكرمهم، حتى اجتمع نحو ألف رجل. فأحاط بهم فامتنعوا وقاتلوا، فقتلهم عن آخرهم. وكان قتلهم سبب انقطاع دولة بني الأغلب، لأن أهل بلزمة كانوا قد أذلوا كتامة[1] واتخذوهم خَوَلاً وعبيدًا، وفرضوا عليهم العشور والصدقات وأنْ يحملوا ذلك على أعناقهم. فكان الذي صنع إبراهيم بأهل بلزمة مما أنقذ كتامة من تلك الذلة وأوجدهم السبيل إلى القيام مع الشيعي.

وفي هذه السنة أمر إبراهيم بشراء العبيد السودان، فبلغت عدّتهم مائة ألف. فكساهم وألزمهم بابه. وجعل عليهم ميمونًا وراشدًا. وقتل حاجبه ابن الصمصامة وإخوته وقرابته.

وولى حجابته الحسن بن ناقد، وأضاف إليه عدة ولايات، منها إمارة صقلية.

---

(١) بنو كتامة: بطن من البرانس، من البربر.. وقال الطبري: هم من حمير وليسوا من قبائل البربر، خلفهم إفريقي الذي تنسب إليه إفريقية، وحينئذ فيكونون معدودين في جملة قبائل العرب... (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب).

وفي سنة ثمان وسبعين أيضًا اضطربت إفريقية على إبراهيم. فخالفه أهل تونس والجزيرة وصطفورة وباجة وقمودَة والأربس، وذلك في شهر رجب ولم يجتمع أهل هذه الكور بمكان واحد بل أقام كل رئيس بمكانه. ولم يبق بيد إبراهيم من إفريقية وكورها إلا الساحل الشرقي. فأمر إبراهيم بحفر الخندق على رقادة. وجمع ثقاته على نفسه. وقَرب السودان من قصره. وأحضر شيخًا من بني عامر بن نافع فشاوره في أمره. فقال له: «إنْ عاجلوك قبل أن تختلف كلمتهم خفتُ أنْ ينالوا منك. وإنْ صبروا أمكنك منهم ما تريد». فلما خرج من عنده، قال إبراهيم لابنه أبي العباس: «احبسه عندك لئلا يتكلم بهذا الرأي فيصل إليهم» فحبسه حتى ظفر بهم. وكان سبب ظفره أنه بعث عسكره إلى الجزيرة فقتل منهم خلقًا كثيرًا. وأخذ رئيسها المعروف بابن أبي أحمد أسيرًا. وجيء به إلى إبراهيم فقتله وصلبه. ووجه صالحًا الخادم إلى قمودة فهزمهم. وبعث إلى تونس عسكرًا عظيمًا عليهم ميمون الخادم والحسن بن ناقد حاجبه. فانهزم أهل تونس وقُتلوا قتلًا ذريعًا بعد قتال شديد. ودخل العسكر إلى مدينة تونس فانتهبوا الأموال واستباحوا الحرم وسبوهم. وبعثوا إلى إبراهيم بألف ومائتي أسير، وهم أكابر القوم ورؤساؤهم. وذلك في شهر رمضان من السنة. ووصل الخبر إلى إبراهيم في وقته على جناح طائر. فبعث إلى قائده ألا يقطع رأس قتيل. ووجه العَجَل فحُملت القتلى وشُقّ بها سماط القيروان.

ذكر انتقال إبراهيم إلى تونس

وفي سنة إحدى وثمانين ومائتين، أمر إبراهيم أن تُبنى له بتونس قصوره ومساكنه، فبنيت. ثم انتقل إليها يوم الأربعاء لستٍّ بقين من جُمادى الأولى. وانتقل أهل بيته وجميع قواده ومواليه.

وفي سنة ثلاثِ وثمانين ومائتين، تحرك إبراهيم يريد محاربة ابن طولون بمصر. وحشد وخرج من تونس لعشرِ خلون من المحرم. فأقام برَقادة إلى سبع بقين من صفر. ثم خرج بعساكره، فاعترضه أهل نفوسة[1] بجمع عظيم في النصف من شهر ربيع الأول. فكان بينهم قتالٌ عظيم، فقُتل ميمون الخادم وجماعةٌ ممن معه. ثم انهزم أهل نفوسة، وتبعهم إبراهيم فقتلهم قتلًا ذريعًا. وتطارَح منهم خلق كثير في البحر

---

(١) نفوسة: بالفتح ثم الضم، والسكون، وسين مهملة: جبال في المغرب بعد إفريقية عالية نحو ثلاثة أميال في أقل من ذلك... (معجم البلدان).

فقتلوا حتى احمر لون الماء من دمائهم. فقال إبراهيم «لو كان هذا القتل لله لكان إسرافًا». فقال له بعض رجاله: «ليَدْعُ الأمير بعضَ مَن أحبّ من مشايخهم ويسأله عن اعتقاده. فإذا سأله علم أن ذلك لله» فأحضر بعضهم، فقال: «ما تقولون في علي بن أبي طالب؟» فقال: «نقول: إنه كان كافرًا، في النار من لم يكفره» فقال إبراهيم: «فجميعكم على هذا الرأي؟» قالوا: «نعم» قال: «الآن طابت نفسي على قتلكم». وجلس على كرسي وبيده حربة. فكان يُقدَّم إليه الرجل منهم فَيقد أضلاعه من تحت منكبيه ثم يطعنه فيصيب قلبه حتى قتل منهم خمسمائة رجل بيده في وقت واحد.

ثم تمادى إبراهيم بعد فراغه من أهل نفوسة إلى طرابلس. وكان محمد بن زيادة الله عامله عليها، وكان إبراهيم كثير الحسد له من صغره على علمه وأدبه. فقتله إبراهيم وصلبه.

ثم سار من طرابلس حتى بلغ عين تاورغا. فرجع كثير ممن معه إلى إفريقية، ولم يبقَ معه إلا أقل من النصف. فلما رأى ذلك انصرف إلى رقادة ثم إلى تونس.

وفي سنة أربع وثمانين، جهز إبراهيم ابنه أبا العباس إلى صقلية لقتال أهلها. فسار إليها في جُمادى الآخرة. فقاتله أهلها قتالاً شديدًا ثم انهزموا. ودخل المدينة بالسيف فقتل خلقًا عظيمًا. ثم عفا عن الناس وأمنهم. ثم ركب حتى جاز المجاز، وأوقع بالروم فقتل المقاتلة وسبى الذرية. ورجع إلى صقلية وقد أثخن في الروم.

ذكر اعتزال إبراهيم الملك وزهده وغزوه ووفاته

وكان سبب ذلك أن رسول الخليفة المعتضد بالله العباسي قدم عليه في سنة تسع وثمانين ومائتين من بغداد إلى تونس. فخرج إبراهيم إليه وضُربت له فازة[١] سوداء في سبخة تونس. فخلا بالرسول وكان بينهما محاورة ولم يأته بكتاب. وكان المعتضد قد أرسله على غضب وسخط لشكوى أهل تونس منه، وصياحهم على المعتضد، ووصفهم له ما صنع بهم إبراهيم، وقالوا: «أهدى إليك نساءنا وبناتنا» فغضب المعتضد، وأمره باللحاق به وأن يعتزل عن إفريقية. وولّى عليها ابنه أبا العباس.

فكره إبراهيم المسير إلى المعتضد. وأظهر التوبة، ورفض الملك، ولبس الخشن من الثياب. وأمر بإخراج من في سجونه. وقطع القَبالات[٢] وبعث إلى ابنه

(١) الفازة: مظلة بعمودين أو بعمود واحد.
(٢) القبالات: الكفالات.

أبي العباس وهو بصقلية ليصير إليه الملك، ويخرج له من الأمر. فقدم عليه في شهر ربيع الأول فسلّم إليه الأمر وخرج من تونس. وأظهر أنه يريد الحج. ووصل إلى سوسة، ووجه رسله إلى بغداد بذلك. ثم بعث من يذكر رجوعه عن الحج وخروجه إلى الجهاد خشية من بني طولون لئلا تسفك بينهما الدماء. واستقرّ الناس، ودعاهم إلى الجهاد، ووسع على من أتاه.

وخرج من سوسة لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخرة. فنزل نُوبَة[١] ففرق الخيل والسلاح على أصحابه وأمر بالعطاء. فأُعطي الفارس عشرين دينارًا والراجل عشرة.

وخرج من نوبة إلى طَرابُنُش[١] في البحر. فأقام بها سبعة عشر يومًا يعطي الأرزاق لمن معه.

ثم رحل فدخل مدينة بلرْم[٢] لليلتين بقيتا من شهر رجب. وأمر برد المظالم. وأقام بصقلية أربعة عشر يومًا يعطي أهلها ومن بها من البحريين الأرزاق.

وارتحل لتسع خلون من شعبان. فنزل على طَبَرْمين[٣] وحاصرها. وكان بينه وبين أهلها قتال شديد حتى أثخنت الجراح في الفريقين. وهمَّ المسلمون بالانحياز فقرأ قارىء: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩] الآية. فحمل حُماة العسكر وأهل البصائر بنيات صادقة. فانهزم الكفرة هاربين. فقتلهم المسلمون أبرح قتل، وقَفوا آثارهم في بطون الأودية ورؤوس الجبال. ودخل إبراهيم ومن معه طبرمين فقتل وسبى.

وبعث زيادة الله ابن ابنه أبي العباس إلى قلعة ميقَش.

وبعث أبا الأغلب ولده بعسكر إلى دَمْنيش[٤] فوجد أهلها قد هربوا على وجوههم، فأخذ جميع ما كان بها.

---

(١) طرابنش: اسم مدينة بجزيرة صقلية؛ ينسب إليها قوم، منهم: سليمان بن محمد الطرابنشي... (معجم ياقوت).

(٢) بلرم: بفتح أوله وثانيه، وسكون الراء، وميم: وهي أعظم مدينة في جزيرة صقلية في بحر الغرب على شاطىء البحر... قيل: سورها شاهق منيع مبني من حجر وجامعها كان بيعة وفيها هيكل عظيم... (معجم البلدان).

(٣) طبرمين: بفتح أوله وثانيه، وسكون الراء، وكسر الميم ثم ياء مثناة من تحت، ونون: قلعة بصقلية حصينة... (معجم ياقوت).

(٤) في معجم ياقوت دمنش: بتشديد النون: من مدن صقلية على البحر... (معجم البلدان).

وبعث ابنه أبا حجر إلى رَمْطَة[١] فطلب القوم الأمان. وأجابوا إلى الجزية.

وبعث سعدون الجَلوي بطائفة إلى لياج فدعوا القوم جميعًا. فأجابوا إلى أداء الجزية. فلم يجبهم ولم يُرضه إلا نزولهم عن الحصون، فنزلوا. وهدم جميع القلاع ورمى حجارتها إلى البحر.

ثم تمادى بالعساكر إلى مَسِّيني[٢] فأقام بها يومين.

وأمر الناس بالتعدية إلى قِلَّوْرِيَة[٣] لأربع بقين من شهر رمضان. وتمادى في رحيله إلى أن قرب من مدينة كُسَنْتة. فجاءته الرسل يطلبون الأمان فلم يجبهم. وسار إلى أن وصل كسنتة وقدم العساكر وبقي في الساقة لضعف أصابه. فنزلت العساكر بالوادي. وأمر الناس بالزحف لخمس بقين من شوال. وفرق أولاده وخاصته على أبوابها، فقاتلوا من كل ناحية، ونصبوا المجانيق.

واشتدت علّة إبراهيم، وكانت علته البطن. وعَرَض له الفُواق[٤] فأيس أصحابه منه. فقلدوا الأمر إلى زيادة الله ابن ابنه أبي العباس سرًّا. وكانت وفاة الأمير إبراهيم في ليلة السبت لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة سنة تسع وثمانين ومائتين. فركب القواد إلى أبي مضر زيادة الله، وهو أكبر أولاد أبي العباس بن إبراهيم، فقالوا له: «تولَّ هذا الأمر حتى تصل إلى أبيك» فقال لعمه أبي الأغلب: «أنت أحق بحق أخيك». فلم يتقدم على زيادة الله، وكان يحب السلامة.

ثم طلب أهل كسنتة الأمان، وهم لا يعلمون بوفاة الأمير، فأُمِّنوا. وأقام المسلمون حتى قدم عليهم من كان توجه إلى الجهات. فلما قدموا ارتحلوا بأجمعهم وعادوا إلى مدينة بلرم. ونقلوا إبراهيم معهم فدفنوه بها. وبُني على قبره قصر. وعادوا إلى إفريقية بأجمعهم.

وكان مولد إبراهيم يوم الأضحى سنة خمس وثلاثين ومائتين. فكان عمره ثلاثًا وخمسين سنة وأحد عشر شهرًا وأيامًا. ومدة ولايته إلى حين وفاته ثماني وعشرين سنة وستة أشهر واثني عشر يومًا.

---

(١) رمطة: بفتح أوله، وسكون ثانيه، وطاء مهملة: اسم أعجمي لقلعة حصينة بجزير ة صقلية بينهما ثمانية أيام، هي بعيدة من البحر فوق جبل وفيها آثار الماء... (معجم البلدان).

(٢) مسّيني: بالفتح ثم السين المشددة مكسورة، وياء تحتها نقطتان، ونون مكسورة، وياء ساكنة: بليدة على ساحل جزيرة صقلية مما يلي الروم مقابل ريو... (معجم ياقوت).

(٣) قلورية: هي جزيرة في شرقي صقلية وأهلها إفرنج ولها مدن كثيرة وبلاد واسعة... (معجم البلدان).

(٤) الفواق: تقلص فجائي للحجاب الحاجز يحدث شهقة قصيرة يقطعها تقلص المزمار.

وكان لإبراهيم محاسن ومساوىء ذكرها ابن الرقيق، ونحن نذكر لُمْعَة من محاسن أفعاله ومساوئها، تدل على ما كان عليه. ونترك الإطالة جريًا على القاعدة في الاختصار.

قال: كان على حالة محمودة من الحزم والضبط للأمور. وأقام سبع سنين من ولايته، وهو على ما كان عليه أسلافه من حسن السيرة وجميل الأفعال، إلى أن خرج لمحاربة العباس بن طولون. فلما كُفي مؤنته تغيرت حاله وحرص على جمع الأموال. ثم اشتد أمره فأخذ في قتل أصحابه وكُفاته وحجابه. ثم قتل ابنه وبناته وأتى بأمور لم يأت غيره بمثلها.

فمن محاسن أعماله أنه كان أنصف الملوك للرعية، لا يُرَد عنه متظلم يأتيه. وكان يجلس بعد صلاة الجمعة، وينادي مناديه: «من له مَظْلُمة» فربما لم يأته أحد لكفِّ بعض الناس عن بعض. وكان يقصد ذوي الأقدار والأموال فيقمَعُهم ويقول: «لا ينبغي أن يظلم إلا الملك، لأن هؤلاء إذا أحسّوا من أنفسهم قوّة بما عندهم من الأموال لم يُؤمَن شرُهم وبَطَرهم. فإذا كفّ الملك عنهم وأمنوا دعاهم ذلك إلى منازعته وإعمال الحيلة عليه. وأما الرعية فهم مادة الملك، فإن أباح ظُلْمَهم لم يصل إليه نفعهم، ولحقه الضرر، وصار النفع لغيره».

ووقف له رجلان من أهل القيروان، وهو بالمقصورة في جامع رقادة. فأدناهما إليه وسألهما عن حالهما فقالا له: «كنا شريكين للسيدة ـ يعنيان أمه ـ في جمال وغيرها. فاحتبست لنا ستمائة دينار» فأرسل إليها خادمًا فقالت: «نعم هو كما ذكرا إلا أن بيني وبينهما حسابًا. وإنما احتبست هذا المال حتى أحاسبهما. فإن بقي عليهما شيء وإلا دفعت مالهما إليهما» فقال للخادم: «ارجع إليها وقل لها: والله لئن لم توجهي بالمال وإلا أوقفتك الساعة معهما بين يدي عيسى بن مسكين» فوجهت بالمال إليه. فدفعه إليهما وقال: «أما أنا فقد أنصفتكما فيما ادعيتما، فاذهبا واقطعا حسابها وإلا فأنتما أعلم».

وكان إذا تبين له الظلم قِبَل أحد من أهل بيته وولده بالغَ في عقوبته والإنصاف منه. فكان ولده ورجاله يوم الخميس يأمرون عبيدهم ورجالهم أن يطوفوا في الأزقة والفنادق، ويسألوا: هل أتى شاكٍ أو متظلِّم من عبد أو وكيل؟ فإذا وجدوا أحدًا أتوا به إلى دار ولد الأمير أو قرابته فينصفه.

ومن مساوىء أفعاله أنه أسرف في سفك دماء أصحابه وحجابه حتى يقال إنه افتقد منديلاً كان يمسح به فمه من شرب النبيذ ـ وكان قد سقط من يد بعض جواريه

فأصابه خادم ـ فقتله وقتل بسببه ثلاثمائة خادم. وهذا غاية في الجور ونهاية في الظلم.

وقتل ابنه المكنى بأبي الأغلب لظنٍّ ظنَّه به، فضرب عنقه بين يديه صبرًا. وقتل ثمانية إخوة كانوا له رجالاً، ضُربت أعناقهم بين يديه صبرًا. وكان أحدهم ثقيل البدن فسأله واستَرْحمه. فقال: «لا يجوز أن تخرج عن حكم الجماعة» وقتله. ثم قتل بناته.

وأتى بأمور لم يأْت بها أحد قبله ولم يتقدمه إلى مثلها ملك ولا أمير. فكانت أمه إذا وُلد له ابنة من أحد جواريه أخفتها عنه وربتها حتى اجتمع عندها منهن ست عشرة جارية. فقالت له ذات يوم، وقد رأت منه طيب نفس: «يا سيدي، قد ربيت لك وَصائف ملاحًا، وأحب أن تراهن» فقال: «نعم، قَرِّبيهن مني» فأدخلتهن إليه فاستحسنهن. فقالت: «هذه ابنتك من جاريتك فلانة، وهذه من فلانة» حتى عدَّتهن عليه. فلما خرج قال لخادم له أسود كان سيّافًا يقال له ميمون: «امض فجئني برؤوسهن» فتوقف استعظامًا منه لذلك. فسبَّه وقال: «امض وإلا قدمتك قبلهن». فمضى إليهن. فجعلن يصحن ويبكين ويسترحمن، فلم يُغن ذلك عنهن شيئًا. وأخذ رؤوسهن وجاء بهن معلقة بشعورهن، فطرحها بين يديه.

ومن قبيح أفعاله ما كان عليه من أمر الأحداث، وكان له نَيِّف وستون حَدَثًا. وقد رتب لكل واحد منهم مرقدًا ولحافًا. فإذا جاء وقت النوم، طاف عليهم الموكل بهم فسقى كل واحد منهم ثلاثة أرطال، وينام كل واحد منهم في مكانه. فبلغه أن بعضهم يمشي في الليل إلى بعض. فجلس بباب القصر على كرسي وأمر بإحضارهم. فبعضهم أقرّ وبعضهم جحد، حتى مرّ به صبي كان يحبه فقال: «والله يا مولاي ما كان من هذا شيء» فضربه بعمود من حديد فطار دماغه. وأمر بتنور فأُحمي. فكان يطرح فيه كل يوم خمسة أو ستة حتى أفناهم. وأدخل عددًا منهم الحمام وأغلق عليهم البيت السخن، فماتوا من ساعتهم.

وقتل بناته وجواريه بأنواع من العذاب: منهن من بنى عليها البناء حتى ماتت جوعًا وعطشًا، ومنهن من أمر بخنقها، ومنهن من ذبحها، حتى لم يبق في قصره أحد. فدخل على أمه في بعض الأيام فقامت إليه ورحبت به. فقال لها: «إني أحب طعامك» فسُرَّت بذلك وأحضرت الطعام. فأكل وشرب وانبسط. فلما رأت سروره قالت له: «إن عندي وصيفتين ربيتهما لك وادخرتهما لمسرتك. وقد طال عهدك بالأندلس بعد قتل الجواري وهما يحسنان القراءة بالألحان. فهل لك أن أحضرهما للقراءة بين يديك؟» قال: «افعلي» فأمرت بإحضارهما فأُحضرتا. وأمرتهما بالقراءة

فقرأتا أحسن قراءة. ثم قالت له أمه: «هل لك أن ينشداك الشعر؟» قال: «نعم» فغنتا بالعود والطنبور أبدع غناء حتى عمل فيه الشراب وأراد الانصراف. فقالت له: «هل لك أن تمشيا خلفك حتى تصل إلى مكانك ويقفا على رأسك ويؤنساك، فقد طال عهدك بالأنس» قال: «نعم» فمضى وهما خلفه. فلم يكن إلا أقل من ساعة حتى أقبل خادم وعلى رأسه طبق وعليه منديل. فظنت أنه وجّه إليها بهدية. فوضع الخادم الطبق بين يديها ورفع المنديل، وإذا برأسيهما. فصرخت أمه وغشي عليها. وأفاقت بعد ساعة طويلة، وهي تدعو عليه وتلعنه. وأخباره في أمثال هذا طويلة.

وفي أيامه ظهر أبو عبد الله الشيعي الداعي[1]، وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله عزّ وجل.

ذكر ولاية أبي العباس عبد الله بن إبراهيم ابن أحمد بن محمد بن الأغلب

ولي الأمر كما قدمناه في حياة أبيه ثم استقل بالأمر بعد وفاته. وكان على خوف شديد من أبيه لسوء أخلاقه وجرأته على قتل من قرب منه أو بعد. فكان يظهر له من الطاعة والتذلل أمرًا عظيمًا. فكان إبراهيم يكرمه ويفضله على سائر أولاده.

وكانت ولايته بعد أبيه في يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة سنة تسع وثمانين ومائتين. فجلس للناس للمظالم. ولبس الصوف، وأظهر العدل والإحسان والإنصاف. ولم يسكن قصر أبيه. ولكنه اشترى دارًا مبنية بالطوب فسكنها إلى أن اشترى داره التي عرف بها.

وخاف من قيام ابنه زيادة الله عليه فحبسه هو وخَلْقًا من رجاله.

وولّى أبا العباس محمد بن الأسود الصديني قضاء القيروان والأحكام والنظر في العمال وجُباة الأموال. فكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. وكان قويًا في قضائه، شديدًا على رجال السلطان، رفيقًا بالضعفاء والمظلومين. ولم يكن واسع العلم، فكان يشاور العلماء، فلا يقطع حكمًا إلا برأي ابن عبدون القاضي. وكان يظهر القول بخَلْق القرآن فكرهه العامة.

---

(١) هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا المعروف بالشيعي القائم بدعوة عبيد الله المهدي جد ملوك مصر؛ وقصته في القيام بالمغرب مشهورة... وهو من أهل صنعاء اليمن، وكان من الرجال الدهاة الخبيرين بما يصنعون، فإنه دخل إفريقية وحيدًا بلا مال ولا رجال، ولم يزل يسعى إلى أن ملكها... (وفيات الأعيان ٢: ١٩٢).

ولم تطل أيام أبي العباس حتى وثب به ثلاثة من خدمه كان زيادة الله قد وَضَعهم عليه، فقتلوه وهو نائم. وأتوا بحداد إلى زيادة الله ليقطعوا قيده ويسلموا عليه بالإمارة. فخاف أن يكونوا دسيسًا عليه من أبيه، فأبى ذلك. فمضوا إلى أبيه فقطعوا رأسه وأتوا به في الليل. فلما رأى ذلك أمر بقطع قيوده وخرج. وكان مقتل أبي العباس في ليلة الأربعاء آخر شعبان سنة تسعين ومائتين. فكانت إمارته من حين خروج أبيه وإلى أن قُتل سنة واحدة واثنين وخمسين يومًا، ومنذ استقل بالأمر بعد أبيه تسعة أشهر وثلاثة عشر يومًا.

وكان رحمه الله شجاعًا بطلاً عالمًا بالحرب، حسن النظر في الجدل. وأستاذه في ذلك عبد الله بن الأشج[١].

ذكر ولاية أبي مضر زيادة الله بن أبي العباس

عبد الله بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب. قال: ولما أفضي إليه الأمر بعد مقتل أبيه، كان أول ما بدأ به أنه أمر بقتل الخصيان الذين قتلوا أباه وصلبهم، وأظهر الكراهة لفعلهم.

وأرسل من إخوته وبني عمه تسعة وعشرين رجلاً إلى جزيرة في البحر يقال لها جزيرة الكُراث[٢] فقُتلوا في شهر رمضان من هذه السنة.

وبعث زيادة الله خمسين فارسًا مع فتوح الرومي إلى أخيه الأحول بكتاب على لسان أبيه أبي العباس يأمره فيه بالقدوم عليه ولا يتخلف - وكان أبو العباس قد أخرجه لقتال أبي عبد الله الشيعي - فرجع. فلما وصل أمر زيادة الله بقتله فقُتل. فكان ذلك أعظم فتح عند الشيعي.

قال: وأمر زيادة الله بالعطاء.

وولّى الوزارة والبريد عبد الله بن الصائغ. وولّى الخراج أبا مسلم. وعزل القاضي الصديني لرأيه بخلق القرآن. وكتب كتابًا إلى القيروان: «إني قد عزلت عنكم الجافي الجلف، المبتدِع المتعسف، ووليت القضاء حماس بن مروان لرأفته ورحمته وطهارته وعلمه بالكتاب والسنّة».

---

(١) هو أبو سعيد الأشج عبد الله بن سعيد الكندي الكوفي الحافظ صاحب التصانيف في ربيع الأول وقد جاوز التسعين روى عن هشيم وعبد الله بن إدريس وخلق وكان ثقة حجة. قال أبو حاتم: هو إمام أهل زمانه وقال محمد بن أحمد الشطري: ما رأيت أحفظ منه... (شذرات الذهب ٢: ١٣٧).

(٢) هي على ١٢ ميلاً من تونس.

وفي أيامه قوي أمر أبي عبد الله الشيعي، وكان قد ظهر في أيام جده إبراهيم بن أحمد، فاستفحل الآن أمره. وكثرت أتباعه، واشتدت وطأته. ففارق زيادة الله تونس إلى رقادة ونزلها خوفًا من الشيعي أن يخالفه إليها. ولما نزلها زيادة الله عمر سورها، فلم يغن ذلك عنه شيئًا لأن الشيعي لما قوي أمره بكتامة، انضمت إليه القبائل واجتمعت له الرجال، وهزم جيوش زيادة الله مرة بعد أخرى وقتل جموعه. واستولى على البلاد: فبدأ بميلة[1] ثم بمدينة سطيف[2] ثم غلب على البلاد والمدن بلدًا بلدًا ومدينة مدينة، إلى أن غلب على مدينة الأربس، وهزم إبراهيم بن أبي الأغلب. وكان زيادة الله قد جهزه لقتاله في جيوش عظيمة، وهو آخر جيش جهزه زيادة الله. فهزمه الشيعي، وذلك في جُمادى الآخرة سنة ست وتسعين ومائتين، على ما نذكره إن شاء الله مبينًا في أخبار الدولة العُبَيدية المنسوبة للعلوية.

ذكر انهزام زيادة الله إلى المشرق وانقراض دولة بني الأغلب

قال: ولما بلغت هزيمة إبراهيم بن الأغلب زيادة الله ـ وكان هذا الجمع آخر جمع جمعه ـ فتّ ذلك في عضده. وكان برقادة فأظهر أنه أتاه الفتح وأرسل إلى السجون فأتى برجال منها. فضرب أعناقهم وأمر أن يطاف برؤوسهم في القيروان والقصر القديم.

وأخذ في حمل أثقاله وأمواله. وأرسل إلى خاصة رجاله وأهل بيته يُعرِّفهم الحال وأنذرهم بالخروج معه. فأشار عليه وزيره ابن الصائغ بالمقام. وقال له: «العساكر تجتمع إليك، فأخرج العطاء يأتيك الناس. والشيعي لا يجسر أن يقدم عليك». وشجعه وقواه وذكّره بحروب جده زيادة الله، فلم يرجع إلى قوله. فلما ألحّ عليه ابن الصائغ، قال له زيادة الله: «هذا يصدق ما قيل عنك: إنك كاتبت الشيعي وأردت أن تمكنه مني» فتبرأ من ذلك وأمسك عنه.

وأخذ زيادة الله في شد الأموال والجواهر والسلاح وما خفّ من الأمتعة النفيسة، وفعل رجاله كذلك واتّعدوا إلى الليل. ثم انتخب زيادة الله من عبيده الصقالبة

---

(١) ميلة: بالكسر ثم السكون، ولام: مدينة صغيرة بأقصى إفريقية، بينها وبين بجاية ثلاثة أيام، ليس لها غير المزدرع وهي قليلة الماء... (معجم البلدان).

(٢) سطيف: بفتح أوله، وكسر ثانيه ثم ياء مثناة من تحت، وآخره فاء: مدينة في جبال كتامة بين تاهرت والقيروان من أرض البربر ببلاد المغرب... (معجم البلدان).

ألف خادم وجعل على وسط كل خادم ألف دينار. وحمل من يعزّ عليه من جواريه وأمهات أولاده.

ولما عزم على الرحيل، قامت إليه جارية من قيانه، وأخذت العود واندفعت تغنّي: [من المنسرح]

لم أنسَ يومَ الرحيل موقفها ... وجَفْنُها في دموعها غَرِقُ

وقولها، والركاب سائرة ... تتركني سيدي وتنطلق

فدمعت عيناه وأمر بحطّ حمل مال عن بغل وحَملها عليه.

وكانت الهزيمة بلغته بعد صلاة العصر، فما أذّن مؤذن العشاء الآخرة إلا وقد رحل من رقادة. واتبعه الناس قومًا بعد قوم يهتدون بالمشاعل. وأخذ طريق مصر.

وخرج عبد الله بن الصائغ بعده بثَقَله وحشمه وأمواله. فقصد جهة لَمْطَة[1]، وقد كان أعدّ هناك مركبًا لنفسه، ليركب فيه إلى صقلية ويفارق زيادة الله خوفًا على نفسه من رجاله أن يحملوه على قتله، لأنه كان معاديًا لأكثرهم ورموه بمكاتبة الشيعي؛ ولم يكن كذلك.

قال: ولما علم الناس بهروب زيادة الله، أسرعوا إلى رقادة، وانتهبوا ما فيها، واحتووا على قصور زيادة الله، حتى صاروا إلى البحث عن المطامير[2] وانتزاع حديد الأبواب وحمل الأسرَّة ونقل الماعون. وأقاموا على ذلك ستة أيام، حتى تراءت خيل الشيعي. وتخلف عن زيادة الله كثير من رجاله وعبيده وأصحاب الدواوين، فافترقوا في البلدان.

وأما إبراهيم بن أبي الأغلب، فإنه وافى القيروان في جماعة من انضم إليه. فلما علموا بهروب زيادة الله، تفرقوا عنه وقصد كل قوم إلى ناحيتهم. وقصد إبراهيم دار الإمارة فنزل بها. ونادى مناديه بالأمان، وسكّن الناس. وأرسل إلى الفقهاء ووجوه أهل القيروان، فاجتمع على بابه خلق كثير وسلّموا عليه بالإمارة. فذكر لهم أحوال زيادة الله، وما كان عليه من سوء الحال، وأن ذلك أخلّ بدولته وأجْلَب عدوه وسَلَبه ملكه. وذكر الشيعي وكتامة وشنّع عليهم أقبح الأشانيع. وطلب من الناس الإعانة. وقال: «إنما

---

(١) لمطة: بالفتح ثم السكون، وطاء مهملة: أرض لقبيلة من البربر بأقصى المغرب من البر الأعظم يقال للأرض وللقبلة معًا لمطة... (معجم البلدان).

(٢) المطامير: واحدتها مطمورة، وهي مكان تحت الأرض قد هيىء ليطمر فيه البر والفول ونحوه، أو السجن.

قصدت المجاهدة عن حريمكم ودمائكم وأموالكم، فأعينوني على ذلك بالسّمع والطاعة» وأمدوني بأموالكم ورجالكم، وادفعوا عن حريمكم ومهجكم». فقالوا: «أما السمع والطاعة فهما لك ولكل من ولينا. وأما إعانتك بأموالنا فهي لا تبلغ ما تريده. والقتال فما لنا به قوة ولا معرفة. وأنت فقد ناصبت هؤلاء ومعك صناديد الحرب ووجوه الرجال ووراءك بيوت الأموال، فلم تظفر بهم. وتروم الآن ذلك منا نحن وبأموالنا». فراجعهم في ذلك وراجعوه، حتى قال لهم: «فانظروا ما كان في أيديكم من أموال الأحباس والودائع فأعطوني ذلك سَلَفًا، فأُنادي بالعطاء فيجتمع إلي الناس» قالوا: «وما يغني عنك ذلك، ولو مددت يدك إليها لأنكر الناس عليك».

فلما يئس منهم صرفهم والناس مجتمعون حول دار الإمارة لا يعلمون ما كان الكلام. فلما خرجوا أخبروهم بما كانوا فيه. فصاحوا به: «اخرج عنا، فما لنا بك من حاجة، ولا نسمع ولا نطيع لك». وجلب الغوغاء وصاحوا به وشتموه. فلما سمع ذلك، وثب من كان معه في سلاحهم واقتحموا الباب. فهرب من كان على الباب. ومضوا يُركضون[1] دوابهم، والناس يركضون وراءهم ويرجمونهم بالحجارة. وانضم إلى ابن الأغلب من كان قد بقي بعد زيادة الله من رجاله ممن خاف على نفسه، ولحقوا زيادة الله.

ثم دخل الشيعي رقادة وانقرضت دولة بني الأغلب.

ذكر ما كان من أخبار زيادة الله وقتله عبد الله ابن الصائغ ومسيره إلى بلاد الشرق ووفاته

قال: ولما خرج زيادة الله من رقادة، ولحق به إبراهيم بن أبي الأغلب فيمن انضم إليه، فاجتمع معه خلق كثير. فسار بهم إلى طرابلس فدخلها ونزل دار الإمارة. وافتقد ابن الصائغ فلم يره، فتحقق ما كان يُرمَى به من مكاتبة الشيعي. وأكثَرَ أصحابه القول فيه. وكان قد ركب في مركب له يريد صقلية، فصرفته الريح إلى طرابلس. فدخل على زيادة الله فعاتبه على تخلُّفه. فاعتذر أنه كانت معه أثقال لم يُطق حملها في البرّ. فلما علم أصحاب زيادة الله أنه قرب ابن الصائغ ساءهم ذلك وغمّهم. فأتوه وقالوا: «إنه كذبك وإنما كان يريد صقلية». واجتمعوا كلهم وقالوا: «هذا الذي أخرجك من ملكك، وعمل في ذهاب دولتك، وكاتب الشيعي عليك». فنقم عليه

---

(١) ركض الدابة: ضرب جنبيها برجله أو برجليه ليحثّها على السير.

وأمر بتسليمه إلى راشد ـ وهو أحد المتعصبين عليه ـ فضرب عنقه بيده. وتلاعب الصبيان برأسه حتى وقع في قناة حمام. وحُكي عن الشيعي أنه قال: «والله ما كاتبني قطّ».

قال: وأقام زيادة الله بطرابلس سبعة عشر يومًا وخرج منها يريد مصر. وكان قد نقم على إبراهيم بن أبي الأغلب لما أراده من العقد لنفسه بمدينة القيروان، فاطرحه وأعرض عنه وعن أبي المصعب بن زُرارة. وسُعي بهما عنده أنهما يَقعان فيه وينالان منه، وقيل له: «هذا قولهما فيك وهما معك وفي قبضتك، فكيف إذا وصلا إلى مصر؟» فعزم على قتلهما. فهربا إلى الإسكندرية واستجارا بعاملها. فأجارهما ووجه بهما إلى مصر. فدخلا قبل زيادة الله، واجتمعا بعيسى النوشري عاملها، ووقعا عنده في زيادة الله، وذكروا سوء فعله وأنه يُطمع نفسه بمصر. فهم النوشري أن يصد زيادة الله عن مصر إلى أن يكتب إلى بغداد. فأتى زيادة الله الخبر من عيون كانت له بمصر، فأرسل ابن القديم بكتاب إلى النوشري، يبجّله فيه ويسأله أن ينظر له دارًا ينزل فيها، ويخبره أنه يقيم إلى أن يصل إليه الرسول. ثم سار زيادة الله في أثر ابن القديم وجاء إلى مصر. فأنزله النوشري في دار ابن الجصاص، وأنزل رجاله في دور كثيرة.

وأقام بمصر ثمانية أيام ثم خرج يريد بغداد. فتخلّف عنه بمصر جماعة ممن كان معه. فسار حتى وصل إلى الرملة ففقد وجوه رجاله، فوجدهم هربوا عنه. وهرب له غلام بمائة ألف دينار، وصار إلى النوشري والتحق بغلمانه. فكتب زيادة الله إلى بغداد بذلك. فورد الجواب إليه، وإلى النوشري يؤمَر فيه أن يبعث إليه بكل من تخلف عنه. ففعل النوشري وردّ غلمانه وأصحابه إليه.

وسار زيادة الله حتى وصل إلى الرّقة. وكتب إلى ابن الفرات الوزير أن يستأْذن له المقتدر بالله في الدخول إلى الحَضْرة. فأتاه كتاب يؤمر فيه بالإقامة في الرقة حتى يأتيه رأي المقتدر. فأقام بها سنة فتفرق عنه رجاله وتشتّت أمره. وباع عليه قاضي الرقة بعض خصيانه، وذلك أنه كان معه خصيان لهم وضاءة وجمال. فلما أقام بالرقة أدمن شرب الخمر وسماع الملاهي. فاحتسب عليه محتسب عند القاضي، وأقام بينة شهدت عليه أنه يفجر بأولئك الصقالبة. فباعهم عليه. وتلطف زيادة الله في الدخول على المقتدر بالله فلم يؤذن له. وصرفه إلى النوشري وابن بسطام بمصر. وكتب المقتدر إليهما بتقويته بالرجال وأن يُعطَى من خراج مصر ما يقيم أود عسكره حتى يعود إلى المغرب ويطلب بثأره ويسترجع دولته.

فلما وصل إلى مصر شقّها متقلدًا بسيفين. فأخرجه النوشري إلى ظاهرها وقال له: «تكون متبرِّزًا حتى تأْتيك الرجال والأموال». وجعل يمطله ويسوِّف به ويُتحفه بالهدايا والخمور. فأقام على اتباع شهواته والانهماك على لذاته حتى أنفق ما كان معه وباع السلاح والعدّة. ثم اعتلّ فيقال إن بعض عبيده سمه في طعام فسقط شعر لحيته ورأسه. فانصرف إلى البيت المقدس فمات هناك. وتفرق آل الأغلب وانقرضت دولتهم بخروج زيادة الله من الملك.

وكانت مدة ولاية زيادة الله منذ أفضى إليه الأمر بعد أبيه وإلى أن هرب إلى رقادة خمس سنين وعشرة أشهر. وانقرضت دولتهم كأن لم تكن. فسبحان من لا يزول ملكه ولا ينقضي دوامه. وبانقراض دولة بني الأغلب زال ملك بني مِدْرار بسجِلْماسَة، وكان له مائة سنة وستون سنة، وزال ملك بني رستم من تَيْهرت، وله مائة سنة وثلاثون سنة.

ذكر أخبار من ملك المغرب بعد بني الأغلب إلى أن قامت دولة بني زيري بن مناد

نحن نذكر ذلك في هذا الموضع على سبيل التنبيه عليه لا الاستيعاب له. وسنذكره إن شاء الله تعالى مبيَّنًا مستوفى في أخبار الدولة العُبيدية مع ملوك مصر.

فنقول هاهنا: لما قام أبو عبد الله الشيعي على دولة بني الأغلب، وهزم جيوشهم، واستولى على بلاد المغرب وانتزعها من زيادة الله بن أبي العباس، وظهر أبو محمد عبيد الله المنعوت بالمهدي - وهو الذي كان الشيعي يدعو له - فانخلع له الشيعي من الأمر كله، وسلمه إليه في سنة ست وتسعين ومائتين. فلما استقامت الأمور للمهدي، وتوطَّد ملكه، واشتدت شوكته، قتل أبا عبد الله الشيعي وأخاه، واستقلّ بالأمر. وبنى مدينة المهدية[١] وانتقل إليها. ودامت أيامه إلى أن توفي في النصف من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة.

ثم قام بالأمر بعده ولده أبو القاسم محمد المنعوت بالقائم بأمر الله. فملك إلى أن توفي في يوم الأحد الثالث عشر من شوال سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة.

---

(١) المهدية: مدينة بإفريقية منسوبة إلى المهدي، بينها وبين القيروان مرحلتان، القيروان في جنوبيها، والثياب السوسية المهدوية إليها تنسب، وقد اختطها المهدي، واختلف في نسبه... (معجم البلدان).

ثم قام بالأمر بعده ابنه أبو الطاهر إسماعيل المنعوت بالمنصور بنصر الله. وبنى المنصورية. ودامت أيامه إلى أن توفي في يوم الجمعة آخر شوال سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة.

ثم قام بالأمر بعده ابنه أبو تميم معَد المنعوت بالمعز لدين الله. ودامت ولايته ببلاد المغرب إلى أن جهز القائد جوهرًا إلى الديار المصرية فملكها بعد انقراض الدولة الإخشيدية. وأنشأ القاهرة المعزية، ثم كتب إلى مولاه المعز لدين الله بذلك. فتوجه المعز إلى الديار المصرية، وكان رحيله من المنصورية ووصوله إلى سرْدانية[1] في يوم الاثنين لثمان بقين من شوال سنة إحدى وستين وثلاثمائة. وسلم إفريقية وبلاد المغرب كلها ليوسف بن زِيري بن مَناد في يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي الحجة من السنة. وأمر سائر الناس بالسمع والطاعة له. ثم رحل المعز لدين الله من سردانية لخمس خلون من صفر سنة اثنتين وستين وثلاثمائة. ثم سار منها إلى طرابلس وأقام بها أيامًا. ورحل منها يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر منها. ووصل ثغر الإسكندرية لست خلون من شعبان منها. فكانت مدة مقامهم ببلاد المغرب خمسًا وستين سنة وشهورًا. وصار أمر المغرب بعده ليوسف بن زيري ثم لبنيه من بعده، على ما نذكره إن شاء الله عزّ وجل. وكانوا في مبدإ الأمر كالنواب لملوك الدولة العُبيدية بمصر. ثم استقلوا بعد ذلك بالأمر على ما يأتي من أخبارهم.

ذكر ابتداء دولة بني زيري بن مناد ونسبهم ومبدأ أمرهم ومن ملك منهم إلى انقضاء دولتهم

أول من ملك منهم أبو الفتوح بُلُكِّين يوسف بن زِيرِي. ولنبدأ بذكر نسبه وأخبار آبائه ومبدإ أمرهم.

فأما نسبه فهو أبو الفتوح يوسف بن زيري بن مَناد بن منقوش بن زِناك بن زيد الأصغر بن واشفاك بن وزعفى بن سري بن وتلكي بن سليمان بن الحارث بن عدي الأصغر - وهو المثنى بن المسور بن يحصب بن مالك بن زيد بن الغوث الأصغر - بن سعد - وهو عبد الله بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد بن شداد بن زُرْعة - وهو

(١) سردانية: بفتح أوله، وسكون ثانيه ثم دال مهملة، وبعد الألف نون مكسورة، وياء آخر الحروف مفتوحة مخففة: جزيرة في بحر المغرب كبيرة ليس هناك بعد الأندلس وصقلية وإقريطش أكبر منها. . . (معجم ياقوت).

حمْيَر الأصغر بن سَبَأ الأصغر بن كعب بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جُشَم بن عبد شمس بن وائل بن الغَوْث بن قطن بن عوف بن عَريب بن زهير بن أيمن بن الهَمَيْسَع بن عمرو بن حمير - وهو العَرَنْجَج - ابن سَبَأ الأكبر بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عامر - وهو هود.

هكذا قال عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن شداد بن الأمير تميم بن المعز بن باديس في تاريخه المترجم «بالجمع والبيان في أخبار المغرب والقيروان» وهم المقول فيهم: [من الطويل]

ذوو الملكِ والتِّيجان والغُرَر التي ... حَقيقٌ بها التيجانُ أنْ تتَباهَى
له مُعجِز التَّأسيسِ في سُدِّ مَأرِبِ ... وإن كان قد أوْهاهُ فَيْضُ نَداها[1]
لها ركنُ بيت الله غير مدافع ... وميقاتُ حجِّ الله غير مُضاهَى
لها اللغة العليا التي نزلت بها ... فواتح ياسينٍ ومبدأ طَه
لها يومُ بَدْرٍ والنَّضيرِ وخَيْبَر ... وأيُّ مُنادٍ في حُنَيْنَ دَعاها

قال: وأول من دخل منهم بلاد المغرب المثنى بن المسور. وكان سبب دخوله أنه لما رأى الحبشة قد غلبت على اليمن وأخرجت حمْيَر عن ملكها، سار إلى الشِّحْر[2] فوجد به كاهنًا من حمير. فلما رأى المثنى، سلّم عليه وسأله عن خبره وما الذي أتى به. فأعلمه أن الحبشة غلبتهم على ملكهم. فقال له الكاهن: «اذهب إلى المغرب واتخذه قرارًا. فوالله، ليكونن لولدك فيه شأن، وليملكنّ منهم جماعة، ويتوارثونه، ويطول ملكهم». فهاج ذلك المثنى على دخول المغرب فدخله. وأعلم المثنى بنيه بذلك وأعلم بنوه بنيهم.

فما زالوا يتوقعون الملك إلى أن وُلد مناد بن منقوش ونشأ، فجاء شديد القوة كثير المال والبنين. فأخذ في الإفضال على من يمر به. فاشتهر ذكره وشاع خبره في الناس. وكان له مسجد يطرقه[3] كل من يأتي إليه. فإذا خرج إلى الصلاة، سلم على من ينزل المسجد من الأضياف وحمله إلى داره، ويضيفه ويكرمه. ويقيم عنده ما شاء الله أن يقيم. فإذا أراد الانصراف، زوّده وكساه ووصله وصرفه.

---

(١) أوهاه: أضعفه.

(٢) الشحر: بكسر أوله، وسكون ثانيه: هو صقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن. قال الأصمعي: هو بين عدن وعمان قد نسب إلى بعض الرواة؛ وإليه ينسب العنبر الشحري لأنه يوجد في سواحله. . . (معجم البلدان).

(٣) يطرقه: يأتيه بعد غروب الشمس، والطارق: الضيف يأتي ليلاً.

فإنه على ذلك، إذ أتاه آتٍ فقال له: «إن في المسجد رجلاً وصل في هذه الساعة، وهو يذكر أنه جاء من الحج» وكان وقت صلاة الظهر. فخرج مناد إلى المسجد، فصلّى وسلّم على الرجل، وسأله عن حاله ومن يكون ومن أين أقبل فقال: «إنه من أهل المغرب، وإنه انصرف من الحج فخرج عليه لصوص، وأخذوا ما كان معه فانقطع عن أصحابه، ووصل إلى إفريقية فسمع بمناد وما يفعل مع أبناء السبيل، فقصده ليعينه على الوصول إلى أهله». فقال له مناد: «قد وصلت فأبشر بالخير إن شاء الله». ومضى به مناد إلى منزله، فأكل ونام. وأمر مناد بشاة فذُبحت وعُمل طعام ثان. وأيقظ الرجل وأُتي بالطعام فأكل منه. ونظر إلى كتف الشاة فأخذه وقلبه ونظر فيه وإلى مناد، وأقبل يتعجب. فقال له مناد: «لأي شيء تنظر في الكتف وتنظر إلي؟» قال: «لا لشيء». فعزم مناد عليه أن يخبره ممَّ تَعجُّبه. فقال: «ألك امرأة حامل؟» قال: «بلى» قال: «فلك منها أولاد؟» قال: «لا ولكن من غيرها» قال: «فاعرضهم علي» فعرضهم مناد عليه، فقال: «ألك غير هؤلاء؟» قال: «ليس لي ذكر إلا من رأيت» قال: «احتفظ بالمرأة الحامل. فوالله، لَتلدَنَّ ولدًا يملك المغرب جميعه، ويملك بنوه من بعده. فقال له مناد: «والله، ما زلنا نَتوكّفُ[1] زمانَ هذا القائم منا، روايةً عندنا عن أسلافنا. وكنا لا نعلم من أي فَخذ من أفخاذنا يكون. والآن فقد أنبأتني بنبأ ما كنا ننتظر من هذا القائم» قال: وأكرم مناد الرجل وصرفه.

ذكر أخبار زيري بن مناد

قال: ووضعت زوجة مناد حملها، فجاء ذكرًا فسماه أبوه زيري. فخرج من أجمل مولود رآه الناس، وكذلك كان أولاده يُضرب بجمالهم المثل في المغرب فيقال: «لو أنك من بني مناد».

فلما صار له من العمر عشر سنين، كان من رآه يظنه أنه ابن عشرين سنة لبهائه. وكانت الصبيان يدورون حوله، ويدعونه بالسلطان، ويركبون العيدان يتشبهون بالعساكر. ويأمرهم بالقتال بين يديه، يُغري بعضهم ببعض. ويأتي بهم إلى أمه فتصنع لهم الطعام. فيقف على رؤوسهم ويطعمهم ولا يأكل.

فلما تكامل شبابه وقَوي أمره، جمع إليه جماعة من بني عمه ومن كان له نجدة. فكان يشنّ بهم الغارات على القبائل من زَناتة فيقتل ويسبي ويقسم على

---

(١) توكف الأمر: تتبعه، أو توقعه وسأل عنه.

أصحابه فلا يُؤثر نفسه بشيء. فحسده كثير من قبائل صنْهاجة لأن كل قبيل كان يطمع أن يكون القائم منهم. فلما تحققوا أنه القائم اجتمعت القبائل من صنهاجة على زيري وحاربوه. وطالت الحرب بينهم فظفر بهم وقتل وسبى ورجع بالغنائم إلى الجبل.

فلما سمعت بذلك زناتة، اجتمعوا وتحالفوا وكاتبوا مَن كان خالفه من صنهاجة وحالفوهم على حرب زيري. فاتصل ذلك به فخرج إليهم وضرب على زناتة بأرض مَغيلة في الليل وهم مطمئنون، فقتلهم وسباهم، وقطع منهم رؤوسًا كثيرة.

وخرج إلى جبل تِيطَرِي وقد امتلأت أيدي أصحابه من الغنائم، وأخذ من خيلهم ثلاثمائة فرس فحمل أصحابه عليها. وشاع خبره في سائر أقطار المغرب وتسامع الناس به، فعظموا أمره واسْتَهالُوه. واجتمع إليه كل من فيه منعة. فكثر أصحابه وضاق بهم المتّسع. فقالوا له: «لو رأيت مكانًا أوسع من مكاننا هذا» فأتى إلى موضع أشير[1]، وهو إذ ذاك خال ليس فيه ساكن وفيه عيون، فاستحسنه.

ذكر بناء مدينة آشير

قال: ولما نظر زيري إلى موضعها قال لأصحابه: «هذا موضعكم الذي يصلح أن تسكنوه» وعزم على بنائها، وذلك في سنة أربع وعشرين وثلاثمائة أيام القائم بأمر الله بن المهدي. قال: وأمر زيري بإحضار البنّائين والنجارين من حَمْزَة[2] والمسيلة وطُبْنة. وبعث إلى القائم بأمر الله في طلب صُنّاع. فبعث إليه برجل لم يكن بإفريقية أعلم منه. وأعانه بعُدة كثيرة من الحديد وغيره. وشرع زيري في البناء إلى أن كملت المدينة.

وكانت زناتة قد استطالت على أهل تلك الناحية من أيام بني الأغلب ثم تزايد ضررهم في أيام المهدي والقائم. فلما سمع القائم ببناء زيري هذه المدينة، حمد الله على ذلك وقال: «مجاورة العرب خير لنا من مجاورة البربر». وأعانه وساعده. ثم خرج زيري إلى طبنة والمسيلة وحمزة، فنقل منها وجوه الناس إلى مدينة آشير. فعمرت وجاءت حصنًا منيعًا لا يقاتل إلا من شرقيها ـ يحميها عشرة من الرجال، ولو

---

(١) أشير: بكسر ثانيه، وياء ساكنة، وراء: مدينة في جبال البربر بالمغرب في طرف إفريقية الغربي مقابل بجاية في البر... (معجم البلدان).

(٢) حمزة: بالفتح ثم السكون، وزاي: مدينة بالمغرب.. قيل: بناها حمزة بن الحسن بن سليمان بن الحسين بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.. وحمزة: في جبل عظيم... (معجم البلدان).

لم يكن عليها سور لاستغنت بعلوها عن السور. وفي وسطها عينان تجريان بماء عذب غزير. وامتلأت البلد بالعلماء والفقهاء والتجار. وتسامع الناس بها. ولم يكُن الناس إذ ذاك يتعاملون بالذهب والفضة وإنما بالبعير والبقرة والشاة، فضرب زيري السكة(١). وبسط العطاء في الجند، وجعل لهم الأرزاق. فكثرت الدنانير والدراهم في أيدي الناس. واطمأنت نفوس أهل البادية للحرث والزراعة. وصانهم زيري مما كان ينالهم من زناتة. وتمكنت العداوة بين صنهاجة وزناتة.

ثم خرج زيري إلى المغرب، وولى أخاه ماكِسن بن مناد على آشير. فلما وصل إلى جُراوَة، خرج إليه صاحبها موسى بن أبي العافية، وكان واليًا عليها لعبد الرحمٰن بن محمد الأموي صاحب قُرْطُبة، بهدية سنية وجوارٍ وغير ذلك. وقال له: «يا مولاي، إنما استعملت نفسي لبني أمية لأرهب بهم على زناتة، وإذ قد أتاني الله بك وجمع بيني وبينك فأنا عبدك، ومنقطِع إليك، وغَوْثك. أنت مني قريب، وسيف قريب مني أمنع من سيف بعيد». فقربه زيري وأدناه وقال له: «اكتب إلي بما يعن لك. فأنا أمدك بالعساكر متى أردت». فشكا إليه من غُمارة(٢) وقال: «إنهم قوم على غير مذهب يُبيحون المَحارم. وقام فيهم رجل يدّعي النبوة، وسَنّ سُنَنًا من المنكرات». فرحل زيري إلى غمارة وصحبه موسى، فأوقع بهم. وأخذ الذي يدعي النبوة فوصل به إلى آشير. وجمع عليه الفقهاء فقالوا له: «إن كنت نبيًا فما علامة نبوتك؟» فقال: «اسمي في القرآن» قالوا: «وما اسمك؟» قال: «اسمي حم، واسم أبي من الله، وفي القرآن ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ [الجاثية: ١، ٢] فأباحوا قتله فقُتل.

قال: واتصلت المودة بين زيري والقائم بأمر الله. وسبب ذلك أن أبا يزيد لما حاصر المهدية ومنع الميرة عنها، كتب القائم إلى زيري يُعلمه ما الناس فيه من الجهد والغلاء. فبعث إليه زيري بألف حمل حِنْطة. وأخرج معها مائتي فارس من صنهاجة وخمسمائة من عبيده. فلما وصل ذلك إلى المهدية، بعث القائم له هدية لم يُسمَع بمثلها كُسًا جليلة وخيل مُسوَّمة بسروج محلاة.

(١) السكة: حديدة منقوشة تضرب عليها النقود.

(٢) بنو غمارة: بطن من معمورة، من البرانس، من البربر. وهم: بنو غمارة بن مسطح بن قليل بن مصمودة بن برنس بن بربر... ومن هذه القبيلة الشيخ عبد الله الغماري، خادم سيد أبي العباس البصير الخزرجي الأندلسي البلنسي... (نهاية الأرب للقلقشندي).

ذكر الحربَ بين زيري وزناتة

قال: ثم إن كمات بن مَدِيني الزناتي سيد زناتة جَيَّش واحتفل ونزل على آشير، فخرج إليه زيري. وكانت بينهم حروب يطول شرحها. وكان لزيري ولد صغير اسمه كباب استخلفه على البلد، ومنعه من الخروج لصغرسنه. فلما سمع الصياح وضرب الطبول، لبس لأمة[١] الحرب وركب ـ وهو إذ ذاك لم يُراهق الحُلُم ـ وخرج من باب المدينة. وكان كمات قد أبلى في ذلك اليوم بلاءً حسنًا، وقتل جماعة من أصحاب زيري. فوقعت عين كباب عليه فقصده، وعلا عليه من فوق ربوة، فضربه على عاتقه. وكانت على كمات درع، فَقَدَّت الضربة الدرع والعاتِق، وسقطت ذراع كمات إلى الأرض. فخرّ صريعًا والناس ينظرون إليه ولا يعلمون من هو قاتله. فلما صُرع انهزم أصحابه. ورجع كباب إلى المدينة ودخل من الباب الذي خرج منه، فسمّي باب كباب. قال: ولما قتل كمات وقع التكبير والصياح. فجاء بعض الجند إلى زيري ـ وكان قد نظر كباب وعرفه عند ضربه لكمات ـ وقال له: «إن ابنك كباب قاتله». وأتى بجماعة من أصحابه أسارى، فأمر زيري بضرب أعناقهم وصلب جماعة من كبارهم.

قال: ثم ظهر في جبل أوراس قائم يقال له سعيد بن يوسف، وأظهر النفاق على المنصور بن القائم، فأخرج إليه زيري ولده بُلُكّين في جيش كثيف. فلقيه في موضع بفحص أبي غزالة، من غربي باغايَة فاقتتلوا. وكان سعيد قد احتفل في جمع من هوارة[٢] وغيرهم. فهزمهم بلكين وقتل سعيدًا وجماعة من أصحابه. وأنفذ برؤوسهم إلى المنصور. فقوي الحسد لزيري من جميع القبائل، وجمعوا عليه الجموع، وكان منصورًا على جميع من عانَدَه.

ذكر مقتل زيري

كان مقتله في شهر رمضان سنة ستين وثلاثمائة في أيام المعز لدين الله المنصور بن القائم بن المهدي. وسبب ذلك أن جعفر بن علي صاحب المسيلة كان

---

(١) اللأمة: أداة الحرب كلها من رمح، وبيضة، ومغفر، وسيف، ودرع.

(٢) بنو هوارة: بطن من أوريغ، من البرانس من البربر. وهم بنو هوارة بن أوريغ بن برنس بن بربر. قال الحمداني: إنهم من ولد بر بن قيذار بن إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام. قال في العبر: وبعضهم يزعم أنهم من عرب اليمن... وذكر في مسالك الأبصار: إن منازلهم الديار المصرية وبالجيرة، ومن الإسكندرية غربًا إلى العقبة الكبيرة من برقة... وقيل غير ذلك... (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب).

أميرًا على الزاب كله، وأبوه هو الذي بنى المسيلة. وكبر جعفر وشمخ فكان ملكًا جليلاً. وكان في طاعة المعز بن المنصور، وبينه وبين زيري ضغائن في النفوس وعداوة في الصدور. ثم اتفق أن المعزل لدين الله أمر ببناء دار ابن رَباح، وهي المعروفة في القيروان بدار الإمارة. فشاع عند الناس أنها بُنيت لجعفر بن علي، وأنه يُعطَى ولاية إفريقية، وأن المغرب كله يعْطَى لزيري. فعظم ذلك على جعفر بن علي وأراد أن لا يكون لأحد معه في المغرب ولاية. فأنفذ المعز لدين الله إليه يستدعيه، فلم يأت ولم يمتنع. فأرسل إليه ثانية فرجًا الصقلبي. فلما بقي بين فرج وجعفر مقدار مرحلة، وكان في المسيلة فخرج منها وأظهر المسير إلى المعز. ثم مال بعسكره ومعه السلاح والأموال ومضى إلى زناتة. وخلع الطاعة، وأظهر أن الذي حمله على ذلك عداوة زيري بن مناد لأنه كان يؤذيه في أعماله. ووصل فرج الصقلبي إلى المسيلة، فأخبروه بخبر جعفر.

قال: ولما وصل جعفر إلى زناتة، قبلوه أحسن قبول، وقدّموه على أنفسهم. فبلغ الخبر زيري، فبادر بالخروج إلى جعفر. وزحف إليه في عسكر عظيم من صنهاجة وغيرها، وذلك في شهر رمضان من السنة. وزحف جعفر في زناتة والتقوا واقتتلوا قتالاً شديدًا. فكبا بزيري فرسه فسقط إلى الأرض. وكانت جولة عظيمة، وقطعت قُدامه خمسمائة يمين ثم قُتل. وبعث جعفر بن علي أخاه يحيى إلى الحكم صاحب الأندلس يبشّره بقتل زيري. ثم أحسّ جعفر أن زناتة يريدون الغدر به وأنهم ندموا على قتل زيري، فاحتال لنفسه ودخل الأندلس.

قال: وكان زيري حسن السيرة في الرعية والتجار. وكان له آشير التي بناها، وأعطاه المنصور تاهرت وأعمالها وباغاية وأعمالها. وكان شديدًا على البربر. وأقام على ذلك ستًا وعشرين سنة. ورُزق من الأولاد ما يزيد على المائة، كلهم أنْجاد فرسان كرماء كان يكتفي بهم في بعض حروبه.

ذكر أخبار أبي الفتوح يوسف بلكين
ابن زيري بن مناد

ولي الرئاسة على صنهاجة بعد مقتل أبيه. فكان أول ما بدأ به أنه ـ لما جاءه الخبر بقتل أبيه وهو بآشير ـ جمع وحشد. ونهض لطلب دم أبيه، فاجتمع له خلق كثير. فقال: «لا يخرج معي أحد ممن حضر مقتل والدي» فلم يخرج معه منهم غير ثلاثة رجال. ومضى مسرعًا حتى لحق بزناتة. فجرت بينه وبينهم حروب صبرت فيها

صنهاجة صبرًا جميلاً. ثم انهزمت زناتة، وقَتل منهم مقتلة عظيمة، وسبى جميع نسائهم، ونهب أموالهم. وهرب من بقي منهم. ونزل في موضع المعركة ثلاثة أيام. فشكا صنهاجة ريح القتلى. فنادى أن لا يطبخ في العسكر قدر إلا على ثلاثة رؤوس من رؤوس القتلى. وجعل الجثث أكوامًا. وصعد المؤذنون فأذّنوا عليها. ثم رجع إلى آشير.

فلما اتصل بالمعز لدين الله ما فعل يوسف بزناتة، أعجبه ذلك وسُرَّ بقتلهم. فزاده على ما كان لأبيه المسيلة وأعمالها التي كانت لجعفر بن علي.

ثم كتب المعز إلى يوسف في المحرم سنة إحدى وستين وثلاثمائة في القدوم عليه وأن لا يتشاغل بقتال أحد. وأمره أن لا يعترض زناتة ولا غيرها في هذا الوقت، وأن يستعمل اللين والرفق بزناتة، ويرد عليهم ما سبى من نسائهم وأولادهم. فامتثل يوسف ما أمره المعز به. وردّ على زناتة سباياهم. وتجهز للمسير إليه. واستعمل على تاهرت وآشير والمسيلة وبسكرة وطبنة[١] وباغاية ومجانة عمالاً من عبيده. وسار حتى قدم على المعز. فلما دخل عليه، أكرمه وأثنى عليه وحمد أفعاله، وذكر فراسته فيه واختياره له. وخلع عليه خلعته التي كانت عليه. ونزع سيفه فقلّده إياه بيده. وأمر أن يُحمَل بين يديه عند خروجه من عنده أربعون تختًا من فاخر الكُسَا ومعها رُزَم مما يخلَع على أصحابه. وقادوا بين يديه أربعين فرسًا بالسروج المحلاة المثقلة. فشقّ ذلك على الكُتاميين وحسدوه وتكلموا عليه عند المعز وعابوه، فلم يضره ذلك. ولما عزم المعز على الرحيل إلى مصر. أتاه بلكين بألفي جمل لحمل أمواله من إبل زناتة[٢].

ذكر ولاية أبي الفتوح يوسف بلكين بلاد المغرب

وهو أول ملوك بني زيري. وذلك أن المعز لدين الله أبا تميم معد بن المنصور بنصر الله بن القائم بأمر الله بن المهدي لما توجه من المنصورية إلى ديار مصر في سنة

(١) طبنة: بضم أوله ثم السكون، ونون مفتوحة: بلدة في طرف إفريقية مما يلي المغرب على ضفة الزاب فتحها موسى بن نصير... وسورها مبني بالطوب، وبها قصر وأرباض، وليس بين القيروان إلى سجلماسة مدينة أكبر منها... (معجم البلدان).

(٢) بنو زناتة: هم بطن من البربر ببلاد المغرب... قال في العبر: ونسابة زناتة تزعم الآن أنهم من حمير، من التبايعة، فتكون من الفرس. وبعضهم يقول إنهم من العمالقة... (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب).

إحدى وستين وثلاثمائة بعد أن فتحها القائد جوهر له توجه بجميع من كان في قصره وأهل بيته. ورحل معه يوسف إلى سردانية، فسلّم إليه إفريقية وأعمالها وسائر أعمال المغرب، وذلك في يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي الحجة سنة إحدى وستين وثلاثمائة. وأمر سائر الناس بالسمع والطاعة له. وفَوّض إليه جميع الأعمال إلا جزيرة صقلية فإنها كانت بيد أبي القاسم علي بن حسن بن علي بن أبي الحسين، وكذلك طرابلس فإن المعز جعل عليها عند وصوله إليها عبد الله بن يُخْلِف الكُتامي فلم تزل بيده إلى أن توفي المعز. ثم سلمها ابنه نزار إلى يوسف هي وسُرْت وما والاهما في سنة سبع وستين وثلاثمائة، بسؤال يوسف لذلك.

قال: ولما ولّى المعز يوسفَ، ولّى أيضًا أبا مضر زيادة الله بن عبيد الله بن القديم نظر الدواوين بسائر كور إفريقية. وقال ليوسف عند وداعه: «إني تركت زيادة الله بن القديم عونًا لك على جميع الأموال بإفريقية، كَبِّره». وأوصاه وصايا كثيرة كان آخرها أن قال له: «يا يوسف، إنْ نسيتَ مما أوصيتك به فلا تنسَ ثلاثة أشياء: لا ترفع الجباية عن أهل البلاد، ولا ترفع السيف عن البربر، ولا تولِّ أحدًا من إخوتك فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك، واستوصِ بأبي مضر خيرًا».

ثم ودّعه يوسف ورجع. فكان دخوله إلى المنصورية في يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وستين وثلاثمائة. فنزل بقصر السلطان وخرج إليه أهل القيروان وتلقوه، وأظهروا الفرح بمقدمه والبشر والسرور. فأخرج العمال وجباة الأموال إلى سائر البلدان، وعقد الولايات للعمال. فاستقامت الأمور بحسن تدبيره.

ولما رتب ذلك كله رحل إلى المغرب في شعبان من السنة. فوصل إلى باغاية فولّى عليها عاملاً، وأمره أن يلطف بأهلها. ففعل. فدخلوا في الطاعة. ثم خالفوا فقاتلهم العامل، فتحصنوا بمدينتهم. فهمّ يوسف أن يرجع إليهم، فوافاه رسول خَلوف بن محمد عامله على تيهرت يذكر أن أهلها خالفوا. فسار إليهم وقاتلهم. ودخل البلد بالسيف في شهر رمضان، فقتل وسبى ونهب وأحرق البلد.

وأراد الرجوع إلى باغاية، فأتاه الخبر أن زناتة قد نزلوا على تلمسان[١]. فرحل

(١) تلمسان: بكسرتين، وسكون الميم، وسين مهملة: هما مدينتان متجاورتان مسوّرتان، بينهما رمية حجر، إحداهما قديمة والأخرى حديثة، والحديثة اختطها الملثمون ملوك المغرب واسمها تافرزت... (معجم البلدان).

إليهم فهربوا بين يديه. فحصر تلمسان مدة فنزلوا على حكمه. فعفا عنهم من القتل، ونقلهم إلى آشير، فبنوا بقربها مدينة سموها بلنسان.

ذكر ولاية عبد الله بن محمد الكاتب

كان سبب ولايته أن يوسف كان قد ولّى جعفر بن يموت مدينة القيروان وصَبْرة، وجعل معه خيلاً كثيرة، عند مسيره إلى بلاد المغرب في شهر ربيع الأول. فمات في جُمادى الآخرة. فكتب ابن القديم إلى أبي الفتوح بموته، ويسأله أن يرسل إليه بدلاً منه يعاونه على أمور البلد. فاستعمل عبد الله على ذلك. فأبى عليه وامتنع واستعفى مرة بعد أخرى. فجمع يوسف حبوس بن زيري، وكرامة بن إبراهيم، وكبّاب بن زيري، وخلوف بن أبي محمد. وأحضر عبد الله وقال لأولئك: «ما جزاء من عاند أمري، وخالف رأيي ومرادي، ولم يعبأ بما كلفته؟» قالوا: «القتل، ونحن نتولّى قتله». فقال: «كاتبي هذا أمرته بالرجوع إلى إفريقية إذ لا ينوب عني أحد غيره فامتنع» فقالوا له: «إن لم ترجع وإلا قتلناك» فرجع كارهًا. وعبد الله هذا من بني الأغلب، كان أبوه محمد قد هرب إلى نفزاوة[1] فولد بها عبد الله. فربّاه خاله صالح وتعلّم الخط والترسُّل. فاستكتبه زيري وهو صبي شاب. ثم استكتبه بعده أبو الفتوح، فحظي عنده. وكان فصيحًا بليغًا، عالمًا بلغة العرب ولسان البربر.

قال: فلما وصل عبد الله إلى القيروان، تلقاه ابن القديم. وترجّل كل منهما لصاحبه، وتعانقا، واتفقا وصارت كلمتهما واحدة. ثم وقع بينهما بعد ذلك، وكانت فتنة عظيمة بالقيروان يطول شرحها، انتصر فيها عبد الله وقبض على ابن القديم، وأرسله إلى الأمير أبي الفتوح، فحبسه حتى مات.

وكانت ولاية ابن القديم سنتين وشهرًا ونصفًا. ثم توفي في الاعتقال يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة خلت من جُمادى الأولى سنة ست وستين وثلاثمائة. واستقل عبد الله بن محمد الكاتب وحده لثمان مضين من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين وثلاثمائة.

ذكر أخبار خلف بن خير

قال: وفي سنة أربع وستين وثلاثمائة صعد خلف بن خير من بني هراش إلى قلعة منيعة من ناحية بلده. واجتمع إليه خَلْق عظيم من سائر قبائل البربر. وخرج إليه

---

(١) نفزاوة: بالكسر ثم السكون، وزاي، وبعد الألف واو مفتوحة: مدينة من أعمال إفريقية...

كل من كان قد خالف مع ابن القديم. فكتب عبد الله إلى أبي الفتوح كتابًا يذكر فيه أن إفريقية قد استوت كلها له، وأنه لا خوف بها إلا من الذين اجتمعوا مع ابن خير في القلعة. فرحل يوسف إلى القلعة ونازلها، في عساكر عظيمة. فظفر بها في اليوم الرابع من منازلتها، وهرب خلف، وقتل في القلعة ما لا يحصى. وبعث منها سبعة آلاف رأس طوفها عبد الله في القيروان ثم بُعثت إلى مصر. ونفي أكثر ممن قتل. وغنم جميع ما فيها. وسار خلف بن خير إلى بلد كتامة. فبعث إليهم يوسف يقول: «برئت الذمة ممن دفع عنه وآواه، ومن فعل جازيته» فأخذه القوم الذين انتهى إليهم ومعه ابنه وأخوه وخمسة من بني عمه، وأتوا بهم إلى يوسف. فأحسن صلة من جاء بهم. وبعثهم إلى عبد الله الكاتب وأمره أن يشهرهم ويطوف بهم على الجمال. ففعل ذلك بهم ثم صلبهم وضرب أعناقهم، وبعث برؤوسهم إلى مصر.

قال: ولما فتح أبو الفتوح هذه القلعة، اختار من عبيدهم أربعة آلاف من الشجعان فشحّ بقتلهم لشجاعتهم وقربهم، وأراد أن يجعلهم في جملة عبيده. فاتفق أن أحدهم سأل عن أبي الفتوح وقال: «عندي نصيحة». فأشاروا إليه إلى ابن عم لأبي الفتوح ولا يشك الذي أشار إليه أنه هو. فأتاه وقال له: «إني أريد أن أخبرك بنصيحة» فلما دنا منه، ضربه بسكين كانت معه فشقّ بطنه وأخرج أمعاءه فسقط من ساعته ميتًا. وكان ذلك الغلام لرجل ممن قتله أبو الفتوح في تلك القلعة. فعندها أمر بقتل أولئك فقُتلوا في ساعة واحدة.

ثم بعث عشرة من أهل القيروان إلى باغاية يحذرهم المخالفة ويطلب منهم النزول على حكمه، وإلا فعل بهم ما فعل بأهل القلعة فأجابوه إلى الطاعة ونزلوا على حكمه. فحكم أن يسلموا إليه المدينة ويمضوا حيث شاؤوا. ففعلوا ذلك ووفَى لهم. وأخرب المدينة القديمة التي عليها السور، وترك الربض[1] ثم أتى إفريقية.

وأتاه الخبر بوفاة المعز لدين الله وولاية ابنه نزار بن معد فكتب إليه يوسف في سنة سبع وستين، يسأله في طرابلس وسُرْت وأَجْدابِيَة[2]، فأجابه ودفع ذلك إليه.

---

(١) الربض: كل ما تأوي إليه وتستريح لديه من أم وزوج وبنت وقرابة بيت وغيره.

(٢) أجدابية: بالفتح، ثم السكون، ودال مهملة، وبعد الألف باء موحدة، وياء خفيفة، وهاء: هو بلد بين برقة وطرابلس الغرب، بينه وبين زويلة نحو شهر سيرًا، على ما قاله ابن حوقل... (معجم ياقوت).

وفي سنة تسع وستين، رحل أبو الفتوح إلى فاس[١]، وسِجِلماسة وأرض الهبط. فملك ذلك كله وطرد منه عمال بني أمية.

ثم بعث إلى سبتة[٢] في طلب من لجأ إليها من زناتة. فلقي فيما قرب منها جبالاً شامخة وشعارى غامضة فأمر بقطعها وإطلاق النيران فيها حتى وجد العسكر فيها مسلكًا. وأمر عساكره بالوقوف. ومضى هو بنفسه وخواص أصحابه حتى أشرف على سبتة من جبل عال مُطل عليها. فخاف أهل سبتة منه وغلقوا أبوابهم. فنظر إليها ورأى منعتها، فعلم أنه لا يستطيعها إلا بالمراكب، فرجع عنها.

ومضى يريد البصرة، بصرة المغرب. فلما علمت به زناتة رحلوا بأجمعهم إلى الرمال والصحاري هاربين منه. ودخل البصرة وكانت قد عمرت عمارة عظيمة مع بني الأغلب. فأمر بنهبها وهدمها، فهُدِّمت وحرقت.

ورحل بعساكره إلى بلد برغَواطَة، وكان ملكهم عيسى بن أبي الأنصار شَعْوَذيًا ساحرًا، فسحر من عقولهم حتى جعلوه نبيًا وأطاعوه في كل ما أمرهم به، وشرع لهم شريعة، وأتاهم بغير دين الإسلام. فاتبعوه فضَلّ وأضلّهم. فغزاهم أبو الفتوح، وكانت بينهم حرب شديدة لم ير مثلها، كان الظفر للمسلمين. وقُتل عيسى الكافر وتفرقت عساكره، فقُتلوا قتلاً ذريعًا. وسبى من نسائهم وذراريهم ما لا يُحصَى كثرة، وأرسل بسبيهم إلى إفريقية.

ورجع أبو الفتوح وملك فاس وسجلماسة وبلد الهبط والبصرة وجميع بلدان المغرب. وأقام في تلك النواحي من سنة تسع وستين وثلاثمائة إلى سنة ثلاث وسبعين.

ذكر وفاة أبي الفتوح يوسف

كانت وفاته رحمه الله في يوم الأحد لسبع بقين من ذي القعدة سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة، عند قفوله من برغواطَة وقد فصل من سجلماسة، بموضع يقال له

---

(١) فاس: بالسين المهملة: مدينة مشهورة كبيرة على برّ المغرب من بلاد البربر، وهي حاضرة البحر وأجل مدنه قبل أن تختط مراكش، وفاس مختطة بين ثنيتين عظيمتين وقد تصاعدت العمارة في جنبيها على الجبل حتى بلغت مستواها من رأسه... (معجم البلدان).

(٢) سبتة: هي بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ومرساها أجود مرسى على البحر.

وارِكنين، ويقال فيه وارَكْلان، بعلة القُولَنْج[١]، وقيل بحَبة خرجت في يده فمات منها.

حكى الشيخ أبو محمد[٢] بن حزم في كتابه المترجم «بنَقْط العَروس» «أن بُلُكِّين بن زِيري كان له في موضع ألف امرأة لا يحل له نكاح واحدة منهن، كلهن من نسل إخوته وأخواته، ومن الرجال مثل هذا العدد.

قال: وكان له قبل أن يستخلفه المعز لدين الله على المغرب قصور تشتمل على أربعمائة جارية، فيقال: إن البشارات تواترت عليه في يوم واحد بولادة سبعة عشر ولدًا.

وكانت مدة إمارته منذ تسلم المغرب من المعز لدين الله ثنتي عشرة سنة، ومنذ قام بالأمر بعد أبيه ثلاث عشرة سنة وشهورًا. ولما مات قام بالأمر بعده ابنه المنصور أبو الفتح.

ذكر ولاية أبي الفتح المنصور ابن يوسف بلكين بن زيري

قال: ولما توفي يوسف، أسند وصيته إلى أبي زعبل بن مسلم، وكان من جملة عبيده وخاصة قواده. فكتب إلى المنصور يعرفه بوفاة أبيه، وكان المنصور إذ ذاك بآشير. فاستقل بالأمر بعد أبيه. وأتاه عبد الله بن محمد الكاتب ومشايخ القيروان والقضاة وأصحاب الخراج؛ فعزوه بأبيه وهنّؤوه بالولاية، فأكرمهم وعظمهم وأحسن جوائزهم وأعطاهم عشرة آلاف دينار. فدعوا له وشكروه. فقال لهم: «إن أبي وجدّي أخذا الناس بالسيف قهرًا، وأنا لا آخذ الناس إلا بالإحسان. ولستُ ممنْ يُوَلَّى ولا يُعزَل بكتاب. ولا أحْمَدُ في هذا الملك إلا الله ويدي. وهذا الملك ما زال في يد

---

(١) القولنج: يوناني معناه وجع الأمعاء وهو في الحقيقة مغص قوي مشتد النخس يقال لنوع منه إيلاوس يقيء الأبراز ويخيل أنه يثقب الجنب ويفارق المغص بالثقل وعموم الظهر والجنب ووجع الكلى كذلك أيضًا مع ابتدائه من الأيسر وذلك بالعكس، وبالجملة فكل مرض يشتبه به كوجع الكبد والرحم يخص موضعه بخلاف القولنج... (تذكرة داود الأنطاكي).

(٢) هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد، مولى يزيد بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس الأموي... كان حافظًا عالمًا بعلوم الحديث وفقهه، مستنبطًا للأحكام من الكتاب والسنّة بعد أن كان شافعي المذهب، فانتقل إلى مذهب أهل الظاهر، وكان متفننًا في علوم جمة... (وفيات الأعيان ٣: ٣٢٥).

آبائي وأجدادي ورثناه عن حمْير».. وكلام كثير في هذا المعنى. ثم قال لهم: «انصرفوا في حفظ الله فإن قلوب أهليكم مشغولة بكم» فانصرفوا.

وقدم المنصور إلى رقادة[١] في يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رجب سنة أربع وسبعين وثلاثمائة. فتلقاه عبد الله الكاتب ووجوه الناس. فأظهر لهم الخير ووعدهم بكل جميل. وأتاه العمال من كل بلد بالهدايا والأموال. وأهدى إليه عبد الله ما لا يحيط به الوصف. فجهز المنصور هدية إلى نزار بلغت قيمتها ألف ألف دينار.

وأقام برقادة إلى يوم الأربعاء لثلاث بقين من ذي الحجة من السنة. ورجع إلى المغرب ومعه عبد الله الكاتب. واستخلف عبد الله ابنه يوسف على القيروان، فسار أحسن سيرة.

وفي هذه السنة، أعطى المنصور أخاه يَطُّوفت العساكر والعُدَد ووجهه إلى فاس وسجلماسة يطلب ردهما، وكانت زناتة قد ملكت تلك البلاد بعد موت أبي الفتوح. فمضى حتى وصل إلى قرب فاس وبها زيري بن عطية الزناتي المعروف بالقرطاس، ومعه عساكر زناتة. فعاجله زيري والتقوا واقتتلوا. فانهزم يطُّوفت وجميع مَن معه. وتبعه زيري فقتل من عسكره خلقًا عظيمًا وأسر وهرب من سلم إلى تيهرت. فلما بلغ المنصور هزيمة يطُّوفت، أرسل أخاه عبد الله بعسكر يلقاه به ثم وصل يطُّوفت إلى آشير. فلم يتعرض المنصور بعدها لشيء من بلد زناتة.

وفي سنة ست وسبعين، أخذ يوسف بن عبد الله بن محمد الكاتب في بناء قصر المنصور. فبلغ الإنفاق عليه ثمانمائة ألف دينار ثم عمل عليه وعلى قصر بجواره كان بناه قديمًا شفيع الصقلبي صاحب المظلة سورًا محدقًا عليهما. وغُرست حوله الأشجار من كل جهة.

وفي سنة سبع وسبعين، وصل المنصور من آشير إلى إفريقية في يوم الاثنين منتصف المحرم، ونزل في قصره الذي بُني له. ونزل عبد الله الكاتب وجميع القواد حوله.

---

(١) رقادة: بلدة كانت بإفريقية بينها وبين القيروان أربعة أيام، وكان دورها أربعة وعشرون ألف ذراع وأربعين ذراعًا، وأكثرها بساتين، ولم يكن بإفريقية أطيب هواء ولا أعدل نسيمًا وأرقّ تربة منها... (معجم البلدان).

ووصل كتاب السلطان نِزار إلى المنصور يُعلمه أنه جعل الدعوة لعبد الله بن محمد الكاتب، ويأمره بذلك. ففعل المنصور ذلك وأمر أن يُفرَش له قصر السلطان في الموضع المعروف بقصر الحجر[١]، وذلك في يوم الاثنين لسبع خلون من جُمادى الآخرة منها. وجلس فيه المنصور وأقرباؤه ووجوه بني عمه. ثم دخل عبد الله فأخذ عليهم الدعوة، وصار عبد الله داعيًا. فذُكر أنه لما تمّ هذا له مسح بيده على رأسه وقال: «الآن قد خلصت من القتل وأمنت على شعري وبَشَري». وما علم أن ذلك سبب هلاكه.

ذكر مقتل عبد الله بن محمد وولده يوسف

قال: كان عبد الله قد بلغ مبلغًا عظيمًا لم يبلغه أحد من قرابة المنصور وأهل دولته، وانحصرت أمور المنصور كلها تحت قبضته. وأعطى الرياسة حقها ووثق بما قدم من نصحه. فرفع فيه حسن ابن خاله إلى المنصور أمورًا من القدح في دولته، وأنه كاتَب ابن كلِّس وزير نزار، واختلفت بينهم السفراء، وعقد الغدر بالمنصور. فوجد المنصور لذلك. وكان عبد الله لا يداري أحدًا من أولاد زيري ووجوه بني مناد وغيرهم من أكابر الدولة. فلما أحسوا من المنصور بعض الأمر وشوا بعبد الله وطعنوا عليه.

فاستراب المنصور به وأراد إبقاءه مع التحرُّز منه، فقال له: «اعتزِلْ عمل إفريقية واقتصر على الخاتم والكتابة، وكل من تولّى فهو متصرف تحت أمرك ونهيك». فكان جوابه أن قال: «القتلة ولا العزلة» فلما كان يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر رجب سنة سبع وسبعين وثلاثمائة، ركب المنصور فركب عبد الله وهو يقول: [من الطويل]

ومن يأمنِ الدنيا يكن مثلَ قابضٍ على الماء خانتْه فروجُ الأصابعِ[٢]

فلما نزل المنصور، نزل عبد الله فقبّل يده. ثم وقف ودار بينهما كلام كثير لم يقف أحد على صحته. فطعنه المنصور برمحه. فجعل أكمامه على وجهه وقال: «على ملّة الله وملّة رسوله». ولم يُسمع منه غير ذلك. وطعنه عبد الله أخو المنصور

---

(١) الحجر: وصف ياقوت عدة مواضع يطلق عليها «الحجر» ولكنه لم يذكر موضعًا يعرف بقصر الحجر.

(٢) خروج الأصابع: فُتحاتها.

برمحه بين كتفيه فأخرجه من بين ثدييه. فسقط إلى الأرض. ثم أُتي بابنه يوسف. فصاح واستغاث وقال: «العفو» فضربه المنصور برمحه، وضربه ماكسن بن زيري، وضربه سائر من حضر فماتا جميعًا.

ولما قُتلا جاء القاضي وشيوخ القيروان واجتمعوا بالمنصور. فقال لهم «ما قتلت عبد الله على مال ولا شيء اغتنمه وإنما خفته على نفسي فقتلته» فدعوا له بطول البقاء ثم انصرفوا. ودفن عبد الله ابنه بغير غسل ولا كفن وإنما رُدّ عليهما التراب في إسطبل كان للمنصور تحت الحنايا بالقرب من قصره.

قال: وولّى المنصور بعده إفريقية يوسف بن أبي محمد، وكان على قَفصَة[(١)] فأتى يوم الخميس لخمس خلون من شعبان. فأعطاه المنصور الطبول والبنود، وخلع عليه ثيابه وأنزله في دار القائد جوهر. فولّي إلى سنة اثنتين وثمانين: ثم عزله يوم الأحد لسبع بقين من شهر ربيع الأول، وولّى أبا عبد الله محمد بن أبي العرب الكاتب.

ذكر أخبار أبي الفهم حسن بن نصرويه الخرساني

كان أبو الفهم رجلاً خراسانيًا قدم في سنة ست وسبعين وثلاثمائة من مصر من قبَل نزار داعيًا. فأنزله يوسف بن عبد الله وأجرى عليه جرايات جليلة. وأعطاه أموالاً سَنية وبره وأكرمه. فطلب أبو الفهم الخروج إلى بلد كتامة[(٢)] يدعوهم وينتهي إلى ما أمره به نزار ووجهه إليه، فكاتب يوسف أباه. فكتب إليه عبد الله أن أعْطه ما أراد واتركه يذهب حيث يشاء. فأعطاه يوسف ما طلب، وحمله على أفراس بسروج محلاة، وحمل بين يديه تُخوت ثياب وبِدَر[(٣)] دراهم.

وتوجه إلى بلد كتامة فوصل إليهم ودعاهم. ثم تزايدت أموره حتى صار يجمع العساكر ويركب الخيل. وعمل بنودًا وضرب سكة واجتمع إليه خلق كثير من كتامة، وكان هذا من الأسباب التي حقدها المنصور على عبد الله وابنه.

---

(١) قفصة: بالفتح ثم السكون، وصاد مهملة: هي بلدة صغيرة في طرف إفريقية من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير بالجريد بينها وبين القيروان ثلاثة أيام مختطة في أرض سبخة لا تنبت إلا الأشنان والشيح... (معجم ياقوت).

(٢) بنو كتامة: هم بطن من البرانس من البربر... وقال الطبري: هم من حمير وليسوا من قبائل البربر، خلفهم إفريقي الذي تنسب إليه إفريقية... (نهاية الأرب للقلقشندي).

(٣) بدر: جمع البدرة، وهي كيس فيه مقدار من المال يتعامل به، ويقدم في العطايا، ويختلف باختلاف العهود.

ثم ورد من مصر رسولان من نزار إلى المنصور في سنة سبع وسبعين أحدهما رجل كتامي يعرف بأبي العزم، ورجل من عبيدهم يقال له محمد بن ميمون الوزان، ومعهما سجلات إلى المنصور. فقيل: إنهما أمراه عن نزار ألا يعرض لأبي الفهم ولا لكتامة. فشتمهما المنصور وأسمعهما مكروهًا وقال: «أبو الفهم وكتامة فعلوا وفعلوا» وأغلظ لهما في القول ولمن أرسلهما.

فأقاما عنده شعبان وشهر رمضان. ومنعهما من الخروج إلى كتامة وأبي الفهم. وقال: «امضيا معي إليه حتى تريا ما يكون منه» ثم تهيأ المنصور للخروج إلى كتامة وأبي الفهم، وقد تفاقم أمره، وظهرت سكته، وصار حوله جيوش عظيمة. فسار المنصور حتى وصل إلى بلاد كتامة. وتثاقل في سيره حتى دخلت سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة. فلما قرب من ميلة عزم على قتل أهلها، فخرج إليه النساء والأطفال. فلما رآهم بكى وكفّ عنهم القتل. ونهبت العساكر كُلَّ ما فيها. وأمر بهدم سورها فهُدم. ونقل أهلها إلى باغاية، فاجتمعوا ومضوا إليها وقد سلم لبعضهم ما خفّ من عيْن ووَرِق[1] وغير ذلك. فلقيهم ماكسن بن زيري بعسكره فأخذ كل ما كان معهم.

ثم رحل المنصور إلى داخل بلد كتامة، فجعل لا يمر للكتاميين بمنزل ولا قصر ولا دار إلا أمر بهدم ذلك وتحريقه بالنار، ومعه أبو العزم وابن ميمون ينظران إلى فعله، ويقول لهما: «هؤلاء الذين زعمتما أنهم يمضون بي بحبل في عنقي إلى مولاكما» وكانا قد خاطباه بذلك لما اجتمعا به.

وسار حتى بلغ مدينة سَطيف وبها جَمْعهم. فحاربهم وظفر بهم وهزمهم. وهرب أبو الفهم إلى جبل وعر. فأرسل إليه المنصور من أخذه وجاء به إليه. فأدخله إلى حُرَمه فضربنه ضربًا شديدًا حتى أشرف على الموت. ثم أمر المنصور بإخراجه وقد بقيت فيه حشاشة من الروح[2] فنحره وشقّ بطنه. وأُخرجت كبده فشُويت وأُكلت. وشرّح عبيد المنصور لحمه وأكلوه حتى لم يبقَ إلا عظامه. وذلك في يوم الثلاثاء لثلاث خلون من صفر سنة ثمان وسبعين. وقتل جماعة من وجوه كتامة، وأنزل بهم الذلّ والهوان. وولّى بلدهم أبا زعبل بن مسلم وأولاده. وبقيت ميلة خرابًا ثم عمّرت بعد ذلك.

---

(١) العين: الذّهب والفضة المضروبان، والورِق: الفضّة.

(٢) الحشاشة: البقيّة من الروح.

ودخل المنصور إلى آشير. وردّ أبا العزم وابن الوزان إلى مصر ليخبرا من أرسلهما. فأخبراه بما كان منه. وقالا: «أتينا من عند شياطين يأكلون بني آدم، ليسوا من البشر في شيء».

وفي سنة تسع وسبعين وثلاثمائة، ثار ثائر آخر ببلد كتامة، يقال له أبو الفرج. وقيل: إنه كان يهوديًا. وقال لكتامة: إنه من أولاد الأمراء الذين كانوا بالمهدية، وإن أباه كان من ولد القائم. فانضموا إليه وكثرت جموعه، واتخذ البنود والطبول. وزحف إلى عسكر أبي زعبل وقاتَلَه فلم يقم بحربه. فكتب إلى المنصور فقدم بعساكره. والتقوا واقتتلوا، فهزمهم المنصور وقتل من كتامة مقتلة عظيمة. وهرب أبو الفرج واختفى في غار في جبل. فعمل عليه غلامان كانا له. فأخذاه وأتيا به إلى أبي زعبل. فأتى به إلى المنصور فقتله شرّ قتلة. وشحن بلد كتامة بالعمال والعساكر ورجع إلى آشير.

ذكر وفاة المنصور أبي الفتح بن يوسف

كانت وفاته في يوم الخميس لثلاث خلون من شهر ربيع الأول سنة ست وثمانين وثلاثمائة. فكانت مدة ملكه ثنتي عشرة سنة وشهرين وعشرة أيام. وكان ملكًا كريمًا جوادًا صارمًا. وكانت أيامه أحسن أيام وأطيبها. وما زال مظفَّرًا منصورًا لا تُرَدّ له راية.

ذكر ولاية أبي مناد باديس بن أبي الفتح المنصور بن يوسف

قال: ولما مات المنصور قام بالأمر بعده بإفريقية ولده أبو مناد، وكان مولده في ليلة الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة أربع وسبعين وثلاثمائة. فلما صار الأمر إليه رحل إلى سردانية يوم الأربعاء لأربع عشرة بقيت من شهر ربيع الأول سنة ست وثمانين وثلاثمائة، ونزل في قصرها. وأتاه الناس من كل ناحية بإفريقية للتهنئة والتعزية. وأقام بسردانية أيامًا ثم رجع إلى قصره. وتوفي بعد ولايته الأمير نزار وولّى بعده ابنه الحاكم بأمر الله.

ذكر ولاية حماد بن يوسف مدينة آشير

قال: وفي صفر سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، عقد أبو مناد ولاية آشير لعمه حماد بن يوسف بن زيري، وأعطاه خيلاً كثيرة وكُسا. ثم اتسعت أعماله وعَظُم شأنه وكثرت عساكره، واجتمعت أمواله.

وفي يوم الثلاثاء لسبع بقين من شهر ربيع الآخر سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، وصل من مصر الشريف الداعي علي بن عبد الله العلوي المعروف بالتِّيْهَرتي[١]. وكان أبو مناد بعث في حشد عساكره وأجناده، فلم يبق بإفريقية وأعمالها فارس ولا راجل إلا وصل إلى المنصورية. فنزل أبو مناد بهم إليه في هذا اليوم، فكانوا صفوفًا من باب قصر السلطان بالمنصورية إلى باب قلشانة[٢]. فرأى الداعي من العساكر والعُدد ما لم ير مثله. وأتى بسجلين قُرئا على منبر المنصورية والقيروان: أحدهما بولاية أبي مناد باديس، وتلقيبه نصير الدولة؛ والثاني بوفاة نزار، وولاية ابنه الحاكم، والجواب عن وفاة المنصور والعزاء عن نزار وعن المنصور. وكان معه سجل ثالث بأخذ البيعة على باديس وجماعة بني مناد للحاكم. فأنزل الشريف بدار الأمير يوسف بجوار قصر السلطان. ثم جلس باديس بعد ذلك وأحضر الشريف. ودعا بني مناد وسائر قبائل صنْهاجة[٣] وأخذ عليهم البيعة. ثم كان الشريف يجلس في الدار التي نزل فيها، ويأخذ البيعة على كل من أتاه من الصنهاجيين وغيرهم. ثم وصله أبو مناد بمال جليل وتخوت ثياب وبراذين بسروج محلاة، وصرفه إلى مصر. ثم جهز هدية بعده.

ذكر خروج محمد بن أبي العرب إلى زناتة

قال: وفي سنة تسع وثمانين وثلاثمائة، وصل كتاب يَطُّوفَت بن يوسف بن زيري إلى ابن أخيه أبي مناد يعرفه أن زيري بن عطية الزناتي قد نزل عليه بتيهرت، وسأله أن يمده بالعساكر. فأمر باديس محمد بن أبي العرب بالخروج فنهض بالعساكر الثقيلة حتى بلغ آشير فأقام بها أيامًا يسيرة. ثم رحل ورحل معه حماد بن يوسف عاملها بعساكر عظيمة حتى وصلا إلى تيهرت. فاجتمعا بيطوفت في غرة جُمادى الأولى من السنة. وكان زيري بن عطية بموضع يقال له أمسان على مرحلتين من تيهرت فزحفوا إليه واقتتلوا قتالاً شديدًا. وكان معظم جيش حماد التُّلُكَّاتيين[٤]، وقد أساء عشرتهم، وكلف بأمورهم غلامه خلفًا الجِيزي فسامهم الخسف. فلما حمي

---

(١) التيهرتي: نسبة إلى تيهرت، وهو اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب.

(٢) قلشانة: بالفتح ثم السكون، وشين معجمة، وبعد الألف نون: مدينة بإفريقية أو ما يقاربها.

(٣) صنهاجة: بطن من البرانس من البربر. مساكنهم بلاد المغرب. . . ويقال: إنهم من حمير من عرب اليمن وليسوا من البربر. قاله الطبري، والمسعودي، وعبد العزيز الجرجاني، وابن الكلبي، والبيهقي. وحكى ابن حزم أن صنهاج إنما هو ابن ارمأة اسمها أداس، وليس له أب معروف. . . (نهاية الأرب للقلقشندي).

(٤) نسبة إلى تلكات: وهي إحدى بطون صنهاجة.

الوطيس واشتد البأس ولّوا منهزمين، واتبعهم الناس. فكانت الهزيمة على الجميع. ورام محمد ردّ الناس فلم يقدر على ذلك. ووصلوا إلى آشير، وقد أسلموا عساكرهم وما فيها من بيوت الأموال وخزائن السلاح والمضارب وغير ذلك فاحتوى زيري على جميع ذلك وأمر ألا يُتَّبعوا. ووقف على باب تيهرت، فخرج إليه أهلها. فوعدهم الجميل وأطلق خلقًا كثيرًا ممن أُسر في المعركة أو لجأ إلى تيهرت، فمضوا حتى وصلوا إلى آشير. وكانت هذه الهزيمة يوم السبت لأربع خلون من جُمادى الأولى منها.

قال: وبلغ خبر الهزيمة الأمير باديس، فبرز بنفسه من رقادة للقاء زيري بن عطية، وذلك لليلتين خلتا من جُمادى الآخرة. فلما وصل إلى قرب طُبْنَة بعث في طلب فلفل بن سعيد بن خزرون. فخاف وأرسل يعتذر. وسأل أن يكتب له سجل بولاية طُبنة إلى أن يقدم باديس. فكتب له سجلاً بولايتها وبعث به إليه. وتمادى أبو مناد في مسيره. فلما علم فلفل أنه أبعد عنه أتى إلى طبنة فأكل ما حولها ونهب وأفسد. ومضى إلى تيجس وما والاها فنهبها. وتمادى إلى باغاية فحصرها أيامًا ثم رحل عنها، وباديس في هذا مستمر السير إلى آشير. فلما بلغ المسيلة، رحل زيري بن عطية عن آشير إلى تيهرت. فرحل إليها باديس. فلما بلغها توغل زيري هاربًا منه إلى داخل المغرب.

فعند ذلك ولّى أبو مناد على تيهرت وآشير عمه يطوفت. فاستخلف يطوفت على تيهرت ابنه أيوبًا وتركه في أربعة آلاف فارس.

ثم رجع باديس إلى آشير وعمه يطوفت معه. فبلغه ما فعل فلفل بن سعيد. فأرسل إليه أبا زعبل وجعفر بن حبيب ومحمد بن حسن في عسكر.

ثم رحل بعدهم من آشير، وبقي يطوفت ومعه أولاد زيري وقد سألوا باديس أن يتركهم أعوانًا ليطوفت. فأبى ذلك وقال: «لا بد من رحيلكم معي» فقالوا: «لنا أمور نقضيها ونلحق بك» فتركهم على هذا ورحل ومعه أبو البهار بن زيري حتى وصل إلى المسيلة، فعيَّد بها عيد الفطر. فبينا هو في صلاة العيد، إذ وصل إلى أبي البهار رسول أخبره أن إخوته ماكسن وزاوي ومَغنِين وعَرْما نافقوا بآشير، وقبضُوا على يَطوفت، وأنه أفلت منهم بحيلة بعد أن عزموا على قتله. فخاف أبو البهار أن يصل يطوفت إلى باديس فيتهمه بمباطنة إخوته، فهرب لوقته. وطُلِب فلم يُدرَك. فلقي يطوفت في طريقه فعرّفه ما كان من إخوته، فحلف أنه لم يعاقدهم على ذلك، وأنه إنما هرب خوفًا على نفسه. وفارقه والتحق بإخوته. وسار يطوفت حتى لحق بابن

أخيه الأمير باديس وهو بالمسيلة. فرحل إلى إفريقية، فاتصل به أن فلفل بن سعيد قتل أبا زعبل، وهزم أصحابه، وأسر حميد بن أبي زعبل فمثَّل به ثم قتله، وأن فلفلاً تمادى إلى القيروان. فرحل باديس إلى باغاية فوصل إليها لإحدى عشرة بقيت من شوال. فأقام بها بقية الشهر. ورحل في غرة ذي القعدة حتى وصل إلى مرمجنة.

فلما صار إلى بني سعيد، زحف إليه فلفل في يوم الخميس لست خلون من ذي القعدة. فلم يلقه باديس ولم يلتفت إليه. فلما كان يوم الاثنين، زحف فلفل إليه. فالتقيا بوادي اغلان[1]، فكانت بينهم من الحروب العظيمة ما لم يسمع بمثلها. وقد كان اجتمع لفلفل من قبائل البربر ما لا يحصى كثرة، وكذلك من زناتة، وكلهم أصحاب خسائف. فثبتت صنهاجة بين يدي باديس. وظهر منه في ذلك اليوم ما قرّت به أعينهم. ثم أجْلت الحرب عن هزيمة زناتة والبربر هزيمة فاحشة. وهرب فلفل واتبعته صنهاجة والعبيد حتى حال بينهم الليل. ورحل باديس من الغد فنزل في مناخ فلفل. وقتل من زناتة في ذلك اليوم تسعة آلاف رجل سوى من قتل من البربر. ثم رحل باديس فوصل إلى المنصورية[2] في يوم الأربعاء لعشر بقين من ذي القعدة.

ثم وصل الخبر أن فلفل بن سعيد وأولاد زيري بن مناد عمومة والدباديس تصالحوا وتعاقدوا على قتال باديس. فلما تحقق ذلك خرج إلى رقادة سنة تسعين وثلاثمائة. ورحل حتى انتهى إلى قصر الإفريقي. فبلغه أن أولاد زيري رجعوا إلى المغرب خوفًا منه، وأنه ما بقي مع فلفل منهم سوى ماكسن وولده محسن فرجع باديس إلى المنصورية.

وفي سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة، دخل باديس إلى المغرب في طلب فلفل بن سعيد. فهرب منه إلى الرمال وافترق جمعه. فرجع باديس إلى إفريقية ومعه أبو البهار بن زيري عم أبيه، وكان قبل ذلك قد أتاه معتذرًا بأنه لم يدخل في شيء مما دخل فيه إخوته. فقبل عذره وطيّب قلبه. وأما فلفل بن سعيد فإنه سار إلى طرابلس، فقبله أهلها أحسن قبول، فاستوطن بها.

وفي سنة اثنتين وتسعين، وصل رسول ابن يوسف إلى ابن أخيه باديس، يذكر أنه زحف إليه عمه ماكسن وأولاده ومن معهم. فكانت بينهم وقعة شديدة فقُتل فيها ماكسن وأولاده محسن وباديس وحباسَة.

---

(١) وادي أغلان: لم نجد موضعًا بهذا الاسم فيما وصل إلينا من المظان.

(٢) في معجم ياقوت: المنصورة مدينة بقرب القيروان من نواحي إفريقية بناها المنصور بن القائم بن المهدي الخارج بالمغرب.

ثم توفي زيري بن عطية الزناتي بعد ذلك بتسعة أيام.

وفي سنة خمسة وتسعين، اشتد الغلاء بإفريقية وأعقبه وباء عظيم. وكان يُدفَن في اليوم الألف والأكثر والأقل.

وفي سنة أربعمائة مات فلفل بن سعيد الزناتي من علة أصابته. وولّى أخوه وَرُّو، فأطاعته زناتة. ثم سار باديس في عساكر عظيمة لقتال زناتة. فلقيه في بعض الطريق عبد الله وسواشي أولاد ينال التركي وأصحابهما. فعَرفوه أنهم لما علموا بخروجه أغلقوا أبواب طرابلس ومنعوا الزناتيين منها. فسُرّ بذلك ووصلهم وأحسن إليهم. وسار إلى طرابلس فتلقاه أهلها فدخلها. ثم جاءته رسل ورّو بن سعيد ومن معه من الزناتيين، يرغبون في الأمان، ويسألون أن يُجعَلوا عمالاً كسائر رجال الدولة. ووصل جماعة منهم، فأحسن إليهم، وأعطاهم نفزاوة على أنهم يرحلون عن أعمال طرابلس. وأعطى النُّعيم قَصْطيلية[1]. ورجع إلى المنصورية.

ثم تغير ورّو ومن معه وخلعوا الطاعة في سنة إحدى وأربعمائة، ورحلوا عن نفزاوة. ولم يتغير النّعيم. فأضاف باديس نفزاوة إلى النّعيم.

وفي سنة خمس وأربعمائة، وصلت رسل الحاكم بأمر الله إلى المنصورية، وهما عبد العزيز بن أبي كدية وأبو القاسم بن حسين، ومعهما خلع سنية، وسيف مكلّل، وسجل من الحاكم إلى المنصور بن باديس بولاية ما يتولاه أبوه في حياته وبعد وفاته، ولَقّبه عزيز الدولة. فقُرِىء السجل على الناس بالمنصورية والقيروان. وسُرَّ باديس به. وتقرب وجوه الدولة إلى المنصور بالهدايا الجليلة والأموال.

ذكر خلاف حماد بن يوسف وأخيه إبراهيم على ابن أخيهما الأمير باديس

قال: كان سبب ذلك أنه ـ لما وصل سجل الحاكم إلى المنصور بن باديس ولُقّب ـ أراد أبوه أن يقدمه ويرفع قدره، ويضيف إليه أعمالاً يستخدم له فيها أتباعه وصنائعه. وكانت قد اتصلت به عن حماد أمور أنكرها وأراد اختبار حقيقة ما هو عليه. فكتب إليه كتابًا لطيفًا يأمره فيه أن يسلم العمل الذي بيد أبي زعبل، وهو مدينة

(١) قسطيلية: (كما في معجم ياقوت): بالفتح ثم السكون، وكسر الطاء، وياء ساكنة، ولام مكسورة، وياء مخففة، وهاء: مدينة بالأندلس وهي حاضرة نحو كورة إلبيرة كثيرة الأشجار متدفقة الأنهار تشبه دمشق.

تيجس وقصر الإفريقي وقسطنطينة إلى خليفة ولده المنصور. ودعا باديس هاشم بن جعفر فخلع عليه وأعطاه الطبول والبنود. وأمره بالخروج إلى هذا العمل. فخرج بخزائن وعُدَد.

وبعث باديس إلى عمه إبراهيم بن يوسف يشاوره: من يمضي بالكتاب إلى حماد؟ فقال إبراهيم: «لا يجد سيدنا من عبيده أنصح له ولا أنهض بخدمته مني» وضمن ذلك وأكد على نفسه العهود والمواثيق تبرعًا منه. وذكر أنه لا يقيم في مضيه وعَوْده بإحكام هذا الأمر إلا أقل من عشرين يومًا. فأشار على باديس ثقاته أن يعتقل إبراهيم حتى يرى ما يكون من طاعة أخيه. فأبت نفسه ذلك، وقال له: «امض إلى أخيك يا عم. فإن كنت صادقًا فيما عقدته على نفسك ووفيت بعهدك، وإلا فاجعل يدك في يده وافعلا ما تقدران عليه وتستطيعانه».

فخرج إبراهيم بمال جملته أربعمائة ألف دينار عينًا وبجميع خزائنه وذخائره ورجاله وعبيده. وكان خروجه على تلك الحال من أدل الأشياء على نفاقه. وذلك لإحدى عشرة ليلة بقيت من شوال سنة خمس وأربعمائة. وصحبه هاشم بن جعفر، وقد أضمر إبراهيم الغدر إذا صار إلى الموضع الذي يدخل منه إلى عمل أخيه. فلما قرب منها ترك هاشمًا واعتذر إليه بأشغال له بباجة، وعدل إلى طريقها، ووعده أن يلحق به. ومضى إبراهيم حتى وصل إلى مدينة تامدنت[١] فكاتب أخاه حمادًا بالذي في نفسه. فوصل إليه في ثلاثين ألف فارس. فاجتمعت كلمتهما على خلع الطاعة وأظهرا النفاق.

فانتهى ذلك إلى باديس فرحل لخمس خلون من ذي الحجة منها. ونزل رقادة ووضع العطاء. ثم رحل بعد عيد الأضحى وكتب إلى هاشم بن جعفر أن يصعد إلى قلعة شقبانارية[٢] فيتحصن بها ففعل. فحاصره حماد وإبراهيم بها. ووقع بينهم قتال شديد فانهزم هاشم ومن معه إلى باجة. واحتوى حماد وإبراهيم على جميع ما كان معه من الأموال والخزائن والأثقال والخدم، ونجا هو بأولاده ووجوه أصحابه.

---

(١) تامدنت: بلد من بلاد المغرب شرقي لمطة، وقيل تامدلت باللام: مدينة في مضيق بين جبلين في سند وعر، ولها مزارع واسعة وحطة موصوفة من نواحي إفريقية، ولعلهما واحد، والله أعلم... (معجم البلدان).

(٢) شقبا نارية: بعد القاف باء موحدة، وبعد الألف نون، وبعد الألف الأخرى راء: أماكن بإفريقية... (معجم البلدان).

ورحل باديس حتى نزل بمكان يسمّى قبر الشهيد. فوصل إليه جماعة كثيرة من عسكر حماد. ثم ورد عليه كتاب من حماد على يد أبي مغنِين الوتلكاتي يذكر فيه أنه على الطاعة، وأنه كان قد هيأ هدية في جملتها ألفا برذون وغير ذلك لينفذها إلى المنصور، إلى أن وافاه إبراهيم واعتذر أعذارًا كثيرة، فخالفها ما يظهر من أفعاله. وذلك أنه أحرق الزرع، وسبى الذراري، وسفك الدماء. وتواترت أصحابه واصلين إلى باديس متنصلين من فعله.

ورحل باديس حتى صار بينه وبين حماد مرحلة واحدة، وقد بلغ عسكر حماد ثلاثين ألف فارس، غير من لحق بباديس وغير الراجل.

قال: وورد الخبر وهو بتامديت بوفاة ابنه المنصور بجُدَري أصابه فكتم أصحابه عنه ذلك. فبعث إليه إبراهيم يقول: «إن ولدك الذي طلبت له ما طلبت قد مات» فما تضعضع لذلك، وتلقاه بالصبر والشكر، وجلس للعزاء، وذلك لخمس خلون من صفر.

ثم سار ونزل بمدينة دَكْمَة[1]. وجاءه جماعة من أقارب حماد وخواصه ورجال دولته، وكتاب من قبل خلف الجيزي، وهو الوالي على مدينة آشير، وكان عند حماد أقرب من الولد لا يوازيه في رتبته أحد، يذكر أنه منع حمادًا من الدخول إلى مدينة آشير وأغلقها دونه. فكان ذلك أول الفتح وأعظم الظفر.

قال: فلما رأى حماد مخالفة خلف عليه مضى إلى تاهرت. ورحل باديس يوم الجمعة الثاني من شهر ربيع الأول. فنزل مدينة المحمدية وهي المسيلة. فأقام بها ستة أيام ثم زحف إلى القلعة. ورجع من غير قتال.

ثم أنفذ باديس أخاه كرامت إلى المدينة التي أحْدَثها حماد. فخرج إليها في عسكر كثير، فهدم قصورها ومساكنها جزاء لما فعله حماد وأخوه في البلاد. ولم يتعرض لأخذ مال ولا سفك دم. واتصل ذلك بإبراهيم، فأقبل يهدم كل قصر كان لأخيه خارجًا عن القلعة، مخافة أن يسبقه كرامت إليه. وهرب من القلعة جماعة إلى باديس وتركوا نساءهم وأولادهم وأموالهم. فأقبل إبراهيم يذبح الأولاد على صدور أمهاتهم، ويشقّ بطونهم. وفعل أفعالاً شنيعة.

قال: ورحل باديس إلى آشير ثم منها إلى وادي شَلَف. ونزل حماد في الجبهة الأخرى من الوادي. ورتب كل منهما عساكره وعبأها وتهيأ للحرب. والتقوا في يوم

---

(١) دكمة: بفتح أوله، وسكون ثانيه: بلدة بالمغرب من أعمال بني حماد. . . (معجم البلدان).

الأحد غرة جُمادى الأولى. وكان حماد قد أسند ظهره إلى جبل بني واطيل، وهو جبل منيع صعب المرتقى، وبينه وبين عسكر باديس الوادي، وهو واد عميق لا يطمع في تعديته لشدة توعره وعمق قعره وصعوبة انحداره وكثرة مائه. فلما رأى باديس ذلك حمل بفرسه واقتحم الوادي. فتبعته العساكر وعَدت الرجالة سباحة. فما كان إلا كرَجْع الطَّرف حتى صاروا في الجهة الأخرى مع عساكر حماد. ثم اصطفوا واقتتلوا واشتدّ القتال وكثر القتل. فانكشف حماد وتفرق أصحابه عنه بعد قتال شديد. فولّى منهزمًا لا يلوي على شيء، وقتل حُرَمه بيده. فوقف باديس عليهن وهن قتيلات. وخلص حماد فيمن ثبت معه من عبيده إلى قلعة مُغِيلة[1] في خمسمائة فرس. ولولا اشتغال الناس بالنهب لما فاتهم. وأصبح باديس فبعث في طلب حماد فسبقهم إلى القلعة. وأراد التحصن بها إن أدركته العساكر. ثم سار عنها إلى قلعته فوصل إليها لسبع مضين من جُمادى الأولى، واستعدّ للحصار.

وسار باديس إلى المحمدية فوصل إليها لليلتين بقيتا من الشهر. فأتاه رسول عمه إبراهيم بالاعتذار ويذكّر باديس بما سلف لحماد من الخدمة في دولته، وأنه هو الذي سدّ ثغور المغرب، وقام محاميًا عن هذه الدولة كقيام الحجاج بن يوسف بدولة بني أمية، واعترف بالخطأ. فردّ عليه باديس رسله بجواب. واختلفت الرسائل إليه منهما طلبًا للمدافعة. فأمر باديس بالبناء. وبذل لرجاله الأموال وأعطى الألفي دينار والخمسمائة. فاشتد ذلك على حماد، ورأى من رجاله ما أنكره، وضعفت نفسه. وغلت الأسعار عنده فجعل يكذب على من عنده، ويكتب كتبًا يذكر فيها أن باديس قد عزم على الرحيل إلى إفريقية، وأن كتبه تصل إليه في الصلح إلى غير ذلك مما يختلقه. وداوم باديس الحصار حتى مات.

ذكر وفاة باديس

كانت وفاته في ليلة الأربعاء آخر ذي القعدة سنة ست وأربعمائة وذلك أنه وصل إليه وهو في الحصار سليمان بن خلف بعساكر عظيمة، جمهورهم تلكاتة وصنهاجة، فضمن لباديس فتح القلعة وسائر بلاد المغرب. فلما كان يوم الثلاثاء لليلة بقيت من ذي القعدة، أمر باديس بالعرض، فعرضهم إلى الليل. ثم مات في نصف الليل. فخرج الخادم إلى حبيب بن أبي سعيد وباديس بن حمامة وأيوب بن يطُوفت ابن

(١) مغيلة: بضم أوله ثم الكسر: إقليم من أعمال شذونة بالأندلس فيه قلعة ورد في أرضه سعة... (معجم ياقوت).

عمه، وكان حبيب من أكبر رجاله، وبينه وبين باديس بن حمامة منافسة وعداوة. فلما أعلمه الخادم، خرج حبيب مسرعًا إلى فازة باديس، وخرج باديس مسرعًا إلى فازة حبيب. فاجتمعا في الطريق، فقال كل منهما لصاحبه: «بيننا عداوة ولا تبرح، والأولى بنا في هذا الوقت الموافقة والاجتماع في تدبير هذا المهم. فإذا انقضى رجعنا إلى ما كنا عليه». فحضرا ومعهما أيوب بن يطوفت وقالا: «إن صاحب هذا الأمر بعيد منا والعدو قريب مشرف علينا. ومتى لم نقدم رأسًا نرجع في أمورنا إليه لم نأمن العدو على أنفسنا. ونحن نعلم أن ميل تلكاتة وصنهاجة المغرب إلى كرامت بن المنصور أخي باديس» فاجتمع رأيهم على تولية كرامت ظاهرًا. فإذا وصلوا موضع الأمن قدم المعز بن باديس، وينقطع الخلاف، وتُصان بيوت الأموال والعُدد. فأحضروا كرامت وبايعوه وكتموا الأمر.

وأصبحت العساكر للسلام على ما جرت به العادة. ولم يعلم بوفاته سوى من ذكرناه. فأرادوا صرف الناس بأن يقولوا: إن الأمير قد أخذ دواء. فبينا هم في ذلك أتى الخبر أن أهل مدينة المحمدية قد شاع عندهم موت باديس، وأنهم أغلقوا أبواب المحمدية، وطلعوا على سورها. وكأنما نودي في الناس بوفاته. فاضطرب لموته بنو مناد وجميع القواد. وخافوا من الفرقة وشتّات الكلمة فأظهروا ولاية كرامت وأمر بالكتب إلى سائل الأعمال باسمه، ولم يذكر المعز بن باديس. فلما رأى عبيد باديس ومن كان على مثل رأيهم من الحشم والأجناد أنكروا ذلك إنكارًا شديدًا. فخلا حبيب بن أبي سعيد بأكابرهم وقال: «إنما رضيناه وقدمناه على أن يحوط الرجال، ويحرس الخزائن والأموال، حتى يسلم جميع ذلك إلى مستحقّه وهو المعز». ومشى بعضهم إلى بعض وتحالفوا على ذلك سرًا.

ثم اتفق رأي الجميع على تقديم كرامت في الخروج إلى أشير ليحشد قبائل تلكاتة وصنهاجة. فإذا اجتمعوا رجع بهم إلى المحمدية فيقطن بها، وترحل العساكر بتابوت باديس حتى يسلموه إلى ولده المعز. ودفعوا إلى كرامت مائة ألف دينار وخزانة سلاح وأمتعة. وتوجه إلى مدينة آشير يوم الأحد لأربع خلون من ذي الحجة سنة ست وأربعمائة. وكان من خبره ما نذكره إن شاء الله في أيام المعز.

وكانت مدة ولاية باديس عشرين سنة وتسعة أشهر إلا أربعة أيام. وعمره اثنان وثلاثون سنة وثمانية أشهر وأيام.

ذكر ولاية أبي تميم المعز بن أبي مناد باديس ابن المنصور بن يوسف بن زيري

كانت ولايته بالمحمدية يوم السبت لثلاث خلون من ذي الحجة سنة ست وأربعمائة على ما قدمناه، وله من العمر يوم ذاك ثمان سنين وسبعة أشهر. وأما ولايته بالمهدية فكانت يوم الاثنين لسبع بقين من ذي الحجة هذا. وذلك أن الخبر لما وصل بموت باديس، كانت السيدة أم ملاّل بالمهدية، فخرج إليها منصور بن رشيق عامل القيروان، بجماعة القضاة والفقهاء والمشايخ وشيوخ صنهاجة إلى المهدية فعَزَّوها. وأخرجت المعز وبين يديه الطبول والبنود. فنزل إليه الناس وهنّؤوه وعزّوه. وعاد إلى قصره. ودخل الناس على السيدة فهنؤوها. فأمرت منصور بن رشيق بالانصراف بمن كان معه فرجعوا إلى القيروان.

قال: وأما العسكر الذي بالمحمدية فإنهم ارتحلوا عن مناخها يوم عيد الأضحى بعد أن أضرموا النار فيما كان هناك من الأبنية. وسارت العساكر على تعبئة الزحف مقدمة وساقة وقلبًا، يقدُمها التابوت. وأمامه البنود والطبول والجنائب والقباب. وكان وصولهم إلى المنصورية يوم الاثنين لأربع خلون من المحرم سنة سبع وأربعمائة. ووصلوا إلى المحمدية لثمان خلون منه. فركب المعز وقام حبيب بن أبي سعيد عن يساره. ونزل الناس فوجًا فوجًا وحبيب يعرفه بهم قائدًا قائدًا وعرافة عرافة، وهو يسأل الناس عن أحوالهم ألطف سؤال. فرأى الناس من عقله وإقباله وفطنته ما ملأ قلوبهم وأقرّ عيونهم. وأقاموا يركبون إليه في كل غدوة وغشية ثلاثة أيام. ثم خرج المعز من المهدية وسار إلى القيروان. ودخل المنصورية يوم الجمعة النصف من المحرم سنة سبع وأربعمائة فسُرَّ به الناس وابتهجوا.

ذكر قتل الروافض

قال: وفي يوم السبت سادس عشر المحرم منها، ركب المعز في القيروان والناس يسلمون عليه ويدعون له فمرّ بجماعة فسأل عنهم فقيل: «هؤلاء رفضة والذين قبلهم سنة» فقال: «وأي شيء الرَّفَضة والسنة؟» قالوا: «السنة يترضَّون عن أبي بكر وعمر والرفضة يسبونهما» فقال: «رضي الله عن أبي بكر وعمر». فانصرفت العامة من فورها إلى الناحية المعروفة بدرب المقلى من مدينة القيروان ـ وهو موضع يشتمل على جماعة منهم ـ فقتلوا منهم جماعة، ووقع القتل فيهم. وصادفت شهوة من العسكريين وأتباعهم طمعًا في النّهب. وانبسطت أيدي العامة فيهم. فأقبل عامل القيروان يظهر أنه يسكّن الناس، وهو يحرضهم ويشير إليهم بزيادة الفتنة، لأنه كان قد أصلح البلد فبلغه

أنه معزول، فأراد إفساده. فقُتل من الرافضة خلق كثير في ديارهم وحوانيتهم، وأحرقوهم بالنار. وانتُهبت ديارهم وأموالهم. وزاد الأمر واتصل القتل فيهم في جميع بلاد إفريقية. وقيل: إن القتل وقع فيهم في جميع المغرب في يوم واحد في المدائن والقرى، فلم يُترَك رجل ولا امرأة ولا طفل إلا قُتل وأُحرق بالنار. ونجا من بقي منهم بالمهدية إلى الجامع الذي بالحصن، فقُتلوا فيه عن آخرهم.

ولما كان في يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة خلت من جُمادى الأولى، خرج من بقي من المشارقة ـ وهم الرافضة ـ إلى قصر المنصور بظاهر المنصورية، وهم زُهاء ألف وخمسمائة، وتحصنوا به. فحاصرهم السنة فاشتد عليهم الحصار والجوع. فأقبلوا يخرجون والناس يقتلون منهم ويحرقون إلى أن قُتلوا عن آخرهم، وطهر الله تعالى المغرب منهم.

وعمل الشعراء في هذه الواقعة القصائد. فممن عمل فيها أبو الحسن الكاتب المعروف بابن زنجي[1] من قصيدة: [من الطويل]

شفى الغيظَ في طَيِّ الضميرِ المكتَّم ... دماءُ كلابٍ حُلِّلت في المحرَّم
فلا أرْقَأ اللّهُ الدموع التي جرَتْ ... أسًى وجَوًى فيما أُريق من الدم[2]
هي المنَّة العظمى التي جَلَّ قَدْرُها ... وسارت بها الرُّكبان في كلّ موسم
فيا سمَرًا أمسى عُلالة مُنجِدٍ ... ويا خَبرًا أضحى فكاهة مُتْهِم[3]
ويا نعمةً بالقيروان تباشرَتْ ... بها عُصَبٌ بين الحطيم وزمزم[4]
وأهدت إلى قبر النبيِّ وصَحْبه ... سلامًا كَعرْف المسْك عن كل مسلم
غزَوْنا أعادي الدين لا رمحَ ينثني ... نُبوًّا ولا حدّ الحسام المصمِّم[5]
بكلّ فتًى شَهْم الفؤاد كأنما ... تسرْبل يوم الروع جلدة شَيْهم[6]
إذا أمَّ لم يشدُدْ عُرا متخوِّف ... وإنْ هَمَّ لم يحْلُل حُبَا متندِّم[7]
من القيروانيين في المنصب الذي ... نمي، وإلى خير الصحابة ينتمي

---

(١) هو أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله بن علي بن الحسن بن زكريا الجرجاني الزنجي. كان حافظًا ثقة. وكانت وفاته سنة ٤٦٩هـ... (شذرات الذهب ٣: ٣٣٤).

(٢) رقأ الدمع والدم ونحوهما: سكن وجفّ وانقطع بعد جريانه.

(٣) منجد: نسبة إلى نجد في الحجاز، ومتهم: نسبة إلى تهامة في البحرين.

(٤) العصب: الجماعات.

(٥) نبا السهم عن الفرض: أي جاوزه ولم يصبه.

(٦) الشيهم: حيوان من القوارض له شوك طويل كأنه المسالّ، من فصيلة القنافذ، ويسمى الدلدل أيضًا.

(٧) الحُبا: ما يحتبى به، أي يشتمل من ثوبٍ أو نحوه.

وأوسع الشعراء في ذلك. وقالوا فيه قصائد كثيرة تركناها اختصارًا.

وأما كرامت بن المنصور فإنه أقام بمدينة آشير ومعه من تُلْكاتَة وغيرهم من قبائل صُنهاجَة، فما شعر إلا وقد وافاه حماد في ألف وخمسمائة. فبرز إليه كرامت في سبعة آلاف. فلما نشبت الحرب بينهم عمد التلكاتيون إلى بيت ماله فانتهبوه، ورجعوا على أدراجهم. فكانت الهزيمة على كرامت فدخل مدينة آشير وحماد في أثره. فأرسل إلى كرامت ليجتمع به فتوثَّق منه وأتاه. فزوَّده حماد بثلاثة آلاف دينار وبعث معه من أصحابه من يشيعه. فوصل إلى الحضرة في يوم الأربعاء لإحدى عشرة بقيت من المحرم سنة سبع وأربعمائة. وطلب تلكاتة وصنهاجة بما صار إليهم من أموال كرامت ومواشيه، فتفرقوا عنه وامتنعوا عليه.

وفي يوم السبت لعشر بقين من صفر منها، ولي محمد بن حسن أمور المعز وجيوشه، وكان قبل ذلك على طرابلس، وأضيف إليه قابس ونفزاوة وقصطيلية وقفصة[1] فبعث عماله عليها. وعقد لأيوب بن يطوفت على سائر أعمال المغرب.

وفي يوم الأحد لعشر بقين من ذي الحجة سنة سبع وأربعمائة، خُتِنَ المعز وخُتِنَ معه من أبناء الضعفاء عدة كثيرة. وأُعطوا الكساوى والنفقة.

وفي آخر ذي الحجة هذا، وصلت الرسل من مصر بسجل الحاكم إلى المعز واللقب والتشريف، وخوطب بشرف الدولة.

ذكر مسير المعز لحرب حماد

قال: وفي يوم الخميس لسبع بقين من صفر سنة ثمان وأربعمائة، برز المعز إلى مدينة رقادة في عساكره وفرق الأموال. ثم رحل منها لأربع خلون من شهر ربيع الأول. ووصل إليه عدة من القبائل من عسكر حماد ومن كتامة. فجاءه الخبر أن إبراهيم وقف على باب مدينة باغاية فدعا بأيوب بن يطوفت فخرج إليه. فعاتبه على ما كان منه وذكر أنهم إخوة، وأن الذي كان إنما وقع بقضاء الله وقدره. وقال: «نحن على طاعة سيدنا المعز. وقد أردنا أن يتم الصلح على يدك. وحماد يقرأ عليك السلام ويقول لك: ابعث من تثق به أن يحلِّفني ويأخذ عليّ من العهود ما يسكن إليه قلبك، ويكتب به».

---

(١) قفصة: بلدة صغيرة في طرف إفريقية من ناحية المغرب.

فانخدع أيوب ودعا بحمامة أخيه وحبوس بن القاسم بن حمامة وأنفذهما معه. ثم تبعهما تورين غلام أيوب، وهو أعز عنده من إخوته. فلما وصل بهم إبراهيم إلى أخيه حماد، أنزلهم في فارة السلام[١]. ومضى إلى أخيه فأخبره. فبعث إليهما زكنون ابن أبي خُلا فجرد ما عليهما من الثياب، وألقى عليهما ثيابًا رثّة، وقيدهما بقيدين ثقيلين وأنفذهما إلى القلعة. ودعا حماد بتورين فقال له: «هذان ابنا عمي وأنت فما جاء بك معهما؟ أردت أن تتحدث فتقول: قال لي حماد، وقلت لحماد!» وأمر به فضربت عنقه.

فلما اتصل الخبر بالمعز، سار بالعساكر حتى انتهى إلى حماد. والتقوا واقتتلوا، فكانت الهزيمة على حماد وعساكره. وقُتل حُماة أصحابه، وأُسر إبراهيم، وفرّ حماد.

وعقد المعز لعمه كرامت بن المنصور على أعمال المغرب، ففرّق عماله.

ذكر الصلح بين المعز وحماد عمّ أبيه

قال: ولما تمت الهزيمة على حماد، راسل المعز في طلب الصلح واعترف بالخطأ وسأل العفو عنه. فأنفذ المعز من يقف على صحة أمره وصدق طاعته، فعاد بسمعه وطاعته. ورغب في ترك العمل، وأن يعقد له أخوه إبراهيم ما يسكن إليه من العهود والمواثيق التي يطمئن إليها، فيبعث حينئذ بولده القائد أو يصل بنفسه. فحصل الاتفاق، وأرسل ابنه القائد إلى المعز. فوصل بعد عَوْد المعز إلى المنصورية، وذلك في النصف من شعبان من السنة. فأكرمه المعز وأحسن إليه. وكتب له منشورًا بولاية المسيلة وطبنة ومرسى الدجاج وزواوة[٢] ومقرّة[٣] ودَكمة وبلزمة وسوق حمزة، وأُعطي البنود والطبول. وانصرف إلى أبيه لأربع خلون من شهر رمضان سنة ثمان وأربعمائة. فلما وصل إلى أبيه أظهر الطاعة. وبقي القائد يتردّد إلى المعز.

ذكر مقتل القائد محمد بن حسن

كان مقتله لسبع خلون من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة وأربعمائة. وذلك أنه كان قد استقلّ بالأمور وجبى الأموال منذ فُوّضت إليه أمور الدولة. فلم يدخر

---

(١) فارّة: بالراء المشددة، والهاء: مدينة في شرقي الأندلس من أعمال تطيلة... (معجم ياقوت).

(٢) زواوة: بفتح أوله، وبعد الألف واو أخرى: بليد بين إفريقية والمغرب... (معجم البلدان).

(٣) مقرة: بالفتح ثم السكون، وتخفيف الراء: مدينة بالمغرب في بر البربر قريبة من قلعة بني حماد بينها وبين طبنة ثمانية فراسخ... (معجم البلدان).

درهمًا واحدًا في سبع سنين مع ما ورد من الهدايا الجليلة والتقادم النفيسة. وانتهت حاله إلى أن أخذ مالاً من الذخيرة فلم يرد عوضه. وضاقت الدولة واتسعت أحواله وكثرت أبنيته التي لا تصلح إلا للملوك. وهادى الأكابر بمصر حتى وصل إليه سجل من الحضرة. فضاق منه المعز، فدسّ إليه بعض خواصه، وأشار عليه أن يقتصر على الخدمة، وله ما حَصَّله من الأموال والأبنية. فأبى إلا تماديًا واستمرارًا. فقتله المعز في التاريخ الذي ذكرناه، وكتب بالحَوْطة على أمواله ونعمه ورجاله. وقلد القاسم بن محمد بن أبي العرب سيفه. وأخرج بين يديه الطبول والبنود. وصرف إليه النظر في سائر إفريقية.

قال: ولما قتل محمد بن حسن ثار أخوه عبد الله بن حسن عامل طرابلس وغضب لذلك. وبعث إلى زناتة فعاقدهم وأدخلهم طرابلس. فقتلوا كل من كان بها من صنهاجة والعسكريين وأخذوا المدينة. فلما انتهى ذلك إلى المعز. أمر بالقبض على جميع بني محمد وحبسهم ثم ظفر محمد بن وليمة بعبد الله، فأنفذه إلى المعز فاعتقله. ثم أمر بقتل الجميع، وذلك لما استغاثت نساء الصنهاجيين وأولادهم الذين قَتَلوا آباءهم بطرابلس.

وكان بإفريقية في تلك السنة مجاعة شديدة لم يكن مثلها قط.

وفي ليلة الأربعاء لعشر خلون من المحرم سنة عشرة وأربعمائة وُلد للمعز مولود سماه نزار.

وفي صفر سنة تسع عشرة وأربعمائة، ورد الخبر إلى المعز بوفاة حماد بن يوسف بُلُكِّين، وهو عم أبيه. فكتب إلى ولده القائد بالتعزية بأبيه.

وفي سنة تسع وعشرين وأربعمائة، خرج عسكر المعز إلى الزاب. ففتح مدينة نورس وقتل من البربر خلقًا كثيرًا. وفتح من بلاد زناتة قلعة تسمى كردُوم.

وفي سنة ثلاثين وأربعمائة، دخل قائده جزيرة جربة[1]، ففتحها وقتل رجالها، وأسر مقدمهم ابن كلدة وصلبه، لقطعهم الطريق وسوء اعتقادهم.

---

(١) جربة: بالفتح ثم السكون، والباء موحدة خفيفة: قيل: هي جزيرة بالمغرب من ناحية إفريقية قرب قابس يسكنها البربر، وقال أبو عبيد البكري: وعلى مقربة من قابس جزيرة جربة، وفيها بساتين كثيرة وأهلها مفسدون في البر والبحر، وهم خوارج، وبينها وبين البر الكبير مجاز... (معجم البلدان).

وفي سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، خرج المعز بجيوشه إلى قلعة حماد. وحاصرها مدة سنتين وضيّق عليهم لرجوعهم إلى ما كانوا عليه من النفاق.

وفي سنة خمس وثلاثين وأربعمائة، أظهر المعز الدعاء للدولة العباسية. ووردت عليه الرسل. ووصله السجل من القائم بأمر الله، وأوله: «من عبد الله ووليه أبي جعفر القائم بأمر الله أمير المؤمنين إلى الملك الأوحد نور الإسلام، وشرف الأيام، وعمدة الأنام، ناصر دين الله، وقاهر أعداء الله، ومؤيد سنّة رسول الله ﷺ، أبي تميم المعز بن باديس بن المنصور ولي أمير المؤمنين» بألفاظ طويلة، وخلع طائلة، وسيفه وفرسه وخاتمه وألوية كثيرة. فوصل ذلك في يوم الجمعة والخطيب على المنبر في الخطبة الثانية عند الاستغفار. فدخلت الألوية إلى الجامع، فقيل للخطيب: «اذكر الساعة ما أمكن» فقال: «هذا لواء الحمد يجمعكم، وهذا معز الدين يسمعكم، وأستغفر الله لي ولكم».

ذكر خروج العرب إلى المغرب والسبب الموجب لذلك

كان سبب ذلك أن المستنصر ـ لما ولّي خلافة مصر بعد الظاهر بن الحاكم ـ خطب المعز في أيامه للقائم بأمر الله العباسي. فكتب إليه وهو يرغّبه ويرهّبه، ويقول له: «هلاّ اقتفيت آثار من سلف من آبائك في الطاعة والولاء» ويتوعّده بإرسال الجيوش. فكتب المعز إليه: «إن آبائي وأجدادي كانوا ملوك المغرب قبل أن تملكه أسلافك، ولهم عليهم من الخدم أعظم من التقديم. ولو أخروهم لتقدموا بأسيافهم».

وكان المستنصر قد ولّى وزارته في اثنتين وأربعين وأربعمائة لأبي محمد الحسن بن اليازوري، ولقبه بالوزير الأجل المكين، سيد الوزراء، وتاج الأمراء، قاضي القضاة، وداعي الدعاة، علم المجد، خالصة أمير المؤمنين». ولم يكن من أهل الوزارة ولا من الكتّاب، بل كان من أهل التّناية[1] والفلاحة بالشام. فأجراه ملوك الأطراف في مكاتباتهم على عادة الوزراء إلا المعز فإنه امتنع من مخاطبته بما كان يخاطب به الوزراء قبله، وذلك أنه كان يكاتب الوزراء بعبده فكاتبه بصنيعته. فعظم ذلك عليه. فأعمل الوزير الفكرة ودسّ إلى زُغْبة ورياح دسائس ووصلهم بصلات سنية. وبعث إليهما أحد رجال الدولة حتى أصلح بين الفئتين بعد فتن توالت وحروب

(١) التناية: الزراعة.

استمرّت ودماء أُريقت. ثم أحضر أمراءهم وأباحهم على لسان المستنصر أعمال القيروان. ووعدهم بالمدد والعُدد. وأمرهم بالعَيْث والإخراب. فدخلت العرب إلى بلاد المغرب في سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة. وأنفذ اليازوري كتابًا يقول فيه: «أما بعد، فقد أرسلنا إليكم فحولاً، وأرسلنا عليها رجالاً كهولاً، ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً». ودخلت العرب فوجدوا بلادًا خالية طيبة كثيرة المرعى، كانت عمارتها زناتة فأبادهم المعز. فأقاموا بها واستوطنوها وعاثوا في أطراف البلاد. وبلغ ذلك المعز فاستحقر أمرهم لتمام المقدور.

ذكر وفاة القائد بن حماد وولاية ابنه وقتله وولاية بلكين بن محمد

وفي شهر رجب سنة ست وأربعين وأربعمائة توفي القائد بن حماد بن يوسف بلكين بن زيري وكان في مرضه ولّى محسنًا، وأوصاه بالإحسان إلى بني حماد عمومته. فلما ولّي خالف ما أمره به أبوه وأراد عزل جميعهم. فلما سمع عمه يوسف بن حماد ما أراده من الغدر بإخوته بني حماد خالف[1] عليه. وجمع العساكر فاجتمع له خلق كثير. وكانِ يوسف قد بنى قلعة في جبل منيع وسماها الطيارة. فلما اتصل بمحسن خلافه خرج إليه والتقى بعسكر عمه مَدِيني. فانهزمت تلكاتة عنه، فظُفر به، فقتل من عمومته أربعة، وهم مديني وإخوته مناد ونغلان وتميم. وكتب إلى عمه يوسف يأمره بالقدوم إليه. فقال: «كيف أطمئن إليك وقد قتلت أربعة من عمومتك؟».

وكان ابن عمه بلكين بن محمد متولي أفريون فكتب إليه محسن يأمره بالقدوم، فقدم عليه. فلما قرب منه أمر محسن قومًا من العرب أن يأتوه برأسه. فلما خرجوا، قال لهم أميرهم خليفة بن مكن: «هذا بلكين لم يزل محسنًا إلينا. فكيف نفعل به هذا؟» فأتوه وأعلموه بما أُمروا به، فخاف عند ذلك. فقال له خليفة: «لا خوف عليك إن كنت تريد قتل محسن فأنا أقتله لك». فتدرع بلكين وركب وأقبل يريد لقاءه. فبلغ محسنًا قصدُه إليه، فهرب إلى القلعة. فأدركوه في الطريق فقتله بلكين، ودخل القلعة، ووليّ الأمر. وذلك في شهر ربيع الأول سنة سبع وأربعين وأربعمائة.

---

(١) خالف عليه: خرج.

بقية أخبار المعز بن باديس

نعود إلى أخبار المعز بن باديس، قال: ولما تكاسلت صنهاجة عن قتال زناتة، اشترى المعز العبيد، فاجتمع له ثلاثون ألف مملوك. وكانت العرب زُغْبة[١] قد ملكوا مدينة طرابلس في سنة ست وأربعين. ووصل مؤنس بن يحيى المرْداسي إلى المعز بالقيروان. فأكرمه المعز وأحسن إليه. فنهاه مؤنس أن يجعل للعرب سبيلاً إلى دخول إفريقية وقال: «إنهم قوم لا طاقة لك بهم» فقال له المعز: «هم دون ذلك» فلما رأى مؤنس استهزاء المعز بالعرب، خرج عنه ولحق بأرض طرابلس.

وتتابعت بنو رياح[٢] والأثبج وبنو عدي[٣]، فدخلوا إفريقية، وقطعوا السبيل، وعاثوا في البلاد. وعزموا على الوصول إلى القيروان. فقال لهم مؤنس: «ليس هذا عندي برأي. وهذا يحتاج إلى تدبير» فقالوا: «وكيف تحب أن نصنع؟» قال: «ائتوني ببساط» فأتوه به. فبسطه وقال لهم: «من يدخل إلى وسط هذا البساط من غير أن يمشي عليه؟» قالوا: «كيف يقدر أحد على ذلك» قال: «أنا» قالوا: «فأرنا كيف تقدر على ذلك» فطوى البساط، وأتى إلى طرفه ففتح منه مقدار ذراع ووقف عليه. ثم فتح شيئًا آخر ودخل إليه. وقال: «هكذا فاصنعوا ببلاد المغرب املكوها شيئًا فشيئًا حتى لا يبقى عليكم إلا القيروان فأتوها، فإنكم تملكونها» فقال له رافع بن حماد: «صدقت يا مؤنس. والله إنك لشيخ العرب وأميرها. فقد قدمناك على أنفسنا فلسنا نقطع أمرًا دونك».

---

(١) زغبة: بطن من رياح، من بني هلال بن عامر بن صعصعة من العدنانية، قال في العبر: وفي بلاد زناتة بالمغرب منهم خلق كثير. . وبنو زغبة: بطن من بني عبد الأشهل، من الأوس، من القحطانية. وبنو زغبة أيضًا: بطن من بني القين، من قضاعة، من القحطانية. . . (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب).

(٢) بنو رياح: بطن من حنظلة، من تميم، من العدنانية. وهم: بنو رياح بن يربوع بن حنظلة. وبنو رياح أيضًا: بطن من بني هلال بن عامر بن صعصعة، من العدنانية.

(٣) بنو عدي: بطن من الرباب، من العدنانية. وبنو عدي أيضًا: بطن من بني النجار. وبنو عدي: بطن من بني الخزرج. وبنو عدي: بطن من بهراء من القحطانية. وهم أيضًا: بطن من أبي حنيفة بن غنم من القحطانية. وبنو عدي أيضًا: بطن من بني مزيقياء. وبنو عدي: بطن من خزاعة من القحطانية. وبنو عدي: بطن من طانجة من العدنانية. وبنو عديّ أيضًا: بطن من ذهل، من طيّىء، من القحطانية. وبنو عدي بطن من فزارة. وبنو عدي: بطن من قضاعة. . . (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ٣٥٤ ـ ٣٥٨).

وقدم أمراء العرب إلى المعز، وهم: مُطرِف بن كسلان، وفرح بن أبي حسان، وزياد بن الدونية، وفارس بن كثير، وفارس بن معروف، وهم أمراء بني رياح وساداتهم، فأنزلهم المعز، وأكرمهم وأحسن إليهم. فخرجوا من عنده ولم يجازوه بما فعل معهم بل شنُّوا الغارات على البلاد، وقطعوا على الرفاق، وأفسدوا الزرع، وقطعوا الأشجار، وحاصروا المدن. فضاق الناس وساءت أحوالهم وانقطعت أسفارهم. وحلّ بإفريقية من البلاء ما لم ينزل بها مثله قط.

ذكر الحرب بين المعز والعرب وانتصار العرب عليه

قال: ولما كان من أمرهم ما ذكرناه، احتفل المعز وجمع العساكر. وخرج في ثلاثين ألف فارس ومثلهم رجالة، وسار حتى انتهى إلى جندران، وهو جبل على مسيرة ثلاثة أيام من القيروان. وكانت عدة العرب ثلاثة آلاف فارس. فلما شاهدوا عساكر صنهاجة هالهم ذلك. فقال مؤنس بن يحيى المرداسي: «يا وجوه العرب، ما هو يوم فرار» فقالوا: «أين نطعن هؤلاء وقد لبسوا الكَازغندات[١] والمغافر[٢]؟» فقال أمير منهم: «في أعينهم» فسُمّي من ذلك اليوم «أبا العينين». والتقوا والتحم القتال وحميت الحرب، فاتفقت صنهاجة على الهزيمة. وتركوا المعز مع العبيد حتى يُرى فعلهم ويُقتَل أكثرهم، وبعد ذلك يرجعون على العرب. فانهزمت صنهاجة، وثبت المعز والعبيد. ووقع القتل فيهم، فقُتل منهم خلق كثير. وحاولت صنهاجة الرِّدة على العرب فلم يمكنهم، واستمرت الهزيمة. وقُتل من صنهاجة أمّة عظيمة. وانهزم المعز ودخل القيروان مهزومًا على كثرة من كان معه وقلّة العرب. واحتوت العرب على الخيل والعُدد والمُخيَّم والأثقال والأموال. وفيها يقول الشاعر[٣]: [من الطويل]

وإنَّ ابن باديسٍ لأفضلُ مالكٍ ... ولكنْ لعمري ما لديه رجالُ

ثلاثون ألفًا منهمُ غلبتهمُ ... ثلاثةُ آلاف إنَّ ذا لَمُحالُ[٤]

---

(١) هي أردية محشوة من القطن أو الحرير يتدرع بها في الحرب.

(٢) المغافر: واحدتها المغفر، وهو زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة.

(٣) هو علي بن رزق الرياحي.

(٤) الشطر الثاني لا يستقيم وزنه، بالشكل الذي ورد فيه ومن الممكن أن يستقيم على الشكل الآتي: «ثلاثة آلافٍ فذاك محاك» وقد ورد في بعض النسخ على الشكل التالي:

ثلاثة آلافٍ لنا غلبت له ... ثلاثين ألفًا إنّ ذا لنكالُ

وفي نسخة أخرى:

ثمانون ألفًا منكمُ هزمتهمُ ... ثلاثون ألفًا إن ذا لنكال

قال: ولما كان يوم عيد النحر من السنة، جمع المعز سبعة وعشرين ألف فارس. وهجم على العرب وهم في صلاة العيد. فقطعت العرب الصلاة وركبوا خيولهم. فانهزمت صنهاجة وقتل منهم خلق كثير.

ثم جمع المعز وخرج في صنهاجة وزناتة في جمع عظيم. فلما أشرف على بيوت العرب، ركبت خيولها وهم زغبة وعدي، وكانوا سبعة آلاف. والتقوا واقتتلوا فانهزمت صنهاجة، وولّى كل رجل منهم إلى منزله. ثم انهزمت زناتة وكان أميرها المنصور بن خزرون. وثبت المعز فيمن كان حوله من عبيده ثباتًا ما سُمع بمثله، ثم رجع إلى المنصورية. وأُحصي من قتل من صنهاجة في ذلك اليوم فكانوا ثلاثة آلاف وثلاثمائة.

ثم أقبلت العرب حتى نزلوا بمصلّى القيروان. ووقعت الحرب فقُتل من أهل رقادة والمنصورية خلق كثير. فلما رأى المعز ذلك ذهب إلى رفع الحرب بينهم، وعلم عكس الدولة، وظن أنهم راجعون. فأباح لهم دخول القيروان لما يحتاجون إليه من بيع وشراء. فلما دخلوا، استطال عليهم العامة وأهانوهم. فوقع بينهم حرب كانت الغلبة فيها للعرب.

قال: وكانت الكسرة الأولى على المعز في سنة ثلاث وأربعين والثانية في سنة أربع وأربعين وأربعمائة.

ذكر انتقال المعز إلى المهدية
ومحاصرة العرب القيروان واستيلائهم عليها

قال: وفي سنة ست وأربعين حاصرت العرب القيروان، وأخذ مؤنس باجة. فأشار المعز على الرعية بالانتقال إلى المهدية. وشرع العرب في هدم الحصون والقصور، وقلع الثمار، وتعمية العيون، وخراب الأنهار، فخرج المعز من القيروان إلى المهدية في سنة تسع وأربعين وأربعمائة، لليلتين مضتا من شعبان وكان بها ابنه الأمير تميم. فتلقى أباه ومشى في ركابه من مَيانِش[1] إلى القصر.

وفي أول شهر رمضان منها نهبت العرب القيروان.

---

(١) ميانش: بالفتح وتشديد الثاني، وبعد الألف نون مكسورة، وشين معجمة: قرية من قرى المهدية بإفريقية صغيرة، بينها وبين المهدية نصف فرسخ... (معجم البلدان).

وفي سنة خمسين وأربعمائة، خرج بُلُكِّين بن محمد، ومعه من العرب الأثبج وعدي لحرب زناتة. فكسرهم وقتل منهم عددًا كثيرًا.

وفي سنة إحدى وخمسين، قُتل منصور أفروم البرغواطي، قتله حمُّو بن مُلَيل البرغواطي غدرًا، وملك سفاقس مكانه.

وفي سنة أربع وخمسين وأربعمائة، غدر الناصر بن عَلنَّاس بلكين بن محمد وولّي مكانه، وذلك في غرة شهر رجب.

ذكر وفاة المعزّ بن باديس

كانت وفاته في سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة بضعف الكبد. وكانت مدة إقامته في الملك سبعًا وأربعين سنة. وكان رقيق القلب، كثير الرحمة، خاشعًا لله، متحرزًا من سفك الدماء إلا في الحدود، حليمًا يتجاوز عن كبائر الجرائم، لينًا لخدامه وعبيده وجلسائه وندمائه حتى كأنه واحد منهم أو أخ لهم محبًا لرعيته مشفقًا عليهم، مكرمًا لأهل الفضل والعلم كثير العطاء لهم، شجاعًا كريمًا، رحمه الله. وكان له من الأولاد الذين مات عنهم تسعة، وهم: نِزار، وتميم، وعبد الله، وعلي، وعمرو، وحماد، وبلكين، وحمامة، والمنصور.

ولما مات المعز ملك بعده ابنه.

ذكر ولاية تميم بن المعز بن باديس ابن المنصور بن يوسف بن زيري

كانت ولايته بعد وفاة أبيه في سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة. وكان أبوه قد ولاه المهدية في صفر سنة خمس وأربعين. وأقام بها إلى أن خرج المعز إليها. فدبّر الأمر بين يديه إلى أن توفي المعز فاستقل بعده بالملك. ودخل القضاة ووجوه الناس إليه فعزُّوه بأبيه وهنّؤوه بالولاية. ووصل كتاب الناصر بن علناس بذلك.

ذكر خروج حمّو عن طاعة الأمير تميم وحربه وانهزامه

وفي سنة خمس وخمسين وأربعمائة، خرج حمّو بن مليل صاحب مدينة سفاقس[1] عن الطاعة. فجمع أصحابه. واستعان بالعرب، فوافقته طائفة من الأثبج

(١) سفاقس: بفتح أوله، وبعد الألف قاف، وآخره سين مهملة: مدينة من نواحي إفريقية جل غلاتها الزيتون، وهي على ضفة الساحل، بينها وبين المهدية ثلاثة أيام وبين سوسة يومان وبين قابس ثلاثة أيام... (معجم ياقوت).

وعدي. فزحف بهم إلى المنزل المعروف ببئر قشيل فملكه. ثم توجه منه نحو المهدية. فخرج إليه تميم في عساكره ومعه طائفة من العرب: زغبة ورياح ووصل إلى حمو والتقوا واقتتلوا. فكانت الهزيمة على حمّو وأصحابه وأخذهم السيف. فقُتل أكثر أصحابه ونجا هو بنفسه. وكانت هذه الواقعة بسلقطة[١].

وفيها بعد الوقعة قصد تميم مدينة سوسة وكان أهلها قد خالفوا على أبيه، فملكها وعفا عنهم وحقن دماءهم.

ذكر الحرب بين بني حماد والعرب وانتصار العرب عليهم

وفي سنة سبع وخمسين وأربعمائة، كانت الحرب بين الناصر بن علناس بن محمد بن حماد ومن معه من رجال المغاربة من صنهاجة وزناتة، ومن العرب عدي والأثبج؛ وبين العرب وهم رياح وزغبة وسُليم[٢]، ومع هؤلاء المعز بن زيري الزناتي. وكان سبب هذه الواقعة أن حماد بن يوسف بلكين جد الناصر كان بينه وبين باديس بن المنصور الخلف الكبير والحرب التي ذكرناها. ومات باديس وهو يحاصر قلعة حماد كما ذكرنا. ثم دخل حماد في طاعة المعز. وكان القائد بن حماد بعد أبيه يضمر الغدر وخلع طاعة المعز والعجز يمنعه، إلى أن رأى قوة العرب وما نال المعز منهم. فعندها خلع الطاعة واستبدّ بالبلاد. وجاء بعده ولده محسن، وبعده ابن عمه بلكين، وبعده ابن عمه الناصر بن علناس، وكل منهم متحصن بالقلعة، وهي المعروفة بقلعة حماد وقد جعلوها دار ملكهم. فلما رحل المعز من القيروان، وصار إلى المهدية، وتمكنت العرب وأخربوا البلاد ونهبوا الأموال، انتقل كثير من أهل القرى والبلاد إلى بلاد بني حماد لحصانتها. فعمرت بلادهم وكثرت أموالهم، وفي نفوسهم ما فيها من الضغائن والحقود من باديس وبنيه، يرثه صغير عن كبير. وولّي تميم بن المعز بعد أبيه، واستبدّ كل منهم ببلد وقلعة، وتميم يصبر ويداري.

فاتصل بتميم أن الناصر بن علناس يقع فيه في مجلسه ويذمه وأنه عزم على المسير ليحاصره بالمهدية، وأنه حالف بعض صنهاجة وزناتة وبني هلال ليعينوه على

---

(١) سلقطة: بينها وبين المهدية ثمانية أميال... (المسالك والممالك للبكري).

(٢) بنو سليم: بضم السين: قبيلة عظيمة من قيس عيلان، والنسبة إليهم سلمى. وهم: بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس... قال الحمداني: بإفريقية منهم حي عظيم. وقال: مساكنهم ببرقة مما يلي المغرب ومما يلي مصر... (نهاية الأرب للقلقشندي ص٢٩٥).

حصار المهدية. فلما صحّ ذلك عنده أرسل إلى بني رياح فأحضرهم إليه. وقال لهم: «أنتم تعلمون أن المهدية حصن منيع أكثرها في البحر لا يُقاتَل من البرّ إلا من أربعة أبرجة يحميها أربعون رجلاً. وإنما جمع الناصر هذه العساكر إليكم وإلى بلادكم» فقال له أمراء العرب: «إن الذي قاله السلطان حق ونحب منك المعونة بالعُدّة» فقال: «على العدة والرِّفادة»[١] وأمر لهم بعشرة آلاف دينار، لكل أمير منهم ألف دينار، وألف درع، وألف رمح، وألف سيف هندي. فخرجت الأمراء من عنده، وجمعوا رجالهم، وتحالفوا على لقاء الناصر. وأنفذوا شيخين سرًّا إلى بني هلال الذين صاروا مع الناصر فقالا لهم: «كيف وقعتم في هذا الأمر وأردتم تلاف ملككم؟ هذا الناصر قد سمعتم غدر جده حماد لباديس، وغدر بنيه بعضهم بعضًا، وقد اتفق مع زناتة، فإذا وطىء بلدنا بصنهاجة وزناتة قاصدًا تميم بن المعز ـ وتميم في حصن منيع بالمهدية لا يقدر عليه ـ فعندها يملك بلاد إفريقية ويخرجنا وإياكم عنها» فقال لهما مشايخ بني هلال: «والله، لقد صدقتم. فإذا التقينا فقاتلونا فإنا ننهزم ونرجع عليهم. فإذا ملكنا رقابهم كان لنا من الغنيمة الثلث ولكم الثلثان» فقال الشيخان: «رضينا».

وأرسل المعز بن زيري الزناتي إلى من مع الناصر من زناتة بنحو ذلك، فوعدوه أن ينهزموا.

فحينئذ رحلت رياح وزناتة جميعًا. وسار إليهم الناصر بصنهاجة وزناتة وبني هلال[٢]. فالتقوا بموضع يسمى سبيبة[٣]. فلما تراءى الجمعان حملت بنو رياح على بني هلال. فانهزم بنو هلال كما وقع الاتفاق، وأظهروا الغدر من وراء العسكر. فانهزم عند ذلك الناصر بن علناس، وسلم في عشرة أفراس.

فكان جملة من قُتل في هذه الوقعة من صنهاجة وزناتة أربعة وعشرون ألفًا. وصارت الغنائم كلها للعرب، وبهذه الوقعة تمّ لهم ملك البلاد. فإن أكثرهم عند دخولهم كانوا رجالة، والفرسان منهم في أضيق حال. فتقاسموا هذه الغنائم على ما قرروه بينهم إلا الطبول والبوقات والفازات بأبغالها، فإنهم حملوها إلى تميم. فردها ولم يقبلها، فعزّ ذلك على العرب وقالوا: «نحن خدمك بين يديك» فقال: «ما فعلت

---

(١) الرفادة: الإعانة.

(٢) بنو هلال: بطن من عامر بن صعصعة من العدنانية. قال الحمداني: ومنهم طائفة بساقية قلته، من الأعمال الإطفيحية، من الديار المصرية. وهم بطون: بنو رفاعة، وبنو حجير، وبنو عزيز. ومنهم طوائف بإفريقية، من بلاد المغرب... (نهاية الأرب للقلقشندي ٤٣٧).

(٣) سبيبة: ناحية من أعمال إفريقية ثم من أعمال القيروان.

هذا انتقاصًا بكم وإنما المانع منه أنني لا أرضى أخذ سلب ابن عمي» وظهر عليه من الحزن بقوة العرب ما لم يوصف.

ذكر بناء مدينة بجاية والسبب فيه

قال: ولما كانت هذه الواقعة بين بني حماد والعرب، وبلغ النصر ما نال ابن عمه تميم من الألم والحزن، وكان وزيره أبو بكر بن أبي الفتوح محبًّا في دولة تميم، فقال للناصر: «يا مولاي، ألم أُشر عليك ألا تقصد ابن عمك، وأن تتفقا على العرب. فلو اتفقتما لأخرجتما العرب» فصدقه الناصر ورجع إلى قوله، وقال له: «أصلح ذات بيننا» فأرسل الوزير رسولاً من عنده إلى تميم يعتذر ويرغب في الإصلاح. فقبل تميم قوله.

وأراد أنْ يرسل رسولاً إلى الناصر، فاستشار أصحابه. فاتفقوا على إرسال محمد بن البُعْبُع، وقالوا: «هذا رجل غريب، قد شمله إحسانك وبرّك، وقد اقتنى من إنعامك الأموال والأملاك، وهو لا يعرف صنهاجة. فما يصلح لهذا الأمر سواه» فأحضر تميم محمد بن البعبع وأمر له بعبيد وخيل وكسًا ودنانير. وأوصاه وأرسله وأجاز الرسول الواصل.

وخرجا معًا إلى أن وصلا إلى بجاية، وهي حينئذ منزل ينزله رعية البربر. فنظرها ابن البعبع وتأملها، وقال في نفسه: «هذا المكان يصلح مدينة ومرسى وصناعة للسفن» وتمادى إلى أن وصل إلى القلعة ودخل على الناصر، وقد علم ابن البعبع أن الوزير محب في دولة تميم. فلما انبسط ودفع المكاتبة، قال للناصر: «يا مولاي، معي وصية إليك فأحب أن يخلّى المجلس» فقال الناصر: «ليس هنا إلا الوزير، وأنا لا أخفي عنه أمرًا» فقال: «بهذا أمرني سيدنا تميم» فقال الناصر لوزيره: «انصرف». فلما خرج، قال محمد للناصر: «يا مولاي، إن الوزير مُخامر عليك مع تميم، وهو لا يخفى عنه من أمورك شيئًا، وتميم مشغول مع عبيده النصارى. قد استبدّ بهم واطرح صنهاجة وتلكاتة وجميع القبائل. فوالله، لو وصلت بعسكر إلى المهدية ما بتّ إلا فيها لبغض الأجناد والرعية في تميم، وأنا أشير عليك بما تملك به المهدية وغيرها. وقد عبرت الآن ببجاية فرأيت فيها مرافق من صناعة وميناء وجميع ما يصلح لبناء مدينة. فاجعلها لك مدينة، يكون فيها دار ملكك وتقرب من جميع بلاد إفريقية. وأنا أنتقل إليك بأهلي وولدي، وأترك مالي بالمهدية من الرياع، وأخدمك حقّ الخدمة» فأجابه الناصر إلى ذلك واستراب من وزيره.

وخرج الناصر من ساعته ومعه ابن البعبع إلى بجاية، وترك الوزير بالقلعة. فوصلا إليها. ورسم ابن البعبع المدينة والصناعة والميناء وموضع القصر واللؤلؤة. وأمر الناصر من ساعته بالبناء والعمل. وشكره وأثنى عليه، وعاهده على وزارته. ورجعا جميعًا إلى القلعة.

وأحضر الوزير وقال: «هذا محب لدولتنا ناصح في خدمتنا. وقد أشار علينا ببناء بجاية. وعزم على الانتقال إلينا بالأهل والولد. فاكتب له جواب كتبه إلى تميم» وأمر له بألف دينار، وأربع وصائف، وأربع بغال من مراكبه.

وسار ابن البعبع فوصل إلى المهدية بكتب ناقصة وصلة تامة. فاستراب به تميم. وسأله عن بناء بجاية وسببه، فقال: «يا مولاي، ما لي بهذا علم. أنا رجل غريب» فتحقق تميم أنه الذي أشار عليه ببنائها. وخرج ابن البعبع إلى داره خائفًا وجلاً.

وكان لما فارق الناصر سأله أن ينفِّذ معه رجلاً من ثقاته ينفذ معه ما يعاين من الأخبار. فنفَّذ معه رجلاً. فلما خرج إلى داره كتب إلى الناصر: «إنني لما وصلت إلى تميم لم يسألني عن شيء قبل سؤاله عن أمر بجاية، إنه قد وقع على قلبه منها أمر عظيم. وقد اتهمني فانظر من تثق به من العرب ممن يصل إلى أولاد عكابش، فإنني خارج إليهم مسرعًا، وقد عاهدتهم على ذلك. فتنفذ من بني هلال من تثق به. وقد أوثقت شيوخ زويلة[1] وغيرها على طاعتك. فالله الله أسرعْ إلي بمن ذكرت».

قال: فمضى الرسول بالكتاب فقرأه الناصر وأوقف الوزير أبا بكر عليه. فاستحسن الوزير ذلك منه وقال: «لقد خدم هذا الرجل ونصح» فقال الناصر: «خذ الكتاب إليك، وجاوب الرجل عنه، وانظر في إنفاذ العرب إليه قولاً وفعلاً، ولا تؤخر ذلك عنه» فمضى الوزير إلى داره وكتب نسخة كتاب ابن البعبع، وحكاها حتى كأنها هي، خشية أن يسأله الناصر عن الكتاب بعد ذلك. وأنفذ كتابه الذي بخطه إلى تميم وكتب كتابًا منه يصف الحال من أوله إلى آخره.

فلما وقف تميم على ذلك، عجب منه وبقي يتوقع له ما يأخذه به. وجعل عليه من يحرسه في ليله ونهاره من حيث لا يشعر. فأتاه بعض الحرس وأخبره أن ابن

(١) بنو زويلة: بطن من البربر. قال الحمداني: وهم: بنو زويلة بن قيدار بن إسماعيل. وذلك على مذهبه في نسب البربر... وزويلة عند الإسرائيليين هم أهل برقة، فيحتمل أنهم هم، ويحتمل أنهم غيرهم... (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ص٢٧٦).

البعبع صنع طعامًا وأحضر عنده الشريف الفهري - وكان هذا الشريف من خواص تميم - فلما أصبح استدعاه تميم. فحضر وقال: «يا مولاي، ما كنت إلا واصلاً إليك». وحدثه أن محمد بن البعبع دعاني وقال لي: «أنا في ذمامك وحسبك، أحب أن تعرفني من أين أخرج من المهدية، فأنت أعرف الناس بذلك» فقلت له: «ولِمَ تفعل ذلك، وأنت في هذه المنزلة الكبيرة مع مولانا تميم؟» فقال: «إنه اتهمني أنني أشرت على الناصر ببناء بجاية، وقد خفت» فقلت له: «يا أبا عبد الله، إن كنت سالمًا من قول قلته أو أمر أبرمته فلا تبالِ، فسيدنا تميم رجل رؤوف لا يؤاخذ بقول ولا بظن» فقال لي: «دني فلا قدرة لي على المقام» فقلت له: «أنا أنظر في هذا الأمر بالغداة إن شاء الله وأعرفك بمن تثق به من العرب» فأخذ يدي على ذلك.

قال: فأخرج تميم كتاب ابن البعبع الذي بخطه إلى الناصر وأوقف الشريف عليه. ثم قال له: «أحضِره إلي» فمضى الشريف إليه وقال له: «سيدنا تميم أمر بحضورك معي ولا يكون إلا خيرًا» فلبس ثيابه وخرجا. فلقيهما ماضي بن عكابش فقال له: «يا أبا عبد الله، الهلاليون قد وصلوا إلينا البارحة، وهذه كتب قد وصلت إليك منهم» فتناولها الشريف من يده فقال له ابن البعبع: «استر عليّ ستر الله عليك» وسأله. فدخلا القصر وابن البعبع يسأله فيها. فقال: «خذها فوالله ما ينفعك أخذها» فتناولها.

وخرج تميم إليهما فجزع ابن البعبع حتى سقطت الكتب من يده وإذا عنوان أحدها: «من الناصر بن علناس إلى شيخنا وخليلنا» فقال له تميم: «من أين هذه الكتب؟» فسكت. فقرأها تميم فوجد فيها الحجة عليه. فقال ابن البعبع: «العفو يا مولانا» فقال: «لا عفا الله عنك؟» وأمر بضرب عنقه وتغريق جثته.

ذكر استيلاء تميم على مدينة تونس

وفي سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، سيّر تميم عسكرًا كثيفًا إلى مدينة تونس. فأقام محاصرًا لها مضيّقًا عليها سنة وشهرين. وكان بها أحمد بن خراسان وقد أظهر الخلاف.

وسبب ذلك أن المعز بن باديس أبا تميم - لما فارق القيروان والمنصورية ورحل إلى المهدية - استخلف على القيروان وعلى تونس قائد بن ميمون الصنهاجي. فأقام بها ثلاث سنين ثم غلبته هوارة عليها، فسلمها إليهم وخرج إلى المهدية. فلما ولّي تميم بعد أبيه رده إليها، فأقام بها مدة ست سنين. ثم أظهر الخلاف على تميم وأطاع

الناصر بن علناس. فجرد إليه تميم عسكرًا من أجناده وعبيده. فعلم أنه لا طاقة له بهم، فترك القيروان وسار إلى الناصر. ودخل عسكر تميم القيروان وخربوا قصر القائد الذي بناه بباب سلم.

وسار العسكر إلى تونس وبها ابن خراسان فحصروه، فأطاع وصالح الأمير تميمًا.

وأما قائد بن ميمون فإنه مكث عند الناصر سنتين. ثم مضى إلى حَمُّو بن مليل فاشترى له مدينة القيروان من العرب وولاه عليها. فابتدأ ببناء سورها وحَصَّنها.

وفي سنة سبعين وأربعمائة، تمّ الصلح بين تميم والناصر بن علناس. وزوّجه تميم ابنته السيدة بلارة وجهزها إليه من المهدية في البرّ.

ذكر استيلاء مالك بن علوي الصخري على القيروان وأخذها منه، وعودها إلى تميم

وفي سنة ست وسبعين وأربعمائة، جمع مالك بن علوي العرب، وسار إلى المهدية وحصرها. فدفعه تميم عنها ولم يظفر منها بشيء. فسار إلى القيروان فحصرها وملكها. فجرد تميم العساكر إليه فحصروه بها. فلما رأى مالك أنه لا طاقة له بعساكر تميم تركها. واستولت عساكر تميم عليها وعادت إلى ملكه كما كانت.

ذكر ملك الروم مدينة زويلة وعودهم عنها

قال: وفي سنة إحدى وثمانين وأربعمائة، اجتمع الروم في أربعمائة قطعة وأعانهم الفرنج. وأتوا كلهم إلى جزيرة قوصرة[1] وأخربوا ونهبوا وأحرقوا. وملكوا مدينة زويلة وهي بقرب المهدية. وكانت عساكر تميم غائبة في قتال الخارجين عليه، فصالح تميم الروم على ثمانين ألف دينار، بشرط أن يردوا جميع ما حوَوْه من السبي، ففعلوا ذلك ورجعوا جميعًا.

وفيها مات الناصر بن علناس. وولّي ابنه المنصور فقَفا آثار أبيه في الحزم والعزم والرئاسة. وأتته كتب تميم وغيره بالتهنئة والتعزية.

---

(١) قوصرة: بالفتح ثم السكون، والصاد مهملة: هي جزيرة في بحر الروم بين المهدية وجزيرة صقلية... وقيل: إن في أيامنا هذه فيها قوم من الخوارج الوهبية... (معجم البلدان).

ذكر خبر شاه ملك التركي ودخوله إلى إفريقية وغدره بيحيى بن تميم

كان شاه ملك هذا من أولاد بعض أمراء الأتراك ببلاد المشرق فناله في بلده أمر أخرجه عنها. فخرج وسار إلى مصر في مائة فارس. فأكرمه الأفضل أمير الجيوش ووصله وأعطاه إقطاعًا ومالاً. ثم بلغه عنه أشياء أوجبت حبسه هو وأصحابه. وجرى بمصر أمر فخرج شاه ملك هو وأصحابه هاربين، واحتالوا في خيل وعُدة.

وتوجهوا إلى المغرب فوصلوا إلى طرابلس المغرب وأهل البلد كارهون لواليها. فأدخلوهم البلد وأخرجوا الوالي. فصار شاه ملك أمير البلد. فبلغ تميم الخبر فأرسل العساكر فحصروها وفتحوها وأخذوا شاه ملك ومن معه إلى المهدية. فسر بهم تميم وقال: «قد ولد لي مائة ولد أنتفع بهم» وكانوا لا يخطىء لهم سهم.

فلم تطل الأيام حتى جرى منهم أمر غير تميمًا عليهم. فعلم شاه ملك ذلك، وكان صاحب دهاء وخبث. فلما كان في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، خرج يحيى بن تميم إلى الصيد ومعه شاه ملك ومن معه. وكان أبوه قد تقدم إليه ألا يقربه فلم يقبل منه. فلما أبعدوا في طلب الصيد، غدر به شاه ملك، وقبض عليه، وسار به وبمن أخذ من أصحابه إلى حمّو بن مليل صاحب مدينة سفاقس. فركب حمّو وخرج للقاء يحيى بن تميم. وترجل وقبّل يده ومشى في ركابه وعظّمه واعترف له بالعبودية. وأقام عنده أيامًا ولم يذكره أبوه بكلمة واحدة. وكان قد جعله ولي عهده، فلما أُخذ أقام أبوه مقامه ابنًا آخر اسمه مثنى.

قال: ثم إن صاحب سفاقس خاف يحيى على نفسه أن يثور معه الجند وأهل البلد فيملكوه عليهم، فكتب إلى تميم يسأله إنفاذ الأتراك وأولادهم إليه ليرسل إليه ابنه يحيى. ففعل ذلك بعد امتناع كثير. وقدم يحيى فحجبه أبوه عنه مدة. ثم رضي عنه وأعاده وجهزه إلى سفاقس بجيش فحصرها برًا وبحرًا مدة شهرين. فخرج الأتراك عنها إلى قابس.

ذكر خلاف مثنى بن تميم على أبيه

قال: كان سبب ذلك أن تميم بن المعز لما رضي عن ابنه يحيى وأعاده إلى ولاية عهده، عظم ذلك على المثنى وداخَلَه الحسد فلم يملك نفسه. فنُقل إلى أبيه عنه ما غيّر قلبه عليه. فأمر بإخراجه من المهدية بأهله وولده وعبيده. فركب في البحر إلى سفاقس، فلم يمكنه عاملها من الدخول إليها.

فقصد مدينة قابس، فلقيه الثائر بها مكن بن كامل الدهماني فأنزله وأكرمه. فحسن له مثنى الخروج معه إلى سفاقس والمهدية وأطمعه فيها، وضمن له الإنفاق على الجند من ماله. فجمع ما أمكنه جمعه. وسارا إلى سفاقس ومعهما شاه ملك التركي وأصحابه فنزلوا على سفاقس وقاتلوا من بها فبلغ تميمًا الخبر فجرد إليها جندًا من الرماة. فلما علم المثنى ومن معه أنهم لا طمع لهم فيها تركوها. وقصدوا المهدية فنزلوا عليها وقاتلوا. فتولى قتالهم بها يحيى بن تميم وظهر من شدته وصبره وحزمه وحسن تدبيره ما استُدل به على نجاح أمره وحسن عاقبته. ولم يبلغ أولئك منها غرضًا فعادوا وقد تلف ما كان مع المثنى من مال وغيره.

ذكر ملك تميم مدينة قابس

وفي سنة تسع وثمانين وأربعمائة، ملك تميم مدينة قابس، وأخرج منها أخاه عمرو بن المعز. وكان أهلها ولّوه عليها بعد موت قاضي بن إبراهيم بن بَلْمُويه. فلم يحسن عمرو السياسة ولا نهض بشرط الولاية. وكان قاضي بن إبراهيم عاصيًا على تميم، وتميم يعرض عنه. فسلك عمرو طريقته في العصيان، فأخرج تميم العساكر إلى أخيه ليأخذ قابس منه. فقال له أصحابه: «يا مولانا، لما كان فيها قاضي توانيت عنه وتركته، فلما صار أمرها إلى أخيك جردت إليه العساكر!» فقال: «لما كان فيها عبد من عبيدنا كان زواله سهلاً علينا. وأما الآن فابن المعز بالمهدية وابن المعز بقابس. هذا لا يمكن السكوت عليه».

وفي فتحها يقول ابن خطيب سوسة قصيدته المشهورة التي أولها: [من الكامل]

ضحك الزمانُ وكان يُلْفَى عابسًا ... لما فتحتَ بحدِّ سيفك قابسا
أنكحتَها بكرًا وما أمْهَرتَها ... إلاّ قَنًا وصَوارمًا وفوارسا
الله يعلم ما جنيتَ ثمارها ... إلا وكان أبوك قَبلُ الفارسا
من كان بالسُّمْر العوالي خاطبًا ... جُلِيتْ له بيضُ الحُصون عرائسا
فأبشر تميمَ بن المعزّ بفتكةٍ ... تركتْك في أكناف قابس قابسا[1]
ولّوا فكم تركوا هناك مصانعًا ... ومَقاصرًا ومَخالدًا ومجالسا
فكأنها قلبٌ وهُنَّ وَساوسٌ ... جاء اليقين فذاد عنه وساوسا

(١) القابس: طالب النار.

وفي سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، فتح تميم جزيرة جزْبة وجزيرة قرقنة[١] ومدينة تونس. وكان بإفريقية غلاء شديد هلك فيه كثير من الناس.

وفي سنة ثلاث وتسعين، فتح تميم مدينة سفاقس. وخرج منها حمّو بن مليل هاربًا فقصد مكن بن كامل الدُّهماني، فأحسن إليه وأقام عنده حتى مات. وكان حمّو قد تغلب عليها واشتد أمره بوزير كان عنده من كتاب المعز حسن الرأي والتدبير والسياسة، فاستقامت به دولته وعظم شأنه. فأرسل إليه تميم وبالغ في استمالته ووعده بكل جميل فلم يقبل. فاشتد أمره على تميم فسيّر جيشًا إلى حصار سفاقس. وأمر مقدم الجيش أن يهدم ما حول المدينة ويحرقه ويقطع الأشجار سوى ما يتعلق بذلك الوزير، فإنه لا يتعرض إليه ويبالغ في صيانته، ففعل ذلك. فلما رأى حمّو ذلك اتهمه وقتله. فانحلّ نظام دولته وتسلّم عسكر تميم البلد.

وفي سنة ثمان وتسعين وأربعمائة، مات المنصور بن الناصر بن علناس، وولّي بعده ولده باديس. ثم مات بعد يسير فولّي أخوه العزيز بالله.

ذكر وفاة تميم بن المعز

كانت وفاته في شهر رجب سنة إحدى وخمسمائة، وله من العمر تسع وسبعون سنة، ومدة ولايته سبع وأربعون سنة وعشرة أشهر وعشرون يومًا.

وكان شهمًا شجاعًا كريمًا حليمًا كثير العفو عن الجرائم العظيمة ذكيًا حسن الشعر. فمن شعره ما قاله وقد وقع حرب بين طائفتين من العرب، وهما عدي ورياح فقُتل رجل من رياح ثم اصطلحوا وأهدروا دمه، وكان صلحهم مما يضر بتميم وبلاده، فقال أبياتًا يحرض فيها على الطلب بدم المقتول، وهي: [من الوافر]

متى كانت دماؤكمُ تُطَلُّ ... أمَا فيكم بثأرٍ مُستقلُّ[٢]

أغانمُ ثم سالمُ إنْ فشلتم ... فما كانت أوائلكم تَذلُّ

ونمتم عن طِلاب الثأر حتى ... كأنّ العزّ فيكم مضمحلُّ

وما كسَّرتُمْ فيه العوالي ... ولا بيضٌ تُفَلُّ ولا تُسَلُّ[٣]

---

(١) قرقنة: قال أبو عبيد البكري: ويقابل سفاقس في البحر جزيرة تسمى قرقنة... وهي في وسط البحر بينها وبين سفاقس في ذلك البحر الميت القصير القعر عشرة أميال... (معجم البلدان).

(٢) تطل الدماء: تهدر وتبطل ولم يثأر بها ولم تؤخذ ديتها.

(٣) فلّ السيف: تثلم حدّه.

فعمد إخوة المقتول فقتلوا أميرًا من بني عدي. فقامت الحرب بينهم واشتد القتال، وكثرت القتلى بينهم حتى أخرجوا بني عدي من إفريقية، وبلغ تميم فيهم ما يريد. وكان يوقع بالشعر الحروب بين العرب فبلغ بلسانه ما لم يبلغه بسنانه.

ومن أخباره في رعيته وشفقته عليهم ما حُكي أنه اشترى جارية بثمن كثير. فبلغه أن مولاها الذي باعها ذهب عقله وأسف على فراقها. فأحضره تميم إلى بين يديه وأرسل الجارية إلى داره ومعها من الكسوة والأواني والفضة والطيب شيئًا كثيرًا. ثم أمر مولاها بالانصراف وهو لا يعلم بذلك. فلما وصل إلى داره ورآها بمنزله سقط إلى الأرض وغُشي عليه لكثرة ما ناله من السرور. ثم أفاق وأصبح من الغد فحمل الثمن وجميع ما كان معها إلى دار تميم. فغضب وانتهره وأمره بإعادة ذلك إلى داره. وهذه نهاية في الجود، وغاية في الكرم والشفقة والإحسان.

وكان له في البلاد أصحاب أخبار يطالعونه بأخبار الناس لئلا يُظلَموا.

قال: وخلَّف من البنين مائة، ومن البنات ستين.

ولما مات رحمه الله ولّي بعده ابنه يحيى.

ذكر ولاية يحيى بن تميم بن المعز بن باديس ابن المنصور يوسف بن زيري

كانت ولايته عند وفاة أبيه تميم في يوم السبت النصف من شهر رجب سنة إحدى وخمسمائة، ومولده بالمهدية في يوم الجمعة لأربع بقين من ذي الحجة سنة سبع وخمسين وأربعمائة. ولما ولّي عم أهل دولته من الخواص والجند بالخلع السنيّة، ووهب الأجناد والعبيد أموالاً كثيرة.

وفي هذه السنة، جرد عسكرًا إلى قلعة إقليبية[1]، وهي من أحصن قلاع إفريقية. وقدَّم عليهم الشريف «علي الفهري» فنزل عليها وحاصرها حصارًا شديدًا ففتحها. وكان تميم قد رامها فلم يقدر على فتحها.

وفي سنة اثنتين وخمسمائة، وصل إلى المهدية ثلاثة نفر غرباء. فكتبوا إلى يحيى يقولون إنهم يعملون الكيمياء. فأحضرهم عنده وأمرهم أن يعملوا شيئًا من صناعتهم. وأحضر لهم ما طلبوه من صناعتهم، وأحضر لهم ما طلبوه من آلة وغيرها. وقعد معهم

---

(١) إقليبية: بكسر الهمزة، وسكون القاف، وكسر اللام، وياء ساكنة، وباء مكسورة، وياء مخففة: هو حصن منيع بإفريقية قرب قرطاجنة مطل على البحر... (معجم البلدان).

هو والشريف أبو الحسن. فلما رأى الكيميائية المكان خاليًا ثاروا بيحيى. فضربه أحدهم على رأسه، فوقعت السكين في عمامته فلم تصنع شيئًا. ورفسه يحيى فألقاه على ظهره. ودخل يحيى بابًا وأغلق على نفسه. وضرب الثاني الشريف فقتله. وأخذ إبراهيم القائد السيف فقاتل الكيميائية. ورفع الصوت فدخل أصحاب الأمير يحيى فقتلوا أولئك. وكان زيهم زي أهل الأندلس، فقُتل جماعة في البلد على مثل زيهم.

وقيل ليحيى: «إن هؤلاء رآهم بعض الناس عند المقدم بن الخليفة» واتفق أن الأمير أبا الفتوح إبراهيم أخا يحيى وصل في تلك الساعة إلى القصر، في أصحابه وقد لبسوا السلاح. فمُنع من الدخول. فثبت عند يحيى أن ذلك بوضع منهما. فأحضر المقدم بن خليفة وأمر أولاد أخيه فقتلوه قصاصًا، لأنه كان قد قتل أباهم. وأخرج الأمير أبا الفتوح وزوجته إلى قصر زياد بين المهدية وسفاقس، ووكل بهما. فبقي هناك حتى مات يحيى وولّي ابنه علي. فسيَّره إلى ديار مصر في البحر.

وفي سنة أربع وخمسمائة، أنفذ ابنه أبا الفتوح واليًا على مدينة سفاقس. فقام أهلها عليه فنهبوا قصره وهمُّوا بقتله. فلم يزل يحيى يعمل الحيلة حتى فرق كلمتهم وبدّد شملهم وملك رقابهم وملأ السجون منهم. ثم عَفَّ عن دمائهم وعفا عن ذنوبهم.

وفي أيام يحيى وصل إلى المهدية من طرابلس المهدي محمد بن تومرت، وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر وفاة يحيى بن تميم وشيء من أخباره

كانت وفاته فجأة يوم عيد الأضحى سنة تسع وخمسمائة. وكان منجمه قد قال له في تسيير مولده: «إن عليه قطعًا في هذا اليوم» ومنعه من الركوب فلم يركب وخرج أولاده وأهل بيته وأرباب دولته إلى المصلّى. فلما انقضت الصلاة حضروا للسلام عليه وتهنئته. وقرأ القراء وأنشد الشعراء وانصرفوا إلى الطعام. فقام يحيى من باب آخر ليحضر معهم على الطعام. فلم يمش غير ثلاث خطوات ووقع ميتًا رحمه الله.

وكان عادلاً في رعيته، ضابطًا لأمور دولته، مدبّرًا لجميع أحواله، رحيمًا بالضعفاء والفقراء كثير الصدقة، يقرب أهل العلم والفضل. وكان عالمًا بالأخبار وأيام الناس والطب. وكان حسن الوجه، أشهل[1] العينين، مائلاً في قَدِّه إلى الطول.

(١) الأشهل: الذي في عينيه شهلة، وهي أن يشوب إنسان العين حمرة.

ومات وله من العمر اثنتان وخمسون سنة إلا سبعة عشر يومًا. ومدة ولايته ثماني سنين وخمسة أشهر إلا خمسة أيام.

وخلَّف من الأولاد الذكور ثلاثين ولدًا.

وقال عبد الجبار محمد بن حَمْديس[1] الصقلي يرثيه ويهنىء ابنه عليًا بالملك: [من البسيط]

ما أُغمد العضْبُ حتى جُرِّدَ الذَّكرُ ... ولا اختفَى قمرٌ حتى بدا قمرُ[2]

بموت يحيى أُميتَ الناسُ كلّهمُ ... حتى إذا ما عليٌّ جاءهم نُشروا[3]

إنْ يُبْعثوا بسرورٍ من تملُّكه ... فمن منيَّة يحيى بالأسى قُبروا

أوفَى عليٌّ فسنُّ المُلْك ضاحكةٌ ... وعينه من أبيه دمعُها هَمِرُ

شُقَّت جُيوب المعالي بالأسى فبكتْ ... في كلّ أُفقٍ عليه الأنجمُ الزُّهُر

وقَلَّ لابن تميمٍ حزنُ مأتمها ... فكل حُزنٍ عظيم فيه مُحتقَر

قام الدليل ويحيى لا حياةَ له ... إن المنية لا تُبقِي ولا تَذرُ

ذكر ولاية عليّ بن يحيى بن تميم بن المعز ابن باديس بن المنصور بن يوسف بن زيري

كانت ولايته بعد وفاة أبيه. وكان إذ ذاك بمدينة سفاقس، فاجتمع رجال الدولة منهم عبد العزيز بن عمار والقائد زكو وغيرهما. ووقع الاتفاق على أن يُكتب كتاب على لسان يحيى لولده يؤمر فيه بالوصول إليه مسرعًا. فكُتب وسيِّر إليه فوصل إليه ليلاً. فخرج لوقته ومعه طائفة من أمراء العرب. وجدّ السير فوصل إلى المهدية الظهر من يوم الخميس الثاني من يوم العيد، وهو الحادي عشر من ذي الحجة سنة تسع وخمسمائة. ودخل القصر. وبدأ بتجهيز أبيه ومواراته في قبره ثم جلس للعزاء والهناء.

ولما استقامت له الأمور، جهز أسطولاً إلى جربة[4]، وكان أهلها يقطعون على

---

(١) هو أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الأزدي الصقلي الشاعر المشهور... (وفيات الأعيان ٣: ٢١٢).

(٢) العضب: السيف القاطع، والذّكر: السيف القاطع أيضًا.

(٣) نشر الله الموتى: بعثهم وأحياهم.

(٤) جربة: بالفتح ثم السكون، والباء موحدة خفيفة: قرية بالمغرب لها ذكر كثير في كتاب الفتوح... وقيل: هي جزيرة بالمغرب من ناحية إفريقية قرب قابس يسكنها البربر... (معجم ياقوت).

الناس في البحر. وجعل قائد الأسطول القائد إبراهيم قائد جيشه، وأصحبه جماعة من رجال الدولة. فمضوا إليها وحاصروها وضيّقوا على أهلها، حتى أذعنوا للطاعة ونزلوا على الحكم والتزموا الكفّ عن الفساد. فأمن من يسافر في البحر.

وفي سنة عشر وخمسمائة، جهز جيشًا إلى مدينة تونس، وبها أحمد بن خراسان. فحاصرها وضيّق على من بها. فصالح ابن خراسان السلطان على ما أراد.

وفتح أيضًا في هذه السنة جبل وسلات واستولى عليه. وهو جبل منيع لم يزل أهله طول الدهر يقطعون الطريق ويقتلون الناس. فملكه وقتل من فيه.

وفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة، حاصر الأمير علي مدينة قابس في البحر. وسبب ذلك أن رافع بن مكن الدهماني أنشأ مركبًا بساحلها، وقصد إجراءه في البحر في آخر أيام يحيى فلم ينكر ذلك وأعانه بالخشب والحديد. وتوفي يحيى قبل إكماله. فلما ولي عليّ أنف من ذلك. فعمّر ست حربيات وأربع شوان. فاستعان رافع بُرجار صاحب صقلية، فأنفذ رجار لإعانته أسطولاً جملته أربعة وعشرون شينيًا، لتأخذ المركب معها وتشيعه إلى صقلية لئلا تقطع عليه مراكب عليّ. فلما اجتاز أسطول رجار بالمهدية، أخرج على الحربيات والشواني[1] تتبعه إلى قابس، فتوافَوا بها. فرجع أسطول رجار إلى صقلية وبقي أسطول علي يحاصر قابس. فضيّق على من بها وأثر في مأجِلها وأفسد ثم رجع إلى المهدية. وتمادى رافع في إظهار المخالفة والتمسك بصاحب صقلية.

ذكر حصار رافع المهدية وانهزامه

قال: ثم أقبل رافع بن مكن الدهماني على جميع قبائل العرب وحالفهم. وسار بهم لحصار المهدية ونازلها. فأمر عليّ العسكر بالخروج وقتاله. فخرجوا عشية النهار فحملوا على رافع ومن معه حتى أزالوهم عن مواقفهم. ووصل الجند إلى أخبية العرب. فصاح الحريم: «هكذا نُسبى، هكذا نُستَباح» فعادت العرب ونشبت الحرب واشتد القتال إلى المغرب. ثم افترقوا، وقد قُتل من عسكر رافع خلق كثير، ولم يقتل من أصحاب عليّ إلا رجل واحد. ثم خرج إليهم الجند مرة ثانية واقتتلوا. فكان الظهور لأصحاب عليّ.

---

(١) الشواني: نوعٌ من المراكب العسكرية.

وهرب رافع بالليل إلى القيروان فدخلها بعد قتال. فأرسل عليّ بن يحيى إليه عسكرًا فحاصروه بالقيروان. ووقع بينهم قتال شديد قُتل فيه أحمد بن إبراهيم صاحب الجيش بسهم أصابه. وكان الغلب مع ذلك لأصحاب عليّ. ورجع رافع إلى قابس.

وتوسط ميمون بن زياد لرافع في الصلح مع عليّ. فأجاب إلى ذلك بعد امتناع. وتمّ الصلح بينهما وانتظم وزالت الوحشة.

ثم وصل رسول رجار صاحب صقلية بمكاتبة يلتمس فيها تأكيد العهود وتجديد العقود. فأجاب إلى ذلك. ثم وقعت الوحشة بينهما. فأمر عليّ بتجديد الأسطول فعمر عشرة مراكب حربية، وثلاثين غرابًا[١]، وشحنها بالرجال والعُدد والنفط وجميع ما تحتاج إليه.

وكان دأبه الحزم والصرامة والشهادة والعزم إلى أن توفي.

وكانت وفاته في يوم الثلاثاء لسبع بقين من شهر ربيع الآخر سنة خمس عشرة وخمسمائة. وكان مولده بالمهدية صبيحة يوم الأحد للنصف من صفر سنة تسع وسبعين وأربعمائة. وكانت مدة ولايته خمس سنين وأربعة أشهر وثلاثة عشر يومًا. وخلف من الأولاد أربعة، وهم: الحسن وباديس وأحمد وعزيز.

ولما مات ولّي بعده بعهده ولده الحسن.

ذكر ولاية الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز ابن باديس بن المنصور بن يوسف بن زيري

كانت ولايته بعهد من أبيه. فاستقلّ بعد وفاة أبيه، وله من العمر إذ ذاك اثنتا عشرة سنة وشهورًا. فدبّر دولته صندل الخصيّ وحفظ الملك. فلم تطل أيام صندل حتى مات. ووقع الاختلاف بين أكابر الدولة والقواد، وكل منهم يطلب التقدم على الجميع، ويبدي أنه صاحب الحل والعقد. فلم يزالوا كذلك إلى أن فوض أمور دولته إلى القائد أبي عزيز موفق، وهو من قواد أبيه، فصلحت الأمور.

ذكر استيلاء الفرنج على جزيرة جربة

وفي سنة تسع وعشرين وخمسمائة، استولت الفرنج على جربة من بلاد إفريقية. وكان أهلها لا يدخلون تحت طاعة سلطان. فخرج إليها جيش من صقلية وأداروا

---

(١) الغراب: سفينة من سفن البحر القديمة.

المراكب بجهاتها. فقاتل أهلها قتالاً شديدًا فقُتل منهم خلق كثير وانهزموا. وملكها الفرنج، وغنموا الأموال، وسبوا النساء والأطفال. وهلك أكثر رجالها، وعاد من بقي منهم فأخذوا لأنفسهم أمانًا من صاحب صقلية وافتكّوا أسراهم وسَبْيهم.

ذكر ملك الفرنج مدينة طرابلس

وفي أيامه ملك الفرنج مدينة طرابلس الغرب، وذلك في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة. وسبب ذلك أن رجار صاحب صقلية جهز أسطولاً كثيرًا وسيّره إليها. فأحاطوا بها برًا وبحرًا في ثالث المحرم من السنة. فقاتلهم أهلها ودامت الحرب بينهم ثلاثة أيام. فلما كان في اليوم الثالث سمع الفرنج صيحة عظيمة في البلد وخلت الأسوار من المقاتلة. وكان سبب ذلك أن أهل طرابلس كانوا قبل وصول الفرنج بأيام يسيرة قد اختلفوا. وأخرجت بنو مطروح طائفة. وقدموا على أنفسهم رجلاً من الملثمين كان قد قدم يريد الحج ومعه جماعة، فولوه أمرهم. فلما نازلهم الفرنج، أغارت تلك الطائفة على بني مطروح[1]. فوقعت الحرب بين الطائفتين وخلت الأسوار. فانتهز الفرنج الفرصة، ونصبوا السلالم، وصعدوا على السور، وملكوا المدينة. فسفكوا دماء أهلها، وسبوا نساءهم ونهبوا أموالهم. وهرب من قدر على الهرب والتجئوا إلى البربر والعرب. ثم نودي بالأمان للناس كافة. فرجع كل من فرّ منها. وأقام الفرنج ستة أشهر حتى حصنوا أسوارها وحفروا خندقها. وعند رجوعهم أخذوا رهائن أهلها والملثم وبني مطروح ثم أعادوا رهائنهم واستقام أمر المدينة وعمرت سريعًا.

ذكر استيلاء الفرنج على مدينة المهدية وسفاقس وسوسة

كان استيلاء الفرنج على ذلك في سنة ثلاث وأبعين وخمسمائة، وذلك أن الغلاء تتابع في جميع بلاد المغرب من سنة سبع وثلاثين إلى هذه السنة، وكان أشده في سنة اثنتين وأربعين، فإن الناس فارقوا البلاد، ودخل أكثرهم إلى جزيرة صقلية، وأكل الناس بعضهم بعضًا، وكثر الفناء. فاغتنم رجار ملك صقلية هذه الفرصة، وعمر أسطولاً نحو مائة وخمسين شينيًا، وشحنها بالرجال والعُدد. وساروا إلى جزيرة

---

(١) بنو مطروح: طائفة من الطوائف.

قوصرة ـ وهي بين المهدية وصقلية ـ فصادفوا بها مركبًا وصل من المهدية. فأُخذ أهله وأُحضروا بين يدي جُرْجي مقدم الأسطول، فسألهم عن حال إفريقية. ووجد في المركب قفص حمام. فأمر الرجل الذي كان الحمام صحبته أن يكتب بخطه: «إننا لما وصلنا إلى قوصرة وجدنا بها مراكب من صقلية. فسألناهم عن الأسطول المخذول، فذكروا أنه أقلع إلى القسطنطينية». وأطلق الحمام فوصل إلى المهدية فسرّ الأمير والناس، وأراد جُرجي بذلك أن يصل بغتة.

ثم سار الأسطول من قوصرة فوصل إلى المهدية في ثاني صفر فأرسل مقدم الأسطول إلى الحسن يقول: «إنا لم نأت إلا طلبًا بثأر محمد بن رشيد صاحب قابس ورده إليها. (وكان قد أُخرج منها وبينه وبين الفرنج مودة ومصالحة) وأما أنت فبيننا وبينك عهود ومواثيق إلى مدة، ونريد منك عهودًا ومواثيق إلى مدة. ونريد منك عسكرًا يكون معنا».

فجمع الحسن الناس من الفقهاء والأعيان وشاورهم. فقالوا: «نقاتل عدونا فإن بلدنا حصين» فقال: «نخشى أن ينزلوا إلى البرّ، ويحصرونا برًا وبحرًا، وتنقطع الميرة عنا وليس عندنا ما يقوم بنا شهرًا واحدًا. وأنا أرى سلامة المسلمين من القتل والأسر خيرًا من الملك. وقد طلب مني عسكرًا إلى قابس، فإن فعلت فما يحلّ إعانة الكفار على المسلمين، وإن امتنعت يقول: انتقض ما بيننا من الصلح. وليس لنا بقتاله طاقة. والرأي عندي أن نخرج بالأهل والولد، ونترك البلد. فمن أراد أن يفعل كفعلنا فلْيُبادر معنا». وأمر في الحال بالرحيل وأخذ معه ما خفّ حمله وخرج، وتبعه الناس على وجوههم بأهلهم وأولادهم وما خفّ من أموالهم وأثاثهم. ومن الناس من اختفى عند النصارى وفي الكنائس هذا والأسطول في البحر يمنعه الريح من الوصول إلى المدينة. فما مضى ثلثا النهار حتى لم يبق بالبلد ممن عزم على الخروج أحد.

ودخل الفرنج البلد بغير مانع ولا مدافع. ودخل جرجي القصر فوجده على حاله لم يأخذ منه الحسن شيئًا إلا ما خفّ من ذخائر الملوك. ووجد فيه عدة من حظاياه. ورأى الخزائن مملوءة من الذخائر النفيسة، ومن كل شيء غريب فختم عليه. وجمع سراري الحسن في قصر. ولما ملك المدينة نُهبت مقدار ساعتين ثم نودي بالأمان. فخرج من كان مستخفيًا. وأصبح جرجي من الغد، فأرسل إلى من قرب من العرب فدخلوا البلد. فأحسن إليهم وأعطاهم أموالاً جزيلة. وأرسل أمانًا إلى من خرج من المهدية، ودواب يحملون عليها الأطفال فرجعوا.

قال: ولما استقرّ جرجي بالمهدية سيّر أسطولاً بعد أسبوع إلى مدينة سفاقس، وأسطولاً إلى مدينة سوسة. فأما سوسة فإن أهلها لما سمعوا خبر المهدية ـ وكان علي بن الحسن واليًا عليها ـ فخرج إلى أبيه، وخرج الناس لخروجه. فدخلها الفرنج بغير قتال في ثاني عشر صفر منها. أما سفاقس فإن أهلها أتاهم كثير من العرب فامتنعوا بهم. فقاتلهم الفرنج فخرج إليهم أهل البلد. فأظهر الفرنج الهزيمة وتبعهم المسلمون حتى أبعدوا عن البلد. ثم عطفوا عليهم فانهزم قوم إلى البلد، وقوم إلى البرية. وقُتل منهم جماعة. ودخل الفرنج البلد بعد قتال شديد وقتلى كثيرة. وأُسر من بقي من الرجال وسُبي الحريم. وذلك في الثالث عشر من صفر منها. ثم نُودي بالأمان فعاد أهلها إليها. ووصلت كتب من رجار صاحب صقلية بالأمان إلى جميع أهل إفريقية، والمواعيد الحسنة. وصار للفرنج من طرابلس الغرب إلى قريب تونس، ومن المغرب إلى دون القيروان.

ذكر انقراض دولة بني زيري من إفريقية وما اتّفق للحسن بن علي بعد خروجه من المهدية

كان انقراض دولتهم من إفريقية بخروج الحسن بن علي بن يحيى بن تميم من المهدية، وكان خروجه منها على ما قدمناه في ثاني صفر سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، ومدة ملكه سبعًا وعشرين سنة وتسعة أشهر وتسعة أيام.

وعدة من ولّي منهم تسعة ملوك، وهم زِيرِي بن مناد، ثم ابنه يوسف بُلُكِّين، ثم ابنه المنصور بن يوسف، ثم ابنه بادِيس بن المنصور، ثم ابنه المُعِز بن باديس، ثم ابنه تَميم بن المعز، ثم ابنه يحيى بن تميم، ثم ابنه علي بن يحيى، ثم ابنه الحسن بن علي هذا، وعليه انقرضت الدولة.

ومدة قيامهم منذ عَمّر زيري بن مناد مدينة آشير في سنة أربع وعشرين وثلاثمائة وإلى هذا الوقت مائتي سنة وتسع عشرة سنة، ومنذ تسلّم يوسف بلكين بلاد المغرب من المعز لدين الله أبي تميم مَعد ـ عند رحيله إلى الديار المصرية على ما قدمناه ـ مائة سنة، وإحدى وثمانين سنة وشهرًا واحدًا وتسعة أيام.

ولم يبق منهم ببلاد المغرب غير بني حماد[١]، وسنذكر انقراض دولتهم في أخبار عبد المؤمن إن شاء الله تعالى.

---

(١) بنو حماد: بطن من لواته، من البربر. وقيل: بنو حماد: بطن من بلى، من القحطانية... (نهاية الأرب للقلقشندي).

ذكر ما اتفق للحسن بن علي بعد خروجه من المهدية

قال: لم خرج من المهدية سار بأهله وأولاده، وكانوا اثني عشر ذكرًا غير الإناث. وقصد محرز بن زياد وهو بالمعلَّقة فوصل إليه فلقيه لقاءً جميلاً وتوجّع لما حلّ به. وأقام عنده شهورًا والحسن كاره للمقام. وأراد المسير إلى ديار مصر إلى الحافظ العُبيْدي، واشترى مركبًا ليسافر فيه. فاتصل ذلك بجرجي الفرنجي المتغلب على ملكه، فجهز شواني لأخذه. فرجع الحسن عن ذلك.

وقصد المسير إلى عبد المؤمن ببلاد المغرب يستنصر به على الفرنج. فأرسل ثلاثة من أولاده، وهم يحيى وعلي وتميم، إلى يحيى بن العزيز بالله، وهو من بني حماد، وهما ابنا عم يرجعون كلهم في النسب إلى زيري بن مناد، وكان يحيى هذا قد ولي بعد أبيه. واستأذنه في الوصول إليه، وتجديد العهد به، والمسير من عنده إلى عبد المؤمن. فأذن له يحيى في ذلك فسار الحسن إليه. فلما وصل إلى بلاده لم يجتمع به وسيّره إلى جزيرة بني مزغنان هو وأولاده ووكل بهم من يمنعهم من التصرف. فبقوا هناك إلى أن ملك عبد المؤمن مدينة بجاية في سنة سبع وأربعين وخمسمائة. ثم صار من أصحاب عبد المؤمن وشهد معه فتح المهدية على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار عبد المؤمن.

ذكر ابتداء دولة الملثمين وأخبارهم ومن ملك منهم

كان ابتداء أمرهم ـ على ما حكاه عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن شداد بن الأمير تميم بن المعز بن باديس في تاريخه المترجم «بالجمع والبيان في أخبار المغرب والقيروان» بسند يرفعه إلى القاضي أبي الحسن علي بن فنون قاضي مراكش: أن رجلاً من قبيلة جُدّالة من كبرائهم اسمه الجوهر أتى من الصحراء إلى بلاد المغرب طالبًا للحج، وذلك في عشر الخمسين وأربعمائة. وكان مُؤثرًا للدين، محبًّا في الخير، مكرمًا للصالحين. فمرّ بفقيه يُقرَأ عليه مذهب الإمام مالك بن أنس وحوله جماعة. قال: والغالب أنه أبو عمران قاضي[1] القيروان. فآوى إليه وأصغى إلى ما يُذكَر في

(١) هو أبو عمران الفاسي موسى بن عيسى بن أبي حاج البربري الغفجومي نسبة إلى غفجوم بطن من زناتة قبيلة من البربر بالمغرب شيخ المالكية بالقيروان وتلميذ أبي الحسن القابسي دخل الأندلس وأخذ عن عبد الوارث بن سفيان وطائفة وحجّ مرات وأخذ علم الكلام ببغداد عن ابن الباقلاني. . . (شذرات الذهب ٣: ٢٤٧).

مجلسه من علم الشريعة. فأحبّ سماعه وأناب إليه قلبه. ثم استمر في وجهته إلى الحج وقد أثر ذلك في نفسه.

فلما حجّ وانصرف قصد المسجد الذي كان فيه الفقيه، وسمع الكلام فيما تقتضيه ملّة الإسلام من الفرائض والسنن والأحكام. فقال الجوهر: «يا فقيه، ما عندنا في الصحراء من هذا الذي تذكرونه شيء إلا الشهادتين في العامة، والصلاة في بعض الخاصة» فقال الفقيه: «فاحمل معك من يعلّمهم عقائد ملتهم وكمال دينهم» فقال له الجوهر: «فابعث معي أحد الفقهاء، وعليّ حفظه وبره وإكرامه». وكان للفقيه ابن أخ اسمه مر، فقال له: «اذهب مع هذا السيد إلى الصحراء فعلِّم القبائل بها ما يجب عليهم من دين الإسلام، ولك الثواب الجزيل من الله عزّ وجل، والذكر الجميل من الناس» فأجابه إلى ذلك. فلما أصبح عمر من الغد جاء إلى عمه فقال له: «أعْفِني من الدخول إلى الصحراء فإن أهلها جاهلية، قد ألفوا سِيَرًا نشؤوا عليها فمتى نُقلوا عنها قتلوا من أمرهم بخلافها». وكان من طلبة الفقيه رجل يقال له عبد الله بن ياسين الكزولي فرأى الفقيه وقد عزّ عليه مخالفة ابن أخيه، فقال: «يا فقيه، أرسلني معه والله المُعين» فأرسله معه. وتوجها إلى الصحراء. وكان عبد الله بن ياسين فقيهًا عالمًا ورِعًا دينًا شهمًا قويّ النفس حازمًا ذا رأي وصبر وتدبير حسن.

فدخل الجوهر وعبد الله بن ياسين إلى الصحراء. فانتهوا إلى قبيلة لمتونة، وهي على ربوة عالية. فلما رأوها نزل الجوهر عن جمله، وأخذ بزمام جمل عبد الله بن ياسين تعظيمًا لدين الإسلام. فأقبلت أعيان لمتونة وأكابرهم للقاء الجوهر والسلام عليه. فرأوه يقود الجمل فسألوه عنه فقال: «هو حامل سنة رسول الله ﷺ، قد جاء يعلم أهل الصحراء ما يلزمهم في دين الإسلام» فرحّبوا به وأنزلوه أكرم نُزل.

ثم اجتمعت طائفة كبيرة من تلك القبيلة في محفل وفيهم أبو بكر بن عمر. فقالوا: «تذكر لنا ما أشرت إليه أنه يلزمنا؟» فقصّ عليهم عبد الله عقائد الإسلام وقواعده وبيَّن لهم حتى فهم ذلك أكثرهم. ثم اقتضاهم الجواب، فقالوا: «أما ما ذكرته من الصلاة والزكاة فذلك قريب. وأما قولك: من قَتل يُقتَل، ومن سرق يُقطع، ومن زنا يُجلد، فأمر لا نلتزمه ولا ندخل تحته. اذهب إلى غيرنا».

فرحلا عنهم والجوهر الجدالي يجر زمام جمل عبد الله بن ياسين فنظر إليه شيخ كبير منهم فقال: «أرأيتم هذا الجمل؟ لا بد أن يكون له في هذه الصحراء شأن يذكر في العالم».

قال: وكان بالصحراء قبائل العرب[١]، وهي لمتونة وجدالة ولمطة وانبيصر وايتوارى ومسوفة وأفخاذ عدة، وكل قبيلة قد حازت أرضًا تسرح فيها مواشيهم، ويحمونها بسيوفهم. وهذه القبائل ينسبون إلى حمير، ويذكرون أن أسلافهم خرجوا من اليمن في الجيش الذي أنفذه أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى الشام. وانتقلوا إلى مصر ثم توجهوا إلى المغرب مع موسى بن نصير. وتوجهوا مع طارق إلى طنجة ثم اختاروا الانفراد فدخلوا الصحراء واستوطنوها وأقاموا بها.

قال: وسار الجوهر حتى انتهى بعبد الله إلى قبيلة جدالة. فخاطبهم عبد الله هم والقبائل المتصلة بهم. فمنهم من سمع وأطاع ومنهم من أعرض وعصى. ثم إن المخالفين لهم تحزبوا وانحازوا. فقال عبد الله للذين قبلوا منه الإسلام: «قد وجب عليكم أن تقاتلوا هؤلاء الذين خالفوا الحق وأنكروا دين الإسلام. فاستعدوا لقتالهم، واجعلوا لكم حزبًا، وأقيموا لكم راية، وقدموا لكم أميرًا» فقال له الجوهر: «أنت الأمير» فقال عبد الله: «لا يمكنني هذا! إنما أنا حامل أمانة الشرع، أقص عليكم نصوصه وأبيّن لكم طريقه، وأعرِّفكم سلوكه. ولكن أنت الأمير» فقال الجوهر: «لو فعلت هذا لتسلطت قبيلتي على الناس ولعاثوا في الصحراء، ويكون وزر ذلك عليّ. لا رأي لي في هذا» فقال عبد الله: «فهذا أبو بكر بن عمر رأس لمتونة وكبيرها، وهو رجل جليل القدر، مشكور الحال، محمود السيرة، مطاع في قومه، نسير إليه ونعرض تقدمة الإمرة عليه، فلحب الرياسة يستجيب إلى ذلك بنفسه، ولمكان الجاه ستجتمع إليه طائفة من قبيلته نقوى بها على عدونا. والله المستعان».

ذكر ولاية أبي بكر بن عمر اللمتوني

قال: فأتوا أبا بكر بن عمر فأجاب، وعقدوا له راية وبايعوه بيعة الإسلام، وتبعه زمرة من قومه. وسماه عبد الله بن ياسين أمير المسلمين.

ورجعوا إلى جدالة وجمعوا إليهم من أمكن من الطوائف الذين حسن إسلامهم، ومن الأقوام الذين تألفت قلوبهم. وحرّضهم عبد الله على الجهاد في سبيل الله، وسماهم المرابطين. وتألبت عليهم أحزاب من الصحراء معاندين من أهل الشّر والفساد، وجيّشوا لمحاربتهم. فلم يناجزهم الحرب ولا بادرهم بلقاء بل تلطف عبد الله

---

(١) لم يذكر هذه القبائل ياقوت في معجمه، وكذلك ابن خرداذبة في كتاب «المسالك والممالك» فقد وردت «لمطة» في الكلام على أعراض البربر... ص٩٠.

وأبو بكر في أمرهم، واستمالوهم، واستعانوا على أولئك الأشرار المفسدين بالمصلحين من قبائلهم يَسْبُونَهم قومًا بعد قوم بضروب من التوصل حتى حصلوا منهم تحت زَرْب[1] عظيم وثيق ما ينيف على ألفي رجل من المفسدين وتركوهم فيه أيامًا بغير طعام وهم يحفظون الزرب من سائر جهاته، وقد خندقوا حوله. ثم أخرجوهم قومًا بعد قوم وقتلوهم عن آخرهم.

فحينئذ دانت لهم أكثر قبائل الصحراء وهابهم كل من فيها، وقويت شوكة المرابطين. هذا وعبد الله بن ياسين يعلّم الشريعة ويقرىء الكتاب والسنة، حتى صار حوله فقهاء. وكل من انقاد إلى الحق على طريق الورع والتقى والخشية لله والمراقبة، فرتّب له أوقاتًا للمواعظ والتذكير وإيراد الوعد والوعيد. فاستقام منهم خلق كثير، وخلصت عقائدهم وزكت نفوسهم، وصفت قلوبهم.

ذكر مقتل الجوهر الجدالي

قال: كان الجوهر أصح القوم عقيدة، وأخلصهم لله دينًا، وأكثرهم صومًا وتهجدًا[2]. فلما استبدّ أبو بكر بالأمر دونه، وعبد الله ينفّذ الأمور بالسنة، فصارت الدولة لهما. وبقي الجوهر لا حكم له فداخله الحسد، وأزلّه الشيطان، فشرع في إفساد الأمر سرًا. فعُلم بذلك منه وعُقد له مجلس. فثبت عليه ما ذُكر عنه، فحُكم عليه بالقتل لأنه نكث البيعة، وشقّ العصا، وهمَّ بمحاربة أهل الحق. فقال الجوهر: «وأنا أيضًا أحب لقاء الله عزّ وجل حتى أرى ما عنده» فاغتسل وصلّى ركعتين، وتقدم طائعًا. فضُربت عنقه رحمه الله تعالى.

قال: وكثرت طائفة المرابطين، وتتبعوا المعاندين لهم من قبائل الصحراء بالقتل والنهب والسّبي إلا من أسلم منهم وسالم. وبلغت الأخبار الفقيه بما جرى في الصحراء على يد ابن ياسين من سفك الدماء ونهب الأموال وسبي الحريم. فعظم ذلك عليه واشمأز منه وندم على إرساله، وكتب له في ذلك. فأجابه عبد الله بن ياسين: «أما إنكارك علي ما فعلت وندامتك على إرسالي، فإنك أرسلتني إلى أمة كانت جاهلية، يخرج أحدهم ابنه وابنته لرعي السوام[3] فيعزبان[4] في المرعى. فتأتي المرأة حاملًا من أخيها ولا ينكرون ذلك. وليس دأبهم إلا إغارة بعضهم على بعض

---

(١) الزرب: حظيرة الغنم، أو الحفرة يكمن فيها الصائد.

(٢) التهجد: صلاة الليل.

(٣) السوام: ما يرعى من حيوان.

(٤) يعزبان: يبعدان.

وقتل بعضهم لبعض. ولا دية لهم في الدماء، ولا حرمة عندهم للحريم، ولا توقى بينهم في الأموال، فأخبرتهم بالمفروض عليهم والمسنون لهم والمحدود فيهم. فمن قبل واليته، ومن تولى أزديته، وما تجاوزت حكم الله ولا تعديته. والسلام».

ذكر خروج الملثّمين إلى السوس أولاً وثانيًا ومقتل عبد الله بن ياسين

قال: وفي سنة خمسين وأربعمائة، قحطت بلاد الملثمين وماتت مواشيهم ولقوا شدة عظيمة. فأمر عبد الله ضعفاءهم بالخروج إلى السوس الأقصى وأخذ الزكاة. فخرجوا وقالوا: «نحن مرابطون خرجنا إليكم من الصحراء نطلب حق الله من أموالكم» فجمعوا لهم شيئًا له بال. فرجعوا به إلى الصحراء.

ثم ضاقت الصحراء بالمرابطين لشظفها وكثرتهم. فطلبوا إظهرا كلمة الحق، فخرجوا إلى السوس الأقصى. فتسامع بهم أهل بلاد السوس، فاجتمعوا وجيَّشوا، وخرجوا لقتالهم. وصدَقوهم القتال، فكسروهم. وقُتل ابن ياسين، وانهزم جيش المرابطين.

فجمع أبو بكر جيشًا وخرج إلى بلاد السوس ثانية في ألفي راكب. فاجتمع عليه من قبائل بلاد السوس وزناتة اثني عشر ألف فارس. فأرسل إليهم رسلاً وقال لهم: «افتحوا لنا الطريق، فما قصدنا إلا غزو المشركين» فأبوا ذلك واستعدُّوا للقتال. فنزل أبو بكر وصلّى الظهر على درقته[1] ثم قال: «اللهم إن كنا على الحق فانصرنا عليهم، وإن كنا على الباطل فأرِحنا بالموت مما نحن فيه». ثم ركب ولقيهم فانهزموا. وقتل فيهم قتلاً ذريعًا، واستباح أسلابهم وأموالهم وعُدَدهم. فقويت نفسه ونفوس أصحابه.

ذكر استيلائه على مدينة سجلماسة[2]

قال: ثم سار أبو بكر في أطراف البلاد إلى مدينة سجلماسة. فنزل عليه وطلب أصحابه من أهلها الزكاة. فقالوا لهم: «إنكم لما أتيتمونا في عدد قليل وسعكم فضلنا. والآن فضعفاؤنا فيهم كثرة، وقد آثرناكم سنين. وما هذه حالة من يطلب

---

(١) الدرقة: الترس من جلد ليس فيه خشب ولا عقب.

(٢) سجلماسة: بكسر أوله وثانيه، وسكون اللام، وبعد الألف سين مهملة: مدينة في جنوبي المغرب في طرف بلاد السودان، بينها وبين فاس عشرة أيام تلقاء الجنوب... (معجم البلدان).

الزكاة بالسلاح والخيل. وإنما أنتم قوم محتالون ولو أعطيناكم أموالنا بأسرها ما عمتكم». وخرج إليهم صاحبها في عسكر كبير فحاربوه. وطالت الحرب بينهم.

ثم ساروا إلى قُول، وهو جبل قريب من الصحراء. فاجتمع إليهم من كزولة خلق كثير. ورجعوا إلى سجلماسة، واستولوا عليها بعد حروب. وقتل مسعود بن ورُّو. واستخلف أبو بكر عليها يوسف بن تاشفين اللمتوني من بني عمه الأقربين ورجع إلى الصحراء. وكان فتحها في سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة.

قال: ولما ولّي يوسف بن تاشفين أحسن إلى الرعية واقتصر منهم على الزكاة.

قال: وأقام أبو بكر بالصحراء مدة ثم عاد إلى سجلماسة فأقام بها سنة، والخطبة والدعاء والأمر والنهي له. ثم استخلف على سجلماسة ابن أخيه أبا بكر بن إبراهيم بن عمر. وجهز يوسف بن تاشفين وجيشًا من المرابطين إلى السوس ففتح له وعلى يديه.

وتوفي أبو بكر في سنة اثنتين وستين وأربعمائة بالصحراء.

ذكر ولاية يوسف بن تاشفين

قال: ولما توفي أمير المسلمين أبو بكر بن عمر، اجتمعت طوائف المرابطين على يوسف بن تاشفين، وولوه أمرهم، وسموه أمير المسلمين. وكانت الدولة حينئذ في بلاد المغرب لزناتة الذين ثاروا في أيام الفتن. وهي دولة رديئة مختلّة سيئة السيرة مذمومة الطريقة. وكان يوسف ومن معه على نهج السنة واتباع أئمة الشريعة فاستغاث به أهل بلاد المغرب، فافتتحها شرقًا وغربًا بأيسر سعي. وأحبته الرعية وصلحت أحوالهم.

ذكر بناء مدينة مراكش

قال: ثم قصد أمير المسلمين موضع مدينة مراكش، وهو قاع صفْصف لا عمارة فيه، وهو سُقْع[1] متوسط في مملكة بلاد المغرب كالقيروان في بلاد إفريقية، تحت جبال المصامدة[2] الذين هم أشد أهل المغرب قوة وأمنعهم معقلاً. فاختط المدينة هناك ليتقوى على تدويخ أهل تلك البلاد. واتخذها دار ملكه، ومقرّ سكنه. فلم

---

(١) السقع: الصقع.

(٢) المصامدة: نسبة إلى مصمودة: وهي قبيلة بالمغرب فيه موضع يعرف بهم... (معجم ياقوت).

يعانده أحد من أهل تلك النواحي لهيبته في نفوسهم وعظم ذكره بالمغرب. وملك المدائن المتصلة بالبحر مثل سبتة وسَلا[١] وطنجة وغيرها. وكثرت أمواله وجنوده. وخرج إليه جماعة لمتونة وكثير من القبائل. وضيّق لثامه هو وجماعته.

ذكر ما قيل في سبب لثام المرابطين

قيل: إنهم كانوا في الصحراء يتلثمون لشدة الحر والبرد كما يفعل العرب في البرية، والغالب على ألوانهم السمرة. فلما ملكوا البلاد ضيّقوا ذلك اللثام.

وقيل: إن طائفة منهم من لمتونة في الصحراء خرجوا للإغارة على عدوهم. فخالفهم العدو إلى بيوتهم، ولم يكن بها إلا الصبيان والمشايخ والنساء. فلما تحقق المشايخ أنه العدو أمروا النساء أن يلبسن ثياب رجالهن، ويتعممن بالعمائم، ويسترن وجوههن باللثام، وأن يضيقنه حتى لا يعرفن. ففعلن ذلك ولبسن السلاح. وتقدم المشايخ والصبيان أمامهن واستدرن هن بالبيوت. فلما أشرف العدو رأى جمعًا عظيمًا هاله وقال: «هؤلاء حول حريمهم يقاتلون عليه قتال نخوة وقد ترجلوا للموت. والرأي أن نسوق النّعم ونمضي. فإن تبعونا قاتلناهم خارج البيوت». فبينما هم في جمع النعم من مراعيها إذ أقبل رجال الحي، فصار العدو بينهم، فقُتلوا شر قِتلة ولم يسلم منهم إلا القليل. وقتل النساء منهم أكثر مما قتل الرجال. فاستَنُّوا اللثام من ذلك الوقت. فلا يزيلونه ليلاً ولا نهارًا حتى إن الرجل لا يأكل ولا يشرب مع أهله إلا من تحت اللثام والمقتول منهم في المعركة لا يعرفه أصحابه بوجهه بل بلثامه.

قال ابن شداد: ومما رأيت أنه كان لي صديق منهم بدمشق فأتيت يومًا إلى زيارته. فدخلت إليه وقد غسل عمامته، وسراويله مشدودة على رأسه، وقد تلثم بخلخاله[٢]. هذا بعد أن انقضت دولتهم، وتفرقت جملتهم، وتغربوا في البلاد.

قال: ولقد حكى لي من أثق به أنه رأى شيخًا من الملثمين بالمغرب بعد انقضاء الدولة، منزويًا في ضفة نهر، يغسل خُلْقانه[٣] وهو عريان، وعورته بارزة، ويده اليمنى يغسل بها والأخرى يستر بها وجهه. فقال له: «استر عورتك بيدك» فقال: «أنا ملثم بها».

---

(١) سلا: مدينة بأقصى المغرب ليس بعدها معمور إلا مدينة صغيرة يقال لها غرينطوف. . . (معجم البلدان).

(٢) لعل المراد بالخلخال هنا: الثوب الخلخال، وهو ضرب من الثياب الرقيقة.

(٣) خلقانه: ثيابه البالية.

وقال بعض الشعراء في اللثام: [من الطويل]

قـومٌ لـهـم دَرَكُ الـعُـلـى فـي حـمْـيـرٍ ... وإذا انـتـمـوا صـنـهـاجـةً فـهـمُ هـمُ[1]

لـمـا حَـووا إحـرازَ كـلِّ فـضـيـلـة ... غـلـب الـحـيـاءُ عـلـيـهـمُ فـتـلـثّـمـوا

وقال آخر: [من الطويل]

إذا التـثـمـوا بـالـرَّيـط خِـلـتَ وجـوهـهـم ... أزاهـرَ تـبـدو مـن فُـتـوق الـكـمـائـمِ[2]

أو الـتَـأمـوا بـالـسـابِـريـة أبْـرزوا ... عـيـونَ الأفـاعـي مـن جـلـود الأراقـمِ[3]

نرجع إلى أخبار يوسف بن تاشفين

قال: واستقامت له الأمور. وتزوج زينب بنت إبراهيم زوجة أبي بكر بن عمر، وكانت حظية عنده، وأميرة عليه. وكذلك جميع الملثمين ينقادون لأمور نسائهم، ولا يسمون الرجل إلا بأمه فيقولون: ابن فلانة، ولا يقولون: ابن فلان.

وكانت زينب لها عزم وحزم. حُكي عنها أن زرهون ـ ويعرف بابن خلوف ـ وكان له أدب، فبلغ زينب أنه مدح حواء امرأة سير بن أبي بكر وفضّلها على سائر النساء بالجمال والكمال. فأمرت بعزله عن القضاء. فوصل إلى أغمات[4] واستأذن عليها. فدخل البواب وأعلمها به، فقالت: «قل له: امضِ إلى التي مدحتَها تردك إلى القضاء». فبقي بالباب أيامًا حتى نفدت نفقته. فأتى إلى خادمها فقال له: «إن مولاتك صرفتني ونقمت على مدحي لامرأة سير. ولو علمتُ أن ذلك يغضبها ما قلته. وقد نفدت نفقتي، وأردت بيع هذا المُهر، وعزَّ علي أن يصير في يد من لا يستحقه، وأنا أحب أن تعطيني مثقالين أتزود بهما إلى أهلي. وخذ المهر فأنت أحق به». فسُرَّ الخادم وأعطاه مثقالين وأخذ المهر. ودخل على مولاته زينب وهو فرحان. فقالت له: «ما شأنك؟» فأخبرها الخبر. فرقّت للقاضي وندمت على ما فعلت به. وقالت: «اذهب فأتني به الساعة» فأحضره إليها. فقالت له: «تمدح زوجة سير وتفضلها على

---

(١) درك العلا: أقصاه وأبعد مراميه.

(٢) الريط: جمع الرائطة، وهي الملاءة كلها نسج واحد وقطعة واحدة؛ أو هي كل ثوب لين رقيق.

(٣) الأراقم: جمع الأرقم، وهو أخبث الحيات أو ذكرها.

(٤) أغمات: ناحية في بلاد البربر من أرض المغرب قرب مراكش، وهي مدينتان متقابلتان كثيرة الخير، ومن ورائها إلى جهة البحر المحيط السوس الأقصى بأربع مراحل... (معجم البلدان).

سائر النساء، وخرجتَ في وصفك لها عن الحدّ، وزعمت أن ليس في الأرض أجمل منها، وما هذه منزلة القضاء ولا يليق بك أن تُنزل نفسك في هذه المنزلة» فقال ارتجالاً: [من مجزوء الخفيف]

أنتِ بالشمس لاحِقهْ وهي بالأرض لاصِقهْ
فمتى ما مدحتُها فهي من سِيرَ طالقه

فقالت له: «يا قاضي، طلقتها منه؟» قال: «نعم، ثلاثة وثلاثة وثلاثة» فضحكت حتى افتضحت وقالت له: «والله، لا شم لها قفًا أبدًا». وكتبت إلى يوسف برده إلى القضاء، فرده.

ذكر استيلائه على مدينة أغرناطة من جزيرة الأندلس

كان سبب ذلك ما قدمناه في أخبار الدولة العبادية أن المعتمد بن عباد لما وقع بينه وبين الأدفونش ملك الفرنج صاحب طليطلة، وقتل ابن عباد رسله، وجمع الأدفونش عساكره؛ استنجد ابن عباد بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين. فدخل بعساكره إلى جزيرة الأندلس، واجتمع بالمعتمد بن عباد، وتوجها جميعًا لقتال الفرنج. وكانت وقعة الزلاقة[1] التي انهزم فيها الأدفونش وقُتل عامة عسكره على ما قدمناه مبيَّنًا في أخبار المعتمد بن عباد. وذلك في العشر الأول من شهر رمضان سنة تسع وسبعين وأربعمائة.

ورجع أمير المسلمين إلى مراكش فأقام بها إلى العام الآتي. ثم دخل إلى الأندلس. وخرج إليه محمد بن عباد من إشبيلية في عسكره. وأتى عبد الله بن بلكين صاحب أغرناطة في عسكره. وساروا حتى نزلوا على ليطة، وهو حصن منيع كان فيه النصارى فحاربوه أيامًا فلم يطيقوا فتحه، فرحلوا عنه بعد مدة.

ورجع المعتمد إلى إشبيلية. وكان طرق يوسف بن تاشفين على مدينة أغرناطة. فدخل عبد الله بن بلكين إليها ليخرج إلى يوسف الوظائف. فغدر به يوسف ودخل أغرناطة وأخرجه منها واستولى عليها. ودخل قصر عبد الله فوجد فيه من الأموال والذخائر ما لم يحوه ملك من ملوك الأندلس. ومما وجد فيه سُبْحة فيها أربعمائة

(١) الزلاقة: بفتح أوله، وتشديد ثانيه، وقاف: أرض بالأندلس بقرب قرطبة.

جوهرة، قُوِّمت كل جوهرة بمائة مثقال؛ ومن أنواع الجواهر واليواقيت والزمرد ما لا تحصى قيمته؛ من العيْن ألف ألف دينار؛ ومن فاخر الثياب وأواني الذهب والفضة ما لا تعرف له قيمة. وأخرج منها تميم بن بلكين أخا عبد الله، وسار بهما إلى مراكش. وذلك في سنة ثمانين وأربعمائة. ورجع أمير المسلمين إلى مراكش فأطاعه من كان لم يُطعه من بلاد السوس ووزغة وقلعة مهدي.

ذكر ملك أمير المسلمين جزيرة الأندلس

وفي سنة أربع وثمانين وأربعمائة، ملك من جزيرة الأندلس ما كان بقي بيد المسلمين بها، وهي قرطبة وإشبيلية والمرية وبطليوس[١]. وذلك أنه سار في هذه السنة من مراكش إلى سبتة. وأدخل العساكر مع سير بن أبي بكر إلى الأندلس وحشد خلقًا كثيرًا، وأمره بمحاصرة إشبيلية. فحاصرها وفتحها في يوم الأحد لتسع بقين من شهر رجب من هذه السنة. وأسر المعتمد بن عباد ونقله إلى أغمات فحبسه بها حتى مات، على ما قدمناه مهينًا في أخبار ابن عباد.

قال: ثم خرج سير من إشبيلية إلى مدينة المرية فنزل عليها. وكان واليها محمد بن معن بن صُمادح فقال لولده: «ما دام المعتمد بن عباد بإشبيلية فلسنا نُساءَل عنه» فأتاه الخبر بفتح إشبيلية وأسر ابن عباد فمات غمًّا. فخرج ولده بإخوته وأهله في مركب حربي شحنه بأمواله. وأقلع إلى الجزائر والتحق ببني حماد، فأحسنوا إليه وأسكنوه مدينة تَدلَّس[٢].

قال: وكان أبو محمد عمر بن محمد بن عبد الله بن مسلمة المعروف بابن الأفطس صاحب بطليوس ممن أعان المعتمد، فلما سمع بإشبيلية رجع إلى بلده. فسار إليه سير بن أبي بكر فحاربه وغلبه. وأُتي به وبولده الفضل أسيرين، فأمر سير بضرب أعناقهما. فقال: «قدِّموا ولدي قبلي للقتل ليكون في صحيفتي» فقُتل قبله ثم قُتل هو بعده.

قال: ولم يترك سير من ممالك الأندلس وملوكهم سوى بني هود[٣]. فإنه لم

---

(١) بطليوس: بفتحتين، وسكون اللام، وياء مضمومة، وسين مهملة: مدينة كبيرة بالأندلس من أعمال ماردة على نهر آنه غربي قرطبة... (معجم البلدان).

(٢) في معجم ياقوت: تدليس: مدينة بالمغرب الأقصى على البحر المحيط.

(٣) بنو هود: بطن من جذام من القحطانية. وهم بنو هود بن عبد الله بن موسى بن سالم الجذامي... كان لهم ملك بالأندلس أيام الطوائف... (نهاية الأرب للقلقشندي).

يقصد بلادهم وهي شرقي الأندلس. وصاحبها يومئذ المستعين بالله بن هود، وهو من الشجعان الذين يضرب بهم المثل. وكان قد حصَّل عنده من آلات الحصار والأقوات ما يكفيه عدة سنين بمدينة رُوطَة[١]، وكانت قلعة حصينة. وكان يهادن أمير المسلمين قبل ملكه الأندلس ويُكثر مراسلته. فرعى له ذلك حتى أنه أوصى ابنه علي ابن يوسف عند موته بترك التعرض إلى بلاد بني هود. وقال «اتركهم بينك وبين العدو فإنهم شجعان».

قال: وتتابعت الفتوح على أمير المسلمين حتى احتوى على جميع بلاد الأندلس التي كانت للمسلمين وما والاها من البلاد في البرّ الكبير، من جميع بلاد السوس والجبال والصحراء. وفتح في بلاد الفرنج فتوحًا كثيرًا.

ذكر حيلة لأمير المسلمين ظهرت ظهورًا عجيبًا

قال: كان بالمغرب إنسان اسمه محمد بن إبراهيم الكزولي سيد قبيلة كزُولة، ملَك جبلها، وهو جبل شامخ منيف، وهي قبيلة كبيرة وكان بينه وبين يوسف بن تاشفين مودّة واجتماع. فلما كان في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة، أرسل يوسف إليه يطلب الاجتماع به. فركب حتى قاربه ثم رجع وخافه على نفسه. فكتب إليه أمير المسلمين يحلف أنه ما أراد به سوءًا ولا قصد إلا خيرًا. فلم يرجع لذلك.

فدعا يوسف حجامًا وأعطاه مائة دينار وضمن له مثلها إن سار إلى محمد بن إبراهيم وتحيّل في قتله. فسار الحجام ومعه مشاريط مسمومة فصعد الجبل. وجعل ينادي بالقرب من مساكن محمد. فسمعه فقال: «هذا الحجام من بلدنا؟» فقيل: «إنه غريب» فقال: «أراه يكثر الصياح، وقد ارتبت منه» فأحضره عنده. واستدعى حجامًا غيره وأمره أن يحجمه بمشاريطه التي معه. فامتنع الحجام الغريب. فأُمسك وحُجم بها، فمات. فلما بلغ ذلك يوسف ازداد غيظًا وحنقًا، ولجّ في السعي في أذى يوصله إلى الكزولي.

فاستمال قومًا من أصحابه فمالوا إليه. فأرسل إليهم جرارًا من عسل مسموم. فحضروا عند محمد وقالوا: «قد وصل إلينا قوم معهم جرار من عسل، وأردنا إتحافك به» وأحضروها بين يديه. فلما قُدمت له أمر بإحضار خبز، وأمر أولئك القوم الذين

---

(١) روطة: بضم أوله، وسكون ثانيه، وطاء مهملة: حصن من أعمال سرقسطة بالأندلس، وهو حصين جدًا على وادي شلون. . . (معجم البلدان لياقوت).

أحضروا العسل أن يأكلوا منه فامتنعوا واستعفوا من الأكل. فقال: «مَن لم يأكل منه قُتل بالسيف» فأكلوا فماتوا عن آخرهم.

فكتب إلى أمير المسلمين: «إنك قد أردت قتلي بكل سبب فلم يُظفِّرك الله، وكشف لي عن سريرتك. وقد أعطاك الله المغرب بأسره، ولم يعطني إلا هذا الجبل. وهو في بلادك كالشامة البيضاء في الثور الأسود. فلم تقنع بما أعطاك الله عزّ وجل». فكفّ أمير المسلمين عنه.

ذكر ولاية أمير المسلمين من قبل الخليفة أمير المؤمنين المستظهر بالله

قال: كان الفقهاء بالأندلس قالوا لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين: «إنه لا تجب طاعتك على المسلمين حتى يكون لك عهد من الخليفة». فأرسل قومًا من أهله إلى بغداد بهدية نفيسة، وكتاب يذكر فيه ما فعل بالفرنج، وما قصده من نصرة الدين والجهاد في سبيل الله. فجاءه رسول من أمير المؤمنين أبي العباس أحمد المستظهر بالله بهدية وكتاب وتقليد وخلع. ودام ملك أمير المسلمين إلى سنة خمسمائة فتوفي فيها. فكانت مدة ولايته ثماني وثلاثين سنة تقريبًا.

وكان ديّنًا حازمًا سؤوسًا ذا دهاء، إلا أنه أبان عن لؤم لما اعتقل المعتمد بن عباد بأغمات، فإنه لم يجْرِ عليه ما يقوم به حتى كانت بناته يغزلن بالأجرة للناس وينفقن عليهن وعليه.

ولما مات يوسف ولّي بعده ابنه.

ذكر ولاية علي بن يوسف بن تاشفين

كانت ولايته بعد وفاة أبيه في سنة خمسمائة. وكان أبوه قد عقد له الأمر بعده في سنة تسع وتسعين وأربعمائة فاستقلّ بالأمر بعده وتلقب بأمير المسلمين. وكان يقتدي في القضايا والأحكام بفقهاء بلاده، ويقربهم ويكرمهم. وإذا أتته نصيحة قبلها أو موعظة خشع لها. وسار في رعيته أحسن سيرة، فأحبه الناس واشتملوا عليه ومالوا إليه.

ذكر محاربة الفرنج خذلهم الله تعالى وانهزامهم

وفي سنة خمس وخمسمائة، خرج ملك الفرنج صاحب طليطلة إلى بلاد الإسلام وجمع وحشد. وكان قد قوي طمعه في البلاد لما مات يوسف بن تاشفين.

فخرج أمير المسلمين عليّ لحربه، ولقيه واقتتلوا قتالاً شديدًا. وكان الظفر للمسلمين، وانهزم الفرنج أقبح هزيمة، وقُتلوا قتلاً ذريعًا، وأسر منهم أسرى كثيرة، وسبى، وغنم من أموالهم ما يخرج عن الإحصاء. فخافه الفرنج بعد ذلك. وامتنعوا من قصد بلاده وذل الأدفونش.

ذكر الفتنة بقرطبة

وفي سنة ثلاث عشرة وخمسمائة، وقيل: أربع عشرة، كانت فتنة عظيمة بين عسكر أمير المسلمين علي بن يوسف وبين أهل قرطبة وسببها أنه كان قد استعمل عليها أبا بكر يحيى بن داود. فلما كان يوم عيد الأضحى، خرج الناس متفرجين. فمدّ عبد من عبيد أبي بكر يده إلى امرأة ومسكها. فاستغاثت بالمسلمين فأعانوها. فوقع بين العبيد وأهل البلد فتنة عظيمة. ودامت جميع النهار إلى الليل وتفرقوا. واجتمع الفقهاء والأعيان إلى أبي بكر وقالوا له: «المصلحة أن تقتل واحدًا من العبيد الذين أثاروا الفتنة» فأنكر ذلك وغضب منه.

وأصبح من الغد وأظهر السلاح والعدد وأراد قتال أهل البلد فركب الفقهاء والأعيان والشباب، وقاتلوه فهزموه. وتحصن منهم بالقصر، فحصروه ونصبوا السلاليم وصعدوا إليه. فهرب من البلد بعد مشقّة وتعب. فنهبوا القصر وأحرقوا جميع دور المرابطين ونهبوا أموالهم. وأخرجوهم من البلد على أقبح صورة.

واتصل الخبر بأمير المسلمين فأكبر ذلك واستعظمه. وجمع العساكر من صنهاجة وزناتة والبربر وغيرهم. وجاء إلى قرطبة في سنة خمس عشرة وخمسمائة وحصرها. فقاتلهم أهلها قتال من يذب[1] عن نفسه وماله وحريمه. فلما رأى شدة قتالهم دخل السفراء بينهم وسعوا في الصلح. فأجاب إلى ذلك على أن يغرم أهل قرطبة للمرابطين ما نهبوه من أموالهم. فاستقرت القاعدة على ذلك، وعاد عن قتالهم.

وفي أيام عليّ بن يوسف، ظهر المهدي محمد بن تومرت وعبد المؤمن بن علي، فضعف أمر الملثمين. وكان بينهم من الحروب ما نذكره في أخبار الموحدين.

وكانت وفاة عليّ بمراكش في سنة خمس وثلاثين وخمسمائة. فكانت مدة ولايته خمسًا وثلاثين سنة.

ووليّ بعده ابنه.

---

(١) ذبّ عن نفسه: دفع عنها ومنع.

ذكر ولاية تاشفين بن عليّ بن يوسف بن تاشفين

كان أبوه قد ولاه العهد وأخرجه لحرب عبد المؤمن. فما زال يحاربه والغلبة والظفر لعبد المؤمن إلى أن توفي والده عليّ بن يوسف. فاستقل بالأمر بعده ولازم حرب عساكر عبد المؤمن إلى أن مات في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان سنة تسع ثلاثين وخمسمائة.

إسحاق بن عليّ

ووليّ بعده أخوه إسحاق بن عليّ فضعف أمر دولتهم، واستولى عبد المؤمن على البلاد وملكها بلدًا بلدًا، إلى أن حاصر عبد المؤمن مراكش وملكها في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، فقتله عبد المؤمن صبرًا. وانقرضت دولة الملثمين.

وكانت مدة ولايتهم من حين خرجوا من البرية في سنة خمسين وأربعمائة إلى أن قتل إسحاق إحدى وتسعين سنة. وعدة من ملك منهم خمسة ملوك، وهم أبو بكر بن عمر، ثم يوسف بن تاشفين، ثم ابنه علي بن يوسف، ثم ابنه تاشفين بن علي، ثم إسحاق بن علي. وعليه انقرضت الدولة. وسنورد في أخبار الموحدين طرفًا من أخبارهم وحروبهم، إن شاء الله تعالى.

ذكر ابتداء دولة الموحدين وأخبارهم
وسبب ظهورهم

أول من ظهر من ملوك هذه الدولة، وأسس قواعدها، وقام بأعبائها وأنشأها، المهدي محمد بن تُومَرْت. وكان ابتداء أمره وظهوره في سنة أربع عشرة وخمسمائة. وسنذكر ابتداء حاله وكيف تنقلت به الحال وما كان منه، إن شاء الله تعالى.

ذكر أخبار المهديّ محمد بن تومرت

هو أبو عبد الله محمد بن تومرت الحَسني، وقبيلته من المَصامدة تعرف بَهرْغَة في جبل السوس، نزلوا به لما فتحه المسلمون مع موسى بن نصير. وكان ابتداء أمر المهدي أنه رحل في شبيبته إلى بلاد المشرق في طلب العلم. وكان فقيهًا فاضلًا محدِّثًا، عارفًا بأصولي الدين والفقه، محققًا لعلم العربية، وكان ورعًا ناسكًا. ووصل

في سفره إلى العراق. واجتمع بالغزالي[١] والكِيَا الهراسي، وقيل: لم يجتمع بالغزالي. واجتمع بأبي بكر الطرطوشي[٢] بالإسكندرية. وحجّ ورجع إلى المغرب.

قال: ولما ركب البحر من الإسكندرية مُغرِّبًا غيَّر المنكرات في المركب. وألزم من فيه بإقامة الصلاة وقراءة القرآن حتى انتهوا إلى المهدية، وسلطانها حينئذ يحيى بن تميم بن المعز بن باديس، وذلك في سنة خمس وخمسمائة. فنزل بمسجد وليس معه سوى رَكْوة[٣] وعصا. فتسامع به أهل البلد فقصدوه يقرؤون عليه أنواع العلوم. فكان إذا مرّ به المنكر أزاله وغيره. فلما كثر ذلك منه، أحضره الأمير يحيى مع جماعة من الفقهاء. فأعجبه سَمْتُه وكلامه فاحترمه وسأله الدعاء.

ثم رحل من المهدية وأقام بالمُنَستير[٤] مع جماعة من الصالحين مدة.

وسار إلى بجاية وفعل مثل ذلك. فأُخرج منها إلى قرية بالقرب منها اسمها ملالة[٥]، فلقيه بها عبد المؤمن. فرأى منه من النجابة والنهضة ما تفرّس فيه التقدم والقيام بالأمر. فسأله عن اسمه وقبيلته. فأخبره أنه من قيس عَيْلان ثم من بني سُلَيم فقال محمد بن تومرت: «هذا الذي بشّر به رسول الله ﷺ حين قال: إن الله لينصر هذا الدين في آخر الزمان برجل من قيس. فقيل: من أي قيس؟ فقال: من بني سليم». واستبشر بعبد المؤمن وسُرَّ بلقائه. وكان مولد عبد المؤمن بمدينة تاجرة[٦] من أعمال تلمسان، وهو من بني عائد قبيلة من كومية نزلوا بذلك الإقليم في ثمانين ومائة.

---

(١) هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي، الملقب حجة الإسلام زين الدين الطوسي الفقيه الشافعي، لم يكن للطائفة الشافعية في آخر عصره مثله، اشتغل في مبدأ أمره بطوس على أحمد الراذكاني، ثم قدم نيسابور واختلف إلى دروس إمام الحرمين أبي المعالي الجويني... وخرج من نيسابور إلى العسكر، ولقي الوزير نظام الملك فأكرمه وعظّمه... (وفيات الأعيان ٤: ٢١٦).

(٢) هو أبو بكر الطرطوشي - وطرطوشة من نواحي الأندلس - محمد بن الوليد القرشي الفهري الأندلسي المالكي المعروف بابن أبي زيد نزيل الإسكندرية وأحد الأئمة الكبار، أخذ عن أبي الوليد الباجي ورحل فأخذ السنن عن أبي علي التستري وسمع ببغداد من رزق الله التميمي وطبقته وتفقه على أبي بكر الشاشي... (شذرات الذهب ٤: ٦٢).

(٣) الركوة: إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء.

(٤) المنستير: بضم أوله، وفتح ثانيه، وسكون السين المهملة، وكسر التاء المثناة من فوقها، وياء، وراء: هو موضع بين المهدية وسوسة بإفريقية بينه وبين كل واحد منهما مرحلة... (معجم البلدان).

(٥) ملالة: بالفتح ثم التشديد: قرية قرب بجاية على ساحل بحر المغرب.

(٦) تاجرة: بفتح الجيم والراء: بلدة صغيرة بالمغرب من ناحية هنين من سواحل تلمسان، بها كان مولد عبد المؤمن بن علي صاحب المغرب... (معجم البلدان).

قال: ولم يزل المهدي يلازم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى أن وصل إلى مراكش، وهي دار مملكة علي بن يوسف بن تاشفين. فرأى فيها من المنكرات أكثر مما عاينه في طريقه. فزاد أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فكثر أتباعه وحسنت ظنون الناس فيه.

فبينما هو في بعض الأيام في طريقه، إذ رأى أخت أمير المسلمين في موكبها ومعها عدة من الجواري الحسان، وهن مُسفِرات. وكانت هذه من عادتهم. فحين رأى النساء كذلك أنكر عليهن وأمرهن بستر وجوههن. وضرب هو وأصحابه دوابهن. فسقطت أخت أمير المسلمين عن دابتها. فرُفع أمره إلى أمير المسلمين عليّ بن يوسف. فأحضره الفقهاء لمناظرته، فأخذ يعظه ويذكِّره ويخوفه، فبكى أمير المسلمين. وأمر أن يناظروه فلم يكن فيهم من يقوم له لقوة أدلته. وكان عند أمير المسلمين رجل من وزرائه اسمه مالك بن وهيب فقال له: «يا أمير المسلمين إن هذا والله لا يريد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إنما هو يريد إثارة فتنة والغلبة على بعض النواحي، فاقتله وقَلِّدني دمه». فلم يفعل ذلك فقال: «إذا لم تقتله فاحبسه وخَلِّده في السجن وإلا أثار شرًّا لا يمكن تلافيه» فأراد حبسه فمنعه من ذلك رجل من أكابر الملثمين يسمى بنيان بن عمران. فأمر بإخراجه من مراكش.

فسار إلى أغمات ولحق بالجبل. وسار منه حتى التحق بالسوس الذي فيه قبيلته هرغة وغيرهم من المصامدة، وذلك في سنة أربع عشرة وخمسمائة. فأتوه واجتمعوا حوله. وتسامع به أهل تلك النواحي فوفدوا إليه، وحضر أعيانهم بين يديه. فجعل يعظهم، ويذكرهم شعائر الإسلام وما غيِّر منها وما حدث من الظلم والفساد، وأنه تجب طاعة دولة من هذه الدول لاتباعهم الباطل بل الواجب قتالهم ومنعهم مما هم عليه. فأقام على ذلك نحو سنة. وتابعته قبيلة هرغة.

وسمّي أتباعه الموحدين. وأعلمهم أن النبيّ ﷺ بشّر بالمهديّ الذي يملأ الأرض عدلاً، وأن مكانه الذي يخرج منه المغرب الأقصى. فقام إليه عشرة رجال منهم عبد المؤمن فقالوا: «لا يوجد هذا إلا فيك، وأنت المهديّ» وبايعوه على ذلك.

فانتهى خبره إلى أمير المسلمين فجهز جيشًا من أصحابه لقتاله. فلما قربوا من الجبل الذي هو فيه قال لأصحابه: «إن هؤلاء يريدونني وأخاف عليكم منهم. والرأي أن أخرج إلى غير هذه البلاد لتسلموا أنتم» فقال له ابن توفيان من مشايخ هرغة: «هل تخاف شيئًا من السماء؟» فقال: «بل من السماء تنصَرون» فقال ابن نوفيان: «فليأتنا كل من في الأرض» ووافقته جميع قبيلته. فقال المهدي عند ذلك: «أبشروا بالنصر والظفر

بهذه الشرذمة. وبعد قليل تستأصلون دولتهم وترثون أرضهم» فنزلوا من الجبل ولقوا جيش أمير المسلمين، فهزموهم وأخذوا أسلابهم. وقوي ظنهم بصدق المهديّ حيث ظفروا كما أخبرهم.

فأقبلت إليه أفواج القبائل من الجبال التي حوله شرقًا وغربًا فأقبل عليهم واطمأن إليهم، وأتته رسل أهل تينملّ بطاعتهم وطلبوه إليهم. فتوجه إلى جبل تينمل وأقام به واستوطنه. وبايعته قبيلة هنتاتة[1]، وهي من أقوى القبائل. وألّف كتابًا في التوحيد، وكتابًا في العقيدة. ونهج لمن معه طريق الأدب مع بعضهم بعضًا، والاقتصار على لباس الثياب القليلة الثمن. وهو في خلال ذلك يحرضهم على قتال عدوهم، وإخراج الأشرار من بين أظْهُرهم. وبني له مسجدًا بتينمل خارج المدينة، فكان يصلّي فيه الصلوات الخمس هو وجميع من معه، ويدخل البلد بعد العشاء الآخرة.

فلما رأى كثرة أهل البلد وحصانة المدينة، خاف أن يرجعوا عنه. فأمرهم أن يحضروا عنده بغير سلاح. ففعلوا ذلك عدة أيام. ثم أمر أصحابه أن يقتلوهم، فقتلوهم في ذلك المسجد. ثم دخل المدينة فقتل فيها وأكثر، وسبى الحريم، ونهب الأموال. فكانت عدة القتلى خمسة عشر ألفًا. وقسم المساكن والأرض بين أصحابه. وبنى على المدينة سورًا وقلعة على رأس جبل تينمل، وهو جبل عال فيه أشجار وزرع وأنهار جارية، والطريق إليه صعب.

وقيل: إنه لما خاف أهل تينمل، نظر إلى أولادهم فرآهم شقرًا زرقًا، والذي يغلب على الآباء السمرة، فقال لهم: «ما لي أراكم سمر الألوان وأولادكم شقرًا زرقًا؟» فقالوا: «إن لأمير المسلمين عدة من المماليك الفرنج والروم، وإنهم يصعدون إلى هذا الجبل في كل عام مرة، يأخذون ما لهم فيه من الأموال المقررة من جهة السلطان، فيسكنون البيوت، ويُخرجون أصحابها منها» فَقبّح الصبر على هذا وأزرى عليهم وعظّم الأمر عندهم. فقالوا له: «فكيف الحيلة في الخلاص منهم، وليس لنا بهم قوة؟» فقال: «إذا حضروا عندكم في الوقت المعتاد وتفرقوا في مساكنكم، فليقم كل رجل إلى نزيله فيقتله، واحفظوا جبلكم فإنه لا يرام». ففعلوا ذلك عند مجيء مماليك أمير المسلمين إليهم ثم خافوا على نفوسهم فامتنعوا في الجبل وسدُّوا ما فيه من طريق يسلك إليهم منه.

---

(١) هنتاتة: بطن من مصمودة، من البربر. منهم أبو حفص، أحد أصحاب المهدي بن تومرت، الذي من ذريته بقايا الموحدين ملوك إفريقية. . . (نهاية الأرب للقلقشندي).

فقويت عند ذلك نفس المهديّ ثم أرسل أمير المسلمين جيشًا كثيفًا. فحصرهم في الجبل وضيّق عليهم ومنع عنهم الميرة. فقلّت الأقوات عند أصحابه، فكان يطبخ لهم الحساء في كل يوم، وجعل قوت الرجل منهم أن يغمس يده في ذلك الحساء ويخرجها، فما علق عليها فهو قوته في ذلك اليوم. فاجتمع أهل تينمل وأرادوا إصلاح حالهم مع أمير المسلمين فبلغه ذلك فأعمل من الحيلة عليهم ما نذكره.

ذكر خبر أبي عبد الله الونشريسي

قال: كان مع المهدي إنسان يقال له أبو عبد الله الونشريسي، وهو يُظهر الوَلَه وعدم المعرفة بشيء من العلم والقرآن، وبُصاقُه يجري على صدره، وهو كالمعتوه، والمهديّ يقربه ويكرمه ويقول: «إن لله سرًّا في هذا الرجل سوف يظهر» هذا والونشريسي يشتغل بالقرآن والعلم في السر بحيث لا يعلم به أحد.

فلما كان في سنة تسع عشرة وخمسمائة، خاف المهدي من أهل الجبل. فخرج يومًا لصلاة الصبح، فرأى إلى جانب محرابه إنسانًا طيب الرائحة، فأظهر أنه لا يعرفه وقال: «مَن هذا؟» قال: «أنا أبو عبد الله الونشريسي» فقال له المهديّ: «إن أمرك لعجيب» ثم صلّى. فلما فرغ من صلاته نادى في الجبل. فاجتمع الناس وحضروا إليه. فقال لهم: «إن هذا الرجل يزعم أنه الونشريسي، فانظروه وحققوا أمره». فلما أضاء النهار عرفوه. فقال له المهدي: «ما قصتك؟» قال: «إنني أتاني الليلة مَلَك من السماء، فغسل قلبي، وعلمني القرآن والموطأ وغيره من العلوم والأحاديث» فبكى المهديّ بحضرة الناس ثم قال: «نمتحنك؟» فقال: «افعل» وابتدأ بقراءة القرآن فقرأه قراءة حسنة من أي موضع سُئل. وكذلك الموطأ وغيره وكتب الفقه والعلوم والأصول. فعجب الناس من ذلك واستعظموه.

ثم قال: «إن الله قد أعطاني نورًا أعرف به أهل الجنة من أهل النار، وآمركم أن تقتلوا أهل النار وتتركوا أهل الجنة. قد أنزل الله تعالى ملائكة إلى البئر الفلانية يشهدون بصدقي» فسار المهديّ والناس معه وهم يبكون إلى تلك البئر. ووقف عند رأسها وصلّى وقال: «يا ملائكة الله، إن أبا عبد الله قد زعم كيت وكيت» فسمع من أسفل البئر: «صَدَق، صَدَق» وكان قد رتب بها رجالاً يفعلون ذلك. فلما تكلموا قال المهديّ: «إن هذه البئر بئر مطهّرة مقدَّسة قد نزل إليها الملائكة، والمصلحة أن تُطَمّ[1] لئلا يقع فيها نجاسة». فألقوا فيها من الحجارة والتراب ما طَمها.

---

(١) طمّ الشيء: غمره وغطاه.

ثم نادى في الجبل بالحضور للتمييز ومعناه العرض. فكان الونشريسي يعمد إلى الرجل الذي تخاف ناحيته فيقول: «هذا من أهل النار» فيلقى من الجبل، وإلى الشاب الغر ومن لا يخشاه فيقول: «هذا من أهل الجنة». فيُترَك عن يمينه. فكانت عدة القتلى سبعين ألفًا. فلما فرغ من ذلك أمن على نفسه. هذا هو المشهور عنه في التمييز.

وقيل إن ابن تومرت لما رأى كثرة أهل الشر والفساد في الجبل أحضر شيوخ القبائل وقال لهم: «إنكم لا يصلح لكم دين ولا تقوى إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإخراج المفسدين من بينكم، فابحثوا عن كل من عندكم من أهل الشر والفساد فانَهوهم، فإن انتهوا وإلا فأثبتوا أسماءهم وارفعوها إليّ لأنظر في أمرهم. ففعلوا ذلك وكتبوا له أسماء المفسدين من كل قبيلة. ثم أمرهم بذلك مرة ثانية وثالثة. ثم جمع أوراقهم وأخذ منها ما تكرر من الأسماء وأثبته عنده. ودفع ذلك إلى الونشريسي المعروف بالبشير. وأمره أن يعرض القبائل، وأن يجعل أولئك من جهة الشمال، ومن عداهم في جهة اليمين، ففعل ذلك. وأمر المهديّ أن يكتف من على شمال الونشريسي فكتِّفوا. ثم قال: «إن هؤلاء أشقياؤكم قد وجب قتلهم». وأمر كل قبيلة بقتل أشقيائها فقُتلوا عن آخرهم.

قال: ولما فرغ من التمييز رأى من بقي من أصحابه على نيات خالصة وقلوب متفقة على طاعته. فجهز جيشًا وسيَّرهم إلى جبال أغمات، وبها جمع كبير من المرابطين. فقاتلوهم فانهزم أصحاب ابن تومرت، وكان أميرهم الونشريسي. وقُتل كثير منهم. وجُرح عمر أنتات وهو الهَنْتاني[1]، وكان من أكبر أصحاب المهديّ وسَكَن حسُّه ونَبْضه. فقالوا: «مات». فقال الونشريسي: «لم يمت ولا يموت حتى يملك البلاد». فبعد ساعة فتح عينيه وعادت قوته إليه. فافتتنوا به ورجعوا إلى ابن تومرت فوعظهم وشكر صبرهم.

ثم لم يزل بعد ذلك يرسل السرايا في أطراف البلاد فإذا رأوا عسكرًا تعلقوا بالجبل فأمنوا على أنفسهم. وعلا أمر المهديّ فرتب أصحابه على طبقات.

ذكر ترتيب أصحاب المهديّ

قال: ورتب المهدي أصحابه مراتب. فالأولى آية عشرة، يعني أهل عشرة، وأولهم عبد المؤمن، ثم أبو حفص عمر انتات وهو الهَنْتاتي وغيرهما، وهم أشرف أصحابه، وأهل الثقة عنده، والسابقون إلى مبايعته.

---

(١) الهنتاني: نسبة إلى هنتانة، وقد تقدم ذكرها.

والثانية آية خمسين، وهم دون تلك الطبقة، وهم جماعة من رؤساء القبائل.

والثالثة آية سبعين، وهم دون الذين قبلهم في الرتبة والسابقة.

وسمّي عامة أصحابه والداخلين في طاعته مُوَحِّدين.

ذكر حصار مراكش ووقعة البحيرة ومقتل أبي عبد الله الونشريسي

قال: وفي سنة أربع وعشرين وخمسمائة، جهز المهدي جيشًا كثيفًا يبلغون أربعين ألفًا أكثرهم رجالة. وجعل عليهم الونشريسي وسيّر معه عبد المؤمن. فساروا إلى مراكش وحصروها وضيّقوا على مَن بها، وبها أمير المسلمين علي بن يوسف. فبقي الحصار عليها عشرين يومًا. فأرسل أمير المسلمين إلى متولي سجلماسة يأمره أن يحضر ومعه الجيوش. فجمع جمعًا كثيرًا وسار. فلما قارب عسكر المهدي، خرج أهل مراكش من غير الجهة التي أقبل منها. والتقوا واقتتلوا، واشتد القتال، وكثر القتل في أصحاب المهدي. وقتل أميرهم الونشريسي. فولُّوا عبد المؤمن أمرهم، وقدّموه عليهم. ودام القتال بينهم عامة النهار. وصلّى عبد المؤمن صلاة الخوف الظهر والعصر والحرب قائمة. فلما رأى المصامدة كثرة المرابطين وقوتهم أسندوا ظهورهم إلى بستان كبير يسمونه عندهم البحيرة. وصاروا يقاتلون من وجه واحد إلى أن حجز بينهم الليل.

قال: ولما قُتل الونشريسي، دفنه عبد المؤمن لوقته سرًّا. فطلبه المصامدة فلم يروه في القتلى فقالوا: «رفعته الملائكة».

قال: ولم جَنَّهم[1] الليل، سار عبد المؤمن ومن سلم من القتل إلى الجبل. وسميت هذه الوقعة بالبحيرة، وعام البحيرة.

ذكر وفاة المهدي محمد بن تومرت

كانت وفاته في سنة أربع وعشرين وخمسمائة، وذلك أنه مرض بعد إرسال الجيش لحصار مراكش واشتد مرضه. وأتاه خبر الهزيمة وقتل الونشريسي، فسأل عن عبد المؤمن. فقيل: «هو سالم» فقال: «ما مات أحد، والأمر قائم، وهو الذي يفتح كل البلاد» ووصّى أصحابه بتقديمه، واتباعه، وتسليم الأمر إليه، والانقياد له. ولقبه

(١) جنّهم الليل: سترهم.

أمير المؤمنين ثم مات. وكان عمره إحدى وخمسين سنة، وقيل: مات وله خمس وخمسون سنة. ومدة ولايته عشر سنين.

ذكر ولاية عبد المؤمن بن علي

كانت ولايته بعد وفاة المهدي محمد بن تومرت في سنة أربع وعشرين وخمسمائة، بوصية من المهدي كما ذكرناه. وكان في الغزو فعاد إلى تينمل وتسلم الأمر، وتلقَّب بأمير المؤمنين على ما لقَّبه به المهدي قبل وفاته. وأقام يتألف القلوب ويحسن إلى الناس إلى سنة ثمان وعشرين وخمسمائة.

ذكر خروجه للغزو وما فتحه من البلاد ومن أطاعه من القبائل

قال: وفي هذه السنة ابتدأ عبد المؤمن بالغزو. وسار في جيش كثيف، وجعل يمشي في الجبل إلى أن وصل إلى تَادِلة(١) فمانعه أهلها وقاتلوه فهزمهم وفتحها. وتم منها إلى البلاد التي تليها. ومشى في الجبال يفتح ما امتنع عليه. وأطاعه صنهاجة الجبل. قال: فعند ذلك جعل أمير المسلمين علي بن يوسف ولده تاشفين بن علي ولي عهده، وأحضره من الأندلس، وكان أميرًا عليها، وندبه لقتال عبد المؤمن، وذلك في سنة إحدى وثلاثين. فسار تاشفين لحربه، فكان يمشي في الصحراء وعبد المؤمن في الجبال.

وفي سنة اثنتين وثلاثين، كان عبد المؤمن بجيشه في النواظر - وهو جبل عال مشرف - وتاشفين في الوطأة، ويخرج من الطائفتين قوم يتطاردون ويترامون، ولم يكن بينهم لقاء. وسمّي هذا عام النواظر، ويؤرخونه به.

وفي سنة ثلاث وثلاثين، توجه عبد المؤمن مع الجبل في الشَّعْراء(٢) حتى انتهى إلى جبل كَرانطة(٣) فأقام به في أرض صلبة بين شجر، وتاشفين قبالته في الوطأة في أرض لينة لا نبات بها. وكان الفصل شتاء، فتوالت الأمطار أيامًا كثيرة. فصار

---

(١) تادلة: مدينة على الطريق بين تلمسان وسجلماسة، قريبة من أغمات، اشتهرت بالقطن والخصب والغنى.

(٢) الشعراء: الشجر الكثير، أو الأرض ذات الشجر الكثير.

(٣) كرانطة: مدينة ذات كروم وفواكه ومزارع، على الطريق من فاس إلى التلمسان.

الموضع الذي فيه تاشفين وعسكره كالسباخ[١] لا يستطيع الماشي أن ينقل فيها قدمًا. وقلّت الأقوات عندهم فهلكوا جوعًا وبردًا حتى وقدوا رماحهم وقَرابيس[٢] سروجهم، وعبد المؤمن ومن معه في تلك الأرض الصلبة والميرة تصل إليهم.

وفي ذلك الوقت سيّر عبد المؤمن جيشًا إلى وَجْدة[٣] من أعمال تلمسان. وقدم عليهم أبا عبد الله محمد بن رفُوا من آية خمسين. فبلغ خبرهم إلى محمد بن يحيى متولي تلمسان. فخرج إليهم بجيش من الملثمين فالتقوا بموضع يعرف بمرج الحُمُر واقتتلوا فهزمهم الموحدون. وقُتل محمد بن يحيى وكثير من أصحابه، وغنم الموحدون ما معهم ورجعوا بأسلابهم إلى عبد المؤمن.

فتوجه عبد المؤمن بجميع جيشه إلى جبال غمارة[٤] فأطاعوه قبيلة بعد قبيلة. وأقام عندهم مدة.

وما برح يمشي في الجبال وتاشفين يحاذيه في الصحاري إلى سنة خمس وثلاثين وخمسمائة، فتوفي علي بن تاشفين بمراكش، وملك بعده ابنه تاشفين. فقوي طمع عبد المؤمن في البلاد إلا أنه لم ينزل الصحراء.

وفي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة، توجه عبد المؤمن إلى تلمسان. فنازلها وضرب خيامه في جبل عال بأعلاها يسمّى بين الصخرتين. ونزل تاشفين خارج مدينة تلمسان على باب القرمادين. وكان بين أقوام من العسكرين مراماة ومطاردة مع الأيام. ودام ذلك أشهرًا. ولم يكن بينهم مناجزة.

ورحل عبد المؤمن في سنة تسع وثلاثين إلى جبل تاجرة. ووجّه جيشًا مع عمر بن يحيى الهنتاتي إلى مدينة وهران[٥] فهاجمها بغتة وصار هو وجيشه فيها. فسار إليه تاشفين فخرج الهنتاتي منها. ونزل تاشفين على الجانب الآخر من البلد. وذلك في شهر رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة.

---

(١) السباخ: جمع السبخ، وهو المكان يظهر فيه الملح وتسوخ فيه الأقدام.

(٢) القرابيس: جمع قربوس، وهو حنو السرج، وهما قربوسان.

(٣) وجدة: مدينة كبيرة البساتين والمزروعات بينها وبين تلمسان ثلاث مراحل.

(٤) بنو غمارة: بطن من معمورة، من البرانس، من البربر. وهم: بنو غمارة بن مسطح بن قليل بن مصمودة بن برنس بن بربر... ومن هذه القبيلة الشيخ عبد الله الغماري، خادم سيد أبي العباس البصير الخزرجي الأندلسي البلنسي... (نهاية الأرب للقلقشندي).

(٥) وهران: بفتح أوله، وسكون ثانيه، وآخره نون: مدينة على البر الأعظم من المغرب، بينها وبين تلمسان سرى ليلة، وهي مدينة صغيرة على ضفة البحر وأكثر أهلها تجار لا يعدو نفعهم أنفسهم... (معجم البلدان).

فلما كان في ليلة سبع وعشرين من الشهر. وهي ليلة معظمة سيما بالمغرب، وبظاهر وهران ربوة مطلة على البحر، وبأعلاها ثنية يجتمع فيها المتعبدون ـ وهو موضع معظم عندهم ـ فسار إليه تاشفين في نفر قليل من خاصة أصحابه. وصعد إلى ذلك المعبد سرًّا بالليل، ولم يعلم به إلا النفر الذين معه. وقصد التبرك بحضور ختم القرآن مع الصالحين. فانتهى خبره إلى الهنتاتي، فسار لوقته بجميع عساكره إلى ذلك المعبد، وأحاطوا به وملكوا الربوة. فخاف تاشفين على نفسه أن يأخذوه، فركب فرسه وحمل به إلى جهة البحر من جرف[1] عال فسقط على حجارة فهلك. ورفعت جثته على خشبة، وقتل من كان معه.

وقيل: إن تاشفين قصد حصنًا هناك على رابية وله فيه بستان كبير فيه من كل الفواكه. واتفق أن الهنتاتي سيّر سرية إلى ذلك الحصن لضعف من فيه، ولم يعلم أن تاشفين هناك. فألقوا النار في باب الحصن فاحترق. فركب تاشفين فرسه وأراد الهرب. فوثب به الفرس من داخل الحصن إلى خارج السور فسقط في النار. فأُخذ تاشفين فعُرف. فأرادوا حمله إلى عبد المؤمن فمات لوقته. وتفرّق عسكره واحتمى بعضهم بمدينة وهران.

قال: وأرسل الموحدون بالخبر إلى عبد المؤمن. فجاء من تاجرة في يومه، ودخل وهران بالسيف وقتل من فيها.

ذكر استيلاء عبد المؤمن على تلمسان وفاس ومكناسة[2] وسلا وسبتة

قال: ثم سار عبد المؤمن إلى تلمسان، وهي مدينتان بينهما شوط فرس: تاجرت وبها أصحاب السلطان، والأخرى أجادير. وتاجررت ينطق بها بجيم محيرة بين الكاف والجيم، وكذلك أجادير. وتاجرت محدثة البناء، وأجادير قديمة. فامتنعت أجادير وتأهب أهلها للقتال. وأما تاجرت فكان بها يحيى بن الصحراوية واليًا عليها فخرج منها بعسكره فارًّا إلى مدينة فاس. ودخلها عبد المؤمن، فلقيه أهلها بالخضوع والاستكانة. فلم يقبل ذلك منهم وقتل أكثرهم.

(١) الجرف: شق الوادي إذا حفر الماء في أسفله.

(٢) مكناسة: بكسر أوله، وسكون ثانيه، ونون، وبعد الألف سين مهملة: مدينة بالمغرب في بلاد البربر على البر الأعظم، بينها وبين مراكش أربع عشرة مرحلة نحو الشرق، وهي مدينتان صغيرتان على ثنية بيضاء بينهما حصن جواد... (معجم ياقوت).

ثم رحل عنها في سنة أربعين وخمسمائة إلى مدينة فاس. ورتب على أجادير جيشًا يحصرها، وجعل عليهم يوسف بن وانُودِين بن تامصُلت الهنتاتي. فداوم الحصار وضيّق على من بها، ونصب عليها المجانيق وأبراج الخشب والدبابات. ودام الحصار نحو سنة وكان المقدم على أهلها الفقيه عثمان. فلما اشتدّ الحصار على أهلها، اجتمع جماعة منهم وراسلوا الموحدين بغير علم الفقيه، وأدخلوهم البلد. فلم يشعر أهله إلا والسيف قد أخذهم. فقتل أكثر أهل البلد، ونهبت الأموال، وسبيت الذراري والحُرَم. وبيع من لم يُقتل بأبخس الأثمان. وأُخذ من الأموال والجواهر ما لا يحصى. وكان عدة من قتل مائة ألف. وقيل: إن عبد المؤمن هو الذي حصر تلمسان وفتحها، وسار منها إلى فاس.

قال: ولما وصل عبد المؤمن إلى مدينة فاس، نزل على جبل الفرض المطل عليها. وعمل حول مخيَّمه سورًا وخندقًا. وحصرها تسعة أشهر، وبها يحيى بن الصحراوية بعسكره الذين فرُّوا من تاجرت. فعمد عبد المؤمن إلى نهر يدخل البلد فسَكَره[1] حتى صار بحيرة تسير السفن فيها. ثم هدم السُّكْر فجاء الماء دفعة واحدة، فخرب سور البلد. فأراد الدخول فقاتله أهلها خارج السور. وكان القائد عبد الله بن خيار الجَياني عاملاً عليها وعلى جميع أعمالها، فاتفق هو وجماعة أعيان البلد، وكاتبوا عبد المؤمن سرًّا في طلب الأمان لأهل فاس. فأجابهم عبد المؤمن إلى ذلك. ففتحوا له بابًا من أبواب المدينة، فدخلها عسكره. وهر بيحيى بن الصحراوية بمن معه إلى مدينة طنجة. وكان فتحها في أواخر سنة أربعين وخمسمائة. ورتب عبد المؤمن أمرها وأخذ جميع ما فيها من سلاح.

وسيّر سرية إلى مكناسة فحصروها مدة ثم سلمها أهلها بالأمان، فوفَوْا لهم.

ثم سار عبد المؤمن إلى مدينة سلا ففتحها.

وحضر إليه جماعة من أعيان سبتة، فدخلوا في طاعته وسألوا أمانه فأمنهم، وذلك في أول سنة إحدى وأربعين.

ذكر ملك عبد المؤمن مراكش وقتله إسحاق بن عليّ وانقراض دولة الملثمين

قال: ولما فرغ عبد المؤمن من مدينة فاس وتلك النواحي، سار إلى مدينة مراكش، وهي كرسي مملكة الملثمين، وبها إسحان بن عليّ بن يوسف بن تاشفين،

---

(١) سكره: سدّه.

وهو صبي. فنازلها في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة. وضرب خيامه في غربيها على جبل صغير، وبنى عليه مدينة له ولعسكره وجامعًا. وجعل لنفسه بناءً عاليًا يشرف منه على المدينة ويرى أحوال أهلها وأحوال المقاتلين. فأقام عليها أحد عشر شهرًا والقتال مستمر، ومن بها من المرابطين يخرجون ويقاتلون ظاهر البلد. فاشتد الجوع على أهله وتعذرت الأقوات عندهم.

ثم زحف إليهم يومًا، وجعل لعسكره كمينًا، وقال لعسكره: «قاتلوهم ثم انهزموا لهم» وقال للكمين: «لا تخرجوا حتى تسمعوا الطبل». وجلس هو على المنظرة يشاهد القتال. وتقدم أصحابه للقتال فقاتلوا وصبروا ثم انهزموا. وتبعهم أهل مراكش حتى جاوزوا الكمين ووصلوا إلى مدينة عبد المؤمن وهدموا أكثر سورها. وصاحت المصامدة ليضرب الطبل. فقال عبد المؤمن: «اصبروا حتى يخرج كل طامع من البلد» فلما خرج أكثر أهله أمر بضرب الطبل فضُرب وخرج الكمين عليهم وعطفت المصامدة. فقتلوا الملثمين كيف شاؤوا وتمت الهزيمة. فمات في زحمة الأبواب خلق كثير.

وكان شيوخ الملثمين يدبرون دولة إسحاق لصغر سنّه. فاتفق أن إنسانًا من جملتهم يقال له عبد الله بن أبي بكر استأمن إلى عبد المؤمن، وأطلعه على عورة البلد وضعْف من فيه، وقَوّى طمعه فيهم. فنصب عبد المؤمن عليه المجانيق والأبراج. وفنيت الأقوات فأكلوا دوابهم، ومات من العامة بالجوع ما يزيد على مائة ألف إنسان. فجاف[1] البلد من جثثهم.

وكان بمراكش جيش من الفرنج كان المرابطون قد استنجدوا بهم وأتوهم نجدة. فلما طال الأمر عليهم راسلوا عبد المؤمن يطلبون الأمان فأمنهم. ففتحوا له بابًا من أبواب البلد يقال له باب أغمات. فدخلت عساكر عبد المؤمن بالسيف، وملكوا المدينة عنوة، وقتلوا من وجدوه. ووصلوا إلى دار أمير المسلمين، فأخرجوا إسحاق وجميع من معه من المرابطين. وقدموهم للقتل وإسحاق يرتعد ويسأل العفو عنه رغبة في البقاء، ويدعو لعبد المؤمن ويبكي. فقام إليه الأمير سير بن الحاج، وكان إلى جانبه مكتوفًا، فبصق في وجهه وقال: «تبكي على أمك أم أبيك. اصبر صبر الرجال فهذا رجل لا يخاف الله تعالى ولا يَدينه بدين». فقام الموحدون إليه فضربوه بالخشب حتى مات، وكان من الشجعان. وضُربت عنق إسحاق. وذلك في سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة أو ثلاث وأربعين.

---

(١) جاف: أنتن.

قال: وأقام عبد المؤمن بمدينة مراكش واستوطنها واستقرّ ملكه بها. وقتل من أهلها فأكثر، واختفى كثير منهم. فلما كان بعد أسبوع أمر فنودي بالأمان، فخرج من اختفى من أهلها. فأراد المصامدة قتلهم، فمنعهم وقال: «هؤلاء صنّاع وأهل الأسواق ومن ينتفَع به» فتُركوا وبنى بالقصر جامعًا كبيرًا وزَخرفه وأتقن عمله. وأمر بهدم الجامع الذي بناه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين.

ذكر ظفره بدكالة

وفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، سار بعض المرابطين من الملثمين إلى دُكّالة[١]. فاجتمع إليه قبائلها وصاروا يغيرون على أعمال مراكش، وعبد المؤمن لا يلتفت إليهم. فلما كثر ذلك منهم، سار إليهم عبد المؤمن في سنة أربع وأربعين. فلما سمعت دكالة بمسيره، اجتمعت كلها وانحسروا إلى ساحل البحر، وكانوا في مائتي ألف راجل وعشرين ألف فارس، وهم من الشجاعة بالمكان المعروف. وكانت جيوش عبد المؤمن تخرج عن الحصر. وكان الموضع الذي فيه دكالة كثير الحجر والحُزون[٢]، فكَمَنوا فيه كمينًا ليخرجوا على عبد المؤمن إذا سلكه. فكان من الاتفاق الحسن أنه قصدهم من غير الجهة التي فيها الكمناء. فانحلّ عليهم النظام وفارقوا ذلك الموضع وأخذهم السيف فدخلوا البحر. فقُتل أكثرهم، وغُنمت أموالهم وأغنامهم، وسُبيت نساؤهم. فبيعت الجارية بدراهم يسيرة. وعاد عبد المؤمن إلى مراكش بالظفر والنصر. وثبت ملكه وخافه جميع من بالمغرب، وأذعنوا له بالطاعة.

ذكر ملكه جزيرة الأندلس

قال: كان ملكه لها في سنة إحدى وأربعين، وذلك أنه لما كان يحاصر مراكش، وردّ عليه جماعة من أعيان الأندلس منهم أبو جعفر أحمد بن محمد بن حمْدين، ومعهم مكتوب يتضمن بيعة أهل الأندلس لعبد المؤمن ودخولهم في زمرة أصحابه الموحدين، والتزامهم لطاعته، وإقامتهم لأمره في بلادهم. وجميع أسماء القوم الذين بايعوه مثبتة في المكتوب. فقبل عبد المؤمن طاعتهم، وشكر هجرتهم، وطيب قلوبهم. فطلبوا منه النصرة على الفرنج، فإن الفرنج كانوا قد ملكوا من بلاد

(١) دكاله: بفتح أوله وتشديد ثانيه: بلد بالمغرب يسكنه البربر.

(٢) الحزون: جمع الحزن، وهو من الأرض ما غلظ؛ ومن الدواب: ما صعبت رياضته؛ ومن الناس من خشنت معاملته.

المسلمين مدينة شنترين[١] وباجة وماردة وأشبونة وسائر المعاقل المجاورة لها، وذلك في سنة أربعين وخمسمائة. وكان سبب ذلك ما وقع من الاختلاف بين المسلمين، فطمع العدو فيهم وأخذ هذه المدن وقوي بها. ثم ملكوا في سنة اثنتين وأربعين مدينة المرية، ومدينة بياسة[٢]، وجميع ولاية جيان.

فجهز عبد المؤمن جيشًا كثيفًا وجعل مقدمه أبا عمر بن صالح من آية الخمسين. وجهز أسطولاً في البحر وجعل قائده يحيى بن عيسى بن ميمون. فغدوا إلى جزيرة الأندلس. ودخل الأسطول إلى مدينة إشبيلية في النهر، وحاصروها برًا وبحرًا، وبها جيش من الملثمين. فملكتها عساكر عبد المؤمن عنوة وقتلوا فيها جماعة. ثم أُمن الناس. واستولت عساكره على البلاد الإسلامية التي بها، ودان له أهلها.

وفي سنة ثلاث وأربعين ملك الفرنج مدنًا من الأندلس، وهي طرطوشة وجميع قلاعها وحصون لاردة[٣]، وذلك لاختلاف المسلمين.

ذكر حصار الفرنج مدينة قرطبة ورجوعهم عنها

قال: وفي سنة خمس وأربعين وخمسمائة، حصر السليطين ـ وهو الأدفونش ملك طليطلة وأعمالها، وهو من ملوك الجلالقة ـ مدينة قرطبة ـ أعادها الله ـ في أربعين ألف فارس من الفرنج. فبلغ الخبر عبد المؤمن وهو بمراكش. فجهز اثني عشر ألف فارس ومقدمهم أبو زكريا يحيى بن يومُور. فساروا حتى قربوا من قرطبة. فلم يقدروا على لقاء الفرنج في الوطأة، فساروا في الجبال الوعرة. وجعلوا يقطعون الأشجار حتى يجدوا مسلكًا. فمشوا عشرين يومًا في الوعر مسافة أربعة أيام في السهل. فأفضوا إلى جبل شامخ مطل على قرطبة. فلما رآه السليطين وتحقق أمرهم،

---

(١) شنترين: مدينة متصلة الأعمال بأعمال باجة في غربي الأندلس ثم في غربي قرطبة وعلى نهر تاجة قريب من انصبابه في البحر المحيط، وهي حصينة، بينها وبين قرطبة خمسة عشر يومًا. . . (معجم البلدان).

(٢) بياسة: ياء مشددة: مدينة كبيرة بالأندلس معدودة في كورة جيان، بينها وبين أبرة فرسخان، وزعفرانها هو المشهور في بلاد الغرب، دخلها الروم سنة ٥٤٢ وأخرجوا عنها سنة ٥٥٢هـ. . . (معجم ياقوت).

(٣) لاردة: بالراء مكسورة، والدال المهملة: مدينة مشهورة بالأندلس شرقي قرطبة تتصل أعمالها بأعمال طرّكونة منحرفة عن قرطبة إلى ناحية الجوف؛ ينسب إلى كورتها عدة مدن وحصون. . . ونهرها يقال له سيقر. . . (معجم البلدان).

رحل لوقته بجميع من معه وسار حتى غاب عن فجاج قرطبة. وكان بقرطبة القائد أبو الغمر السائب، من ولد القائد ابن غلبون من أبطال الأندلس فخرج لوقته من قرطبة وصعد إلى الجبل. واجتمع بيحيى وقال له: «انزل بمن معك إلى قرطبة وعجِّل» ففعلوا ذلك وباتوا بها. فما أصبح اليوم الثاني إلا وعسكر السليطين قد غشي الجبل الذي كان فيه يحيى. فقال لهم أبو الغمر: «هذا الذي كنت خفته عليكم». فلما علم أنهم قد فاتوه، ورأى أنه لا مطمع له في قرطبة، رحل إلى بلاده بعد أن حاصرها ثلاثة أشهر قبل وصولهم.

ذكر ملكه مدينة بجاية وملك بني حماد وانقراض دولتهم

وفي سنة ست وأربعين وخمسمائة، سار عبد المؤمن من مدينة مراكش إلى سبتة. وهيأ الأساطيل والناس يعتقدون أنه يدخل الأندلس. ونفَّذ أعيان أصحابه إلى جميع القبائل: أن يجمعوا العساكر ويرتبوها. وقطع السابلة[1] عن بلاد شرق المغرب برًّا وبحرًا.

ثم خرج من سبتة في صفر سنة سبع وأربعين. وتوجه إلى المشرق مسرعًا وطوى المراحل، والعساكر المرتبة تلقاه. فلم يشعر أهل بجاية إلا وهو في أعمالها، وكانت ليحيى بن العزيز بالله آخر ملوك بني حماد. وكان مولعًا بالصيد واللهو واللعب لا ينظر في شيء من أمور مملكته بل فوضها لميمون بن حمدون. فجمع ميمون العساكر وخرج عن بجاية. فأقام أيامًا وأحجم عن اللقاء ورجع ولم يقاتل عساكر عبد المؤمن. واعتصم يحيى بن العزيز بقلعة قسنطينية[2]. وهرب أخوه الحارث في مركب إلى جزيرة صقلية. ولحقه أخوه عبد الله وجماعة من بني عمه إلى صقلية.

ودخل عبد المؤمن بجاية وملك جميع بلاد يحيى بن العزيز بغير قتال. ثم نزل إليه يحيى بالأمان فأمنه وأنفذه إلى المغرب، وكان فيها مدة حياته رخي البال.

---

(١) السابلة: الطريق المسلوك: أو المارون عليه.

(٢) قسنطينية: بضم أوله، وفتح ثانيه ثم نون، وكسر الطاء، وياء مثناة من تحت، ونون أخرى بعدها ياء خفيفة، وهاء: مدينة وقلعة يقال لها قسنطينية الهواء، وهي قلعة كبيرة جدًا حصينة عالية لا يصلها الطير إلا بجهد، وهي من حدود إفريقية مما يلي المغرب لها طريق واتصال بآكام متناسقة جنوبيها... (معجم البلدان).

وانقرضت دولة بني حماد. وكانت مدة ملكهم منذ ولّي حماد مدينة آشير من قبل أبي مناد باديس بن المنصور بن يوسف في صفر سنة سبع وثمانين وثلاثمائة مائة سنة وستين سنة. وعدة من ملك منهم تسعة ملوك، وهم حماد بن يوسف بلكين بن زيري، ثم القائد بن حماد ثم محسن بن القائد بن حماد، ثم ابن عمه بلكين بن محمد، ثم الناصر بن علناس بن محمد بن حماد، ثم ابنه المنصور، ثم ابنه باديس بن المنصور ولم تطل أيامه حتى مات، وولّي بعده العزيز بالله بن المنصور بن الناصر، ثم يحيى بن العزيز هذا. وعليه انقرضت دولتهم.

وكان يحيى قد اعتقل الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس ـ كما ذكرناه ـ وسُرّ بما ناله من أخذ الفرنج بلاده. فلم تطل المدة حتى فاجأه القدر واستلب ملكه. واجتمع الحسن ويحيى في مجلس عبد المؤمن على بساط واحد. واستصحب عبد المؤمن الحسن معه، وألحقه بخاصته، وأعلى مرتبته. ولم يفارقه في سفر ولا حضر إلى أن فتح المهدية، فأقرّ الحسن بها وأمر واليها أن يقتدي برأيه، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر ظفره بصنهاجة وملكه قلعة حماد

قال: ولما ملك عبد المؤمن بجاية، تجمعت صنهاجة في أمم كثيرة. وتقدم عليهم رجل اسمه أبو قبيصة. واجتمع معهم من كتامة ولوانة وغيرها ما لا يحصى كثرة، وقصدوا حرب عبد المؤمن. فأرسل إليهم جيشًا كثيفًا، ومقدمهم أبو سعد يخلف، وهو من آية خمسين. فالتقوا في عرض الجبل شرقي بجاية[1]. فانهزم أبو قبيصة، وقتل أكثر من معه، ونهبت أموالهم، وسبيت نساؤهم وذراريهم.

ثم سار أبو سعيد إلى قلعة حماد، وهي من أحصن القلاع وأعلاها. فلما رأى أهلها عساكر الموحدين هربوا منها في رؤوس الجبال. ومُلكت القلعة وحمل جميع ما فيها من الأموال والذخائر وغير ذلك إلى عبد المؤمن.

ذكر الحرب بين عبد المؤمن والعرب وظفر عساكر عبد المؤمن بهم

قال: وفي سنة ثمان وأربعين وخمسمائة في صفر، كانت الحرب بين عساكر

---

(١) بجاية: بالكسر، وتخفيف الجيم، وألف، وياء، وهاء: مدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب. . . (معجم البلدان).

عبد المؤمن والعرب عند مدينة سطيف[١] وذلك أن عبد المؤمن لما فتح بلاد بني حماد اجتمعت العرب، وهم بنو هلال والأثبج وعدي ورياح وزغيف وغيرهم ممن يقول بقولهم من أرض طرابلس إلى أقصى المغرب. وقالوا: «إن جاورنا عبد المؤمن أجلانا من بلاد المغرب. وليس الرأي إلا اللقاء معه، وأخذه بالجد، وإخراجه من البلاد قبل أن يتمكن». وتحالفوا على التعاون والتعَاضد، وعزموا على لقائه بالرجال والأهل والمال.

واتصل الخبر بصاحب صقلية الفرنجي، فأرسل إلى أمراء العرب وهم محرز بن زياد، وجُبارة بن كامل، وحسن بن ثعلب، وعيسى بن حسن، وغيرهم، يحثّهم على ذلك، ويعرض عليهم أن يرسل إليهم خمسة آلاف فارس من الفرنج يقاتلون معهم على أن يرسلوا إليه رهائن. فشكروه وقالوا: «لا حاجة بنا إلى نجدته، ولا نستعين على المسلمين بغيرهم».

وساروا في عدد لا يحصى. وكان عبد المؤمن قد رحل من بجاية إلى بلاد المغرب. فلما بلغه خبرهم جهز إليهم جيشًا من الموحدين زهاء ثلاثين ألف فارس، ومقدمهم أبو سعيد يخلف، وعبد العزيز وعيسى أولاد أبي مَغار. وكان العرب أضعافهم، فاستخرجهم الموحدون. وتبعهم العرب إلى أن وصلوا أرض سطيف بين جبال. فصدمهم الموحدون بغتة والعرب على غير أهبة. والتقى الجمعان واقتتلوا أشد قتال وأعظمه. فانجلت المعركة عن هزيمة العرب. وذلك في يوم الخميس غرة صفر. وتركوا أموالهم وأهاليهم وأولادهم ونَعمهم. فأخذ الموحدون جميع ذلك وعادوا به إلى عبد المؤمن. فقسم الأموال في عسكره وترك النساء والأولاد تحت الاحتياط. ووكل بهم الخصيان يخدمونهم وأمر بصيانتهم. ونقلهم معه إلى مراكش فأنزلهم في المساكن الفسيحة وأجرى عليهم النفقات الواسعة.

وأمر عبد المؤمن محمدًا بمكاتبة العرب ويعلمهم أن نساءهم وأولادهم تحت الاحتياط والحفظ والصيانة. وأمرهم أن يحضروا ليسلمهم إليهم. فلما وصل كتابه إليهم سارعوا إلى المسير إلى مراكش. فأعطاهم عبد المؤمن نساءهم وأولادهم، وأحسن إليهم، ووصلهم بالأموال الجزيلة فاسترقّ قلوبهم بذلك وأقاموا عنده، واستعان بهم على ولاية ابنه محمد العهد بعده.

---

(١) سطيف: مدينة في جبال كتامة بين تاهرت والقيروان من أرض البربر ببلاد المغرب، وهي صغيرة إلا أنها ذات مزارع وعشب عظيم... (معجم ياقوت).

ذكر البيعة لمحمد بن عبد المؤمن بولاية العهد بعد أبيه

قال: وفي سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، أمر عبد المؤمن بالبيعة بولاية العهد لابنه محمد. وكان الشرْط بين عبد المؤمن وعمر الهنتاتي أن يلي الأمر بعده. فلما تمكن عبد المؤمن من الملك وكثرت أولاده أحبّ أن يكون الملك فيهم. فأحضر أمراء العرب من هلال وزُغبة وعدي وغيرهم إليه ووصلهم وأحسن إليهم. ثم وضع عليهم من يقول لهم: «اطلبوا من عبد المؤمن أن يجعل لكم ولي عهد من ولده بعده». ففعلوا ذلك. فلم يُجبهم إكرامًا لعمر الهنتاتي لعلوّ منزلته في الموحدين. فلما علم الهنتاتي ذلك خالف على نفسه. فحضر عند عبد المؤمن وخلع نفسه. فحينئذ بايع عبد المؤمن لابنه بولاية العهد. وكتب إلى جميع بلاده بذلك. وخطب له في جميع البلاد. وأخرج من الأموال شيئًا كثيرًا في ذلك اليوم.

ذكر استعمال عبد المؤمن أولاده على البلاد وأعماله

وفي سنة إحدى وخمسين أيضًا، استعمل عبد المؤمن أولاده على البلاد والأعمال، فجعل ابنه أبا محمد عبد الله على بجاية وأعمالها، وأبا حفص عمر على مدينة تلمسان وأعمالها، وأبا الحسن عليًا على مدينة فاس وأعمالها، وأبا سعيد على سبتة والجزيرة الخضراء ومالقة[١].

ولقد سلك عبد المؤمن في استعمالهم من حسن السياسة وجميل التدبير طريقًا عجيبًا يستدل به على جودة رأيه، وتوصُّله إلى مقاصده بأحسن صورة وأجمل طريقة. وذلك أنه كان قد استعمل على الأعمال شيوخ الموحدين المشهورين من أصحاب المهدي، فكان يتعذر عليه أن يعزلهم. فأخذ أولادهم وتركهم عنده، وأشغلهم بالعلوم. فلما مهروا فيها، قال لآبائهم: «إني أريد أن تكونوا عندي أستعين بكم على ما أنا بصدده وتكون أولادكم في أعمالكم» فأجابوا إلى ذلك وفرحوا به، فاستعمل أولادهم. ثم وضع عليهم من يعتمد عليه منهم فقال لهم: «إني أرى أمرًا عظيمًا قد فعلتموه فارقتم فيه الحزم والأدب» فقالوا: «وما هو؟» قال: «أولادكم في الأعمال وأولاد أمير المؤمنين ليس إليهم شيء منه مع ما هم فيه من العلم وحسن السياسة.

(١) مالقة: بفتح اللام والقاف: كلمة عجيبة: مدينة بالأندلس عامرة من أعمال ريّة سورها على شاطىء البحر بين الجزيرة الخضراء والمريّة. . . (معجم البلدان).

وإني أخاف أن ينظر في هذا فتسقط منزلتكم عنده» فعلموا صدقه. وحضروا إلى عند عبد المؤمن وسألوه أن يستعمل أولاده. فقال: «لا أفعل». فعزموا عليه حتى فعل بسؤالهم.

ذكر ملكه مدينة المرية من الفرنج وأغرناطة من الملثمين

قال: وفي سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة، كاتب ميمون بن بدر صاحب أغرناطة أبا سعيد بن عبد المؤمن صاحب مالقة والجزيرة الخضاء وسبتة أن يسلم إليه أغرناطة، فتسلمها منه. وسار إلى مالقة بأهله وولده، فسيّره أبو سعيد إلى مراكش. فأقبل عليه عبد المؤمن وأكرمه.

وانقرضت دولة الملثمين ولم يبق لهم إلا جزيرة مايزقة مع حمو بن غانية اللمتوني.

قال: ولما ملك أبو سعيد أغرناطة جمع الجيوش وسلم إلى مدينة المرية[1] ـ وهي بيد الفرنج، كانوا قد أخذوها في سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ـ فنازلها وحصرها برًّا وبحرًا. ونزل عسكره على الجبل المشرف عليها. وبنى سورًا على الجبل إلى البحر، وعمل عليه خندقًا. فصارت المدينة والحصن الذي فيه الفرنج محصورين بهذا السور والجبل. لا يمكن أن يصل إليها من ينجدها. وجمع السليطين ملك الفرنج بالأندلس الجيوش وجاء إليها، فلم يتمكن منها ورجع ومات قبل وصوله إلى طليطلة. وتمادى الحصار على المرية ثلاثة أشهر، فقلّت الأقوات على الفرنج فطلبوا الأمان. فأمنهم أبو سعيد وتسلّم الحصن. ورحلوا في البحر عائدين إلى بلادهم. وكانت مدة ملكهم المرية عشر سنين.

ذكر ملك عبد المؤمن مدينة المهدية من الفرنج وجميع بلاد إفريقية

كان الفرنج قد تغلّبوا على مدينة المهدية وملكوها في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، كما قدمناه في أخبار الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن

---

(١) المريّة: بالفتح ثم الكسر، وتشديد الياء بنقطتين من تحتها: هي مدينة كبيرة من كورة إلبيرة من أعمال الأندلس... (معجم البلدان).

باديس، وفعلوا بمدينة زَويلة[١] الأفعال الشنيعة من القتل والنهب والتخريب. فسار أهلها إلى عبد المؤمن وهو بمراكش يستنجدونه ويستجيرون به فأكرمهم. وأخبروه بما جرى على المسلمين وأنه ليس في ملوك الإسلام من يُقصد غيره. فأطرق ثم رفع رأسه وقال: «أبشروا لأنصرنكم ولو بعد حين» وأمر بإنزالهم وأطلق لهم ألفي دينار.

ثم أمر بعمل الروايا[٢] والقرب والحياض وما يحتاج إليه العساكر. وكتب إلى جميع نوابه ببلاد المغرب وكان قد ملك إلى قريب تونس، فأمرهم بتحصيل الغلات، وأن تترك في سنبلها وتخزن في مواضعها، وأن يحفروا الآبار في الطرق. ففعلوا ذلك فصارت كأنها تلال.

فلما كان في صفر سنة أربع وخمسين وخمسمائة، وسار من مراكش يريد إفريقية ومعه من العساكر مائة ألف مقاتل ومن السوقة [٣] والأتباع أمثالهم. وبالغ في حفظ العساكر حتى كانوا يسيرون بين الزروع فلا تتأذى بهم سنبلة واحدة. وإذا نزلوا صلُّوا جميعهم مع إمام واحد بتكبيرة واحدة لا يتخلف منهم أحد. وقدّم بين يديه الحسن بن علي بن يحيى بن تميم الذي كان صاحب المهدية وإفريقية.

فسار حتى وصل إلى مدينة تونس في الرابع والعشرين من جُمادى الآخرة. وأقبل الأسطول في البحر في سبعين شينيًا وطريدة وشلندى[٤]. فنازلها وأرسل إلى أهلها يدعوهم إلى الطاعة. فامتنعوا وقاتلوا أشد قتال. فلما جاء الليل خرج إليهم سبعة عشر رجلًا من أعيان أهلها، وسألوا عبد المؤمن الأمان لأهل بلدهم. فأجابهم إلى الأمان لهم في أنفسهم وأهلهم وأموالهم لمبادرتهم إلى الطاعة وأما من عداهم من أهل البلد فأمنهم في أنفسهم وأهليهم، ويقاسمهم أموالهم وأملاكهم نصفين، وأن يخرج صاحب البلد هو وأهله. فاستقر ذلك وتسلم البلد. وأرسل أمناء ليقاسموا الناس على أموالهم. وأقام عليها ثلاثة أيام. وعرض الإسلام على من بها من اليهود والنصارى، فمن أسلم سلم، ومن أبى قُتل.

وسار عبد المؤمن إلى المهدية والأسطول يحاذيه في البحر. فوصل إليها في ثاني عشر شهر رجب من السنة. وبها أولاد ملوك الفرنج وأبطال الفرسان، وقد أخلوا

---

(١) زويلة: بفتح أوله وكسر ثانيه، وبعد الياء المثناة من تحت الساكنة لام: بلدان أحدهما زويلة السودان مقابل أجدابية في البر بين بلاد السودان وإفريقية... والأخرى مدينة غير مسورة في وسط الصحراء، وهي أول حدود بلاد السودان... (معجم البلدان).

(٢) الروايا: القرب.

(٣) السوقة: العامة التي تتبع الجيوش للغنائم والسّلب.

(٤) الشيني والطريدة والشلندى: من المراكب المختلفة الأحجام والمهمّات التي يتألّف منها الأسطول.

مدينة زويلة وبينها وبين المهدية غلوة[١] سهم. فدخلها عبد المؤمن، وامتلأت بالعساكر والسوقة فصارت مدينة معمورة في ساعة واحدة. ومن لم يكن له من العسكر موضع نزل بظاهرها. وانضاف إليهم من صنهاجة والعرب وأهل البلاد ما يخرج عن الإحصاء. وأقبلوا على قتال من بالمهدية، وهي لا يؤثر فيها شيء لحصانتها وقوة سورها وضيق موضع القتال عليها لأن البحر دائر بأكثرها، وهي كأنها كف في البحر وزندها متصل بالبر. فكانت شجعان الفرنج تخرج إلى أطراف العسكر فينالون منه ويسرعون العوْد. فأمر عبد المؤمن ببناء سور من غربي المدينة يمنعهم من الخروج. وأحاط الأسطول بها في البحر. وهال عبد المؤمن ما رأى من حصانة البلد، وعلم أنها لا تفتح بقتال، وليس لها غير المطاولة. وقال للحسن: «كيف نزلت عن هذا الحصن؟» فقال: «لقلة من يوثق به وعدم القوت وحكم القدر». فقال: «صدقت» وأمر بجمع الغلات فلم يمض غير قليل حتى صار في العسكر كالجبلين من الحنطة والشعير. وتمادى الحصار.

وفي مدته أطاع عبد المؤمن أهل سفاقس وطرابلس وجبال نفوسة[٢] وقصور إفريقية وما والاها. وفتح مدينة قابس وأتاه يحيى بن تميم صاحب قفصة[٣] ومعه جماعة من أعيانها. ولما قدموا عليه دخل حاجبه عبد السلاسم الكومي يستأذنه عليهم. فقال له عبد المؤمن: «أتي عليك ليس هؤلاء أهل قفصة» فقال: «لم يشتبه علي وإنهم أهلها» فقال عبد المؤمن: «كيف يكون ذلك والمهدي يقول: إن أصحابنا يقطعون أشجارها ويهدمون أسوارها؟ ومع هذا فنقبل منهم ونكف عنهم وننتظر ما يكون ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢ و٤٤] وقضى شغلهم وأرسل معهم طائفة من الموحدين، وفيهم زكري بن يومون، وولاه عليها. وورد في جملة أهل قفصة شاعر[٤] منهم، فمدحه بقصيدة أولها: [من البسيط]

ما هزَّ عطفَيْه بين البيض والأسل   مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي[٥]

---

(١) غلوة السهم: مقدار رميته، وتقدر بثلاثمائة ذراع إلى أربعمائة.

(٢) نفوسة: بالفتح ثم الضم، والسكون، وسين مهملة: جبال في المغرب بعد إفريقية عالية نحو ثلاثة أميال في أقل من ذلك، وفيها منبران في مدينتين إحداهما سروس في وسط الجبل... والأخرى جادو من ناحية نفزاوة... (معجم البلدان).

(٣) قفصة: بالفتح ثم السكون، وصاد مهملة: هي بلدة صغيرة في طرف إفريقية من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير بالجريد، بينها وبين القيروان ثلاثة أيام... (معجم ياقوت).

(٤) هو أبو عبد الله محمد بن أبي العباس التيفاشي.

(٥) عطفاه: جانباه، والبيض والأسل: السيوف والرّماح.

فلما أنشده هذا البيت قال: «حسبك» ووصله بألف دينار.

قال: ولما كان في يوم الاثنين لثمان بقين من شعبان سنة أربع وخمسين، جاء أسطول صاحب صقلية في مائة وخمسين شينيًا غير الطرائد، فقاتلهم أسطول عبد المؤمن فانهزموا. وتبعهم المسلمون وأخذوا منهم سبعة شوان. فحينئذ أيس من بالمهدية من النجدة.

وصبروا على الحصار إلى آخر ذي الحجة من السنة حتى فنيت أقواتهم وأكلوا خيلهم. فنزل عشرة من فرسانهم إلى عبد المؤمن وسألوه الأمان لمن فيها من الفرنج على أنفسهم وأموالهم، ليخرجوا منها ويعودوا إلى بلادهم. فعرض عليهم الإسلام، فأبوا. ولم يزالوا يستعطفونه حتى أجابهم وأمنهم. وأعطاهم سفنًا فنزلوا فيها. وساروا إلى جزيرة صقلية. وكان الفصل شتاء، فغرق أكثرهم ولم يصل منهم إلى صقلية إلا القليل. وكان صاحب صقلية قد قال: «إن قتل عبد المؤمن أصحابنا بالمهدية قتلنا المسلمين الذين بجزيرة صقلية وأخذنا حرمهم وأموالهم» فأهلك الله الفرنج غرقًا وكان مدة استيلاء الفرنج على المهدية اثنتي عشرة سنة.

ودخل عبد المؤمن مدينة المهدية بكرة عاشوراء سنة خمس وخمسين وخمسمائة. وسماها عبد المؤمن سنة الأخماس. وأقام بالمهدية عشرين يومًا. ورتب أحوالها، ونقل إليها الذخائر من الأقوات والسلاح والعدد والرجال. واستعمل عليها أبا عبد الله محمد بن فرج. وجعل معه الحسن بن علي بن يحيى الذي كان صاحبها. وأمره أن يقتدي برأيه في أفعاله. وأقطع الحسن بها إقطاعًا وأعطاه دورًا بالمهدية. ورتّب لأولاده وعبيده أرزاقًا. ثم رحل عبد المؤمن من المهدية في غرة صفر سنة خمس وخمسين وخمسمائة.

ذكر إيقاع عبد المؤمن بالعرب

كان سبب ذلك أنه ـ لما أراد العود إلى بلاد المغرب بعد فراغه من أمر المهدية ـ جمع أمراء العرب من بني رياح الذين كانوا بإفريقية، وقال لهم: «إنه قد وجب علينا نصرة الإسلام، وإن المشركين قد استفحل أمرهم بجزيرة الأندلس. واستولوا على كثير منها مما كان بيد المسلمين، وما يقاتلهم أحد مثلكم، فبكم فُتحت البلاد أول الإسلام، وبكم دُفع عنها العدو الأول. ونريد منكم عشرة آلاف فارس من أهل النجدة والشجاعة يجاهدون في سبيل الله» فأجابوه بالسمع والطاعة فحلّفهم على ذلك.

وساروا معه حتى انتهوا إلى مضيق جبل زغوان[١]. وكان منهم إنسان يقال له يوسف بن مالك، وهو من أمرائهم ورؤوس القبائل فيهم. فجاء إلى عبد المؤمن بالليل وقال له سرًّا: «إن العرب قد كرهت المسير إلى الأندلس وقالوا: ما غرض عبد المؤمن إلا إخراجنا من بلادنا، وإنهم لا يفون بأيمانهم» فقال: «يأخذ الله تعالى الغادر». فلما كانت الليلة الثانية، هربوا إلى عشائرهم ودخلوا البر، ولم يبق منهم إلا يوسف بن مالك، فسماه عبد المؤمن يوسف الصادق. ولم يُحدث في أمرهم شيئًا.

وسار مغربًا يحث السير حتى قرب من القسنطينة، ونزل في موضع مخصب يقال له وادي النساء. فأقام به وضبط الطرق فلا يسير أحد البتة ودام هناك عشرين يومًا. وانقطع خبره عن جميع الناس لا يعرفون للعسكر خبرًا مع كثرته وعظمه، ويقولون: «ما أزعجه إلا خبر وصله من الأندلس» فعادت العرب الذين أجفلوا منه من البرية إلى البلاد لما أمنوا جانبه.

فلما علم برجوعهم جهز إليهم ولديه أبا محمد وأبا عبد الله في ثلاثين ألفًا من أعيان الموحدين وشجعانهم. فجدُّوا السير وقطعوا المفاوز. فما شعرت العرب إلا والجيش قد أقبل، وجاء من ورائهم من جهة الصحراء من يمنعهم من الدخول إليها، وكانوا قد نزلوا جنوبًا من القيروان عند جبل القرن[٢] وهم زهاء ثمانين ألف بيت، ومشاهير مقدميهم محرز بن زياد وجبارة بن كامل ومسعود بن زمام وغيرهم. فلما أطلت عليهم العساكر اضطربوا وماجوا واختلفت كلمتهم. ففرّ مسعود وجبارة ومن معهما من عشائرهما. وثبت محرز بن زياد ومعه جمهور العرب. فناجزهم الموحدون القتال. وذلك في العشر الأوسط من شهر ربيع الآخر سنة ست وخمسين. واشتد القتال وكثرت القتلى. فانجلت الحرب عن قتل محرز وانهزم العرب.

ولما انهزموا أسلموا البيوت والحريم والأولاد والأموال. فحمل جميع ذلك إلى عبد المؤمن وهو بتلك المنزلة. فأمر بحفظ النساء العربيات الصّرائح. وحُملن معه تحت الحفظ والبر والصيانة إلى بلاد المغرب. ثم أقبلت إليه وفود رياح، فأجمل لهم الصنيع وردّ إليهم الحريم. فلم يبق منهم إلا من صار له كالعبد الطائع، وهو يخفض لهم الجناح ويبذل فيهم الإحسان. ثم جهزهم إلى ثغور الأندلس على الشرط الأول.

---

(١) زغوان: جبل عال بين تونس والقيروان... (المسالك والممالك للبكري).

(٢) جبل القرن: ذكر ياقوت مواضع كثيرة يطلق عليها «القرن» منها: القرن: جبل بإفريقية له ذكر في الفتوح.

قال: وجمعت عظام من قتل من العرب عند جبل القرن فبقيت دهرًا طويلاً كالتل يلوح للناظرين من مكان بعيد. وبقيت بلاد إفريقية بيد نواب عبد المؤمن آمنة ساكنة، لم يبق من العرب خارج عن الطاعة إلا مسعود بن زمام وطائفة في أطراف البلاد.

وفي سنة ست وخمسين، توجه عبد المؤمن إلى جبل طارق، وهو على ساحل الخليج مما يلي الأندلس، فعبر المجاز إليه. وبنى عليه مدينة حصينة. وأقام بها أشهرًا ثم انصرف إلى مراكش.

ذكر وفاة عبد المؤمن بن عليّ وشيء من أخباره

كانت وفاته في العشر الآخر من جُمادى الآخر سنة ثمان وخمسين وخمسمائة بمدينة سلام. وكانت مدة ولايته ثلاثًا وثلاثين سنة وأشهرًا. وخلف ستة عشر ولدًا ذكورًا.

وكان عاقلاً، حازمًا، سديد الرأي، حسن السياسة للأمور، كثير البذل للأموال، إلا أنه كان كثير السفك لدماء المسلمين على صغار الذنوب. وكان يعظِّم أمر الدين ويقويه، ويُلزم الناس في سائر بلاده بالصلاة. ومن رُئي في وقت الصلاة غير مُصلٍّ قُتل. وجمع الناس على مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله في الفروع، وعلى مذهب أبي الحسن الأشعري في الأصول. وكان الغالب على مجلسه أهل العلم والدين، وإليهم المرجع والكلام معهم.

قال ابن شداد[١]: وقفت على كتاب كتبه عنه بعض كتابه، يقول فيه بعد البسلمة: «من الخليفة المعصوم الرَّضي الهاشمي الزّكي، الذي وردت البشارة به من النبي ﷺ، العربي القامع لكل مجسِّم غوِي، الناصر لدين الله العليّ، أمير المؤمنين الولي، عبد المؤمن بن عليّ».

وحكى أيضًا قال: أخبر رجل من أهل المهدية اجتمعت به بمدينة صقلية سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، قال: لما فتح عبد المؤمن مدينة بجاية وجميع ملك بني حماد، وافق ذلك وصولي بعد أيام من المهدية إلى بجاية بأحمال متاع مع قَفَل[٢]،

---

(١) هو عبد الله بن شداد، مؤرخ، من آثاره: الأغلاق الخطيرة في تاريخ الشام والجزيرة... (كشف الظنون: حاجي خليفة ٢٩٦).

(٢) القفل: أي القافلة.

فبِتْنا على مرحلة من بجاية. فلما أصبح الصباح فقدت شدَّة[1] من المتاع، فحمدت الله وسألته الخَلَف. ودخلنا البلد وبعت المتاع أحسن بيع وأفدت فيه فائدة كبيرة. فقلت لصاحب الحانوت الذي بعت على يديه: «فقدت من هذا المتاع شدة، وأخلَف الله علي في الباقي» فقال لي: «وما أنهَيْتَ ذلك إلى أمير المؤمنين عبد المؤمن؟» قلت: «لا». قال: «والله، إن علم ذلك من غيرك لحقك الضرر بسترك على المفسدين. فاتقِ الله في نفسك» فرُحت إلى القصر واستأذنت عليه وأعلمته. ثم خرجت فسألني خادم عن منزلي فوصفته له. ورجعت إلى صاحب الحانوت فأخبرته. فقال: «خرجت من العُهْدة».

فلما كان صبيحة اليوم الثالث من وصولي إليه، جاءني غلام أسود فقال: «أجب أمير المؤمنين» فخرجت معه. فلما وصلنا باب القصر وجدت جماعة كبيرة والمصامدة دائرة عليهم بالرماح. فقال لي الأسود «تعلم من هؤلاء؟» قلت: «لا» قال: «هم أهل المكان الذي أخذ متاعك فيه» فدخلت أنا خائف، فأُجلست بين يديه. واستدعى مشايخهم وقال لي: «كم صحّ لك في الشدة التي فقدت أختها» فقلت: «كذا وكذا» فأمر من وزن لي المبلغ ثم قال لي: «قم. أنت أخذت حقك وبقي حقي وحق الله عزّ وجل». وأمر بإخراج المشايخ وقتل الجميع. وقال: «هذه طريق شوك أُزيلها عن المسلمين» فأقبلوا يبكون ويتضرعون ويقولون: «يؤاخذ سيدنا الصلحاء بالمفسدين؟» فقال: «تُخرج كل طائفة منكم من فيها من المفسدين» فصار الرجل يخرج ولده وأخاه وابن عمه إلى أن اجتمع منهم نحو خمسمائة فأمر أهلهم أن يتولوا قتلهم، ففعلوا ذلك. وخرجت أنا إلى صقلية خوفًا على نفسي من أولياء المقتولين.

قال: وكان عبد المؤمن لا يداهن في دولته، ويأخذ الحق من ولده إذا وجب عليه.

قال: ولا مُشرِك في بلاده ولا كنيسة في بقعة منها، لأنه كان إذا ملك بلدًا إسلاميًا لم يترك فيه ذميًا إلا عرض عليه الإسلام. فمن أسلم سلِم، ومن طلب المضي إلى بلاد النصارى أذن له في ذلك، ومن أبى قُتل. فجميع أهل مملكته مسلمون لا يُخالطهم سواهم.

ولا لهو ولا هزل تحت أمره بل تلاوة كتاب الله العزيز، ومُدارسة الأحاديث الصحيحة النبوية، والاشتغال بالعلوم الشرعية، وإقام الصلوات. فهذا كان دأب أصحابه.

---

(١) شدّة المتاع: أي ما يشدّ ويلفُّ من المتاع الذي يجهّز به للانتقال من مكانٍ إلى آخر.

وكان لعبد المؤمن من الأولاد الذكور ستة عشر، وهم محمد وهو ولي عهده، وعلي، وعمر، ويوسف، وعثمان، وسليمان، ويحيى، وإسماعيل، والحسن، والحسين، وعبد الله، وعبد الرحمٰن، وموسى، وإبراهيم، ويعقوب.

ذكر ولاية أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ابن عليّ

كانت ولايته بعد وفاة أبيه. وذلك أن عبد المؤمن لما حضرته الوفاة جمع أشياخ الموحدين وقال لهم: «قد جربت ابني محمدًا فلم أجد فيه نجابة تصلح للأمر، ولا يستحق الولاية ولا يصلح لها إلا ابني يوسف، وهو أولى بها، فقدِّموه لها» ووصاهم به فبايعوه وعقدوا له الولاية. وخوطب بأمير المؤمنين.

ثم مات عبد المؤمن فكتموا موته وحُمل في محفّة[١] من سلا[٢] بصورة أنه مريض إلى أن وصل إلى مراكش. وكان ابنه أبو حفص حاجبًا لأبيه فبقي مع أخيه على مثل حاله مع أبيه يخرج إلى الناس فيقول أمر أمير المؤمنين بكذا وكذا، ويوسف يقعد مقعد أبيه إلى أن كملت المبايعة له في جميع البلاد. فأظهر موت أبيه بعد انقضاء أشهر من وفاته. واستقامت الأمور لأبي يعقوب وانقاد الناس لأمره.

ذكر عصيان غمارة مع مفتاح بن عمرو وقتالهم وقتل مفتاح

قال: ولما تحقق الناس موت عبد المؤمن، ثارت قبائل غمارة[٣] في سنة تسع وخمسين وخمسمائة مع مفتاح بن عمرو؛ وكان مقدمًا كبيرًا فيهم، فاتبعوه بأجمعهم، وامتنعوا في جبالهم، وهي معاقل مانعة، وهم أمم جمة. فتجهز إليهم أبو يعقوب ومعه أخواه عمر وعثمان في جيش كثيف من الموحدين والعرب. وتقدموا إليهم والتقوا واقتتلوا في سنة إحدى وستين. فانهزمت غُمارة، وقُتل مفتاح وجماعة من أعيانهم ومقدميهم وخلْق كثير منهم. وملكوا بلادهم عنوة. وكانت قبائل كثيرة يريدون الفتنة، وهم ينظرون ما يكون من غمارة، فلما قُتلوا انقادت تلك القبائل إلى الطاعة، ولم يبق متحرك لفتنة، وسكنت الدهماء في جميع المغرب.

---

(١) المحفة: هودج لا قبة له.

(٢) السلا: نوعٌ من القصب تصنع منه السّلال، والسّلاء: الجذع نزع سُلاؤه أي شوكه.

(٣) بنو غمارة: هم بن غمارة بن مسطح بن قليل بن مصمودة بن برنس بن بربر... ومن هذه القبيلة الشيخ عبد الله الغماري.

وفي سنة خمس وستين وخمسمائة، وجه أبو يعقوب أخاه عمر بن عبد المؤمن إلى الأندلس بالعساكر لقتال محمد بن سعد بن مرْدنيش. وكان قد ملك شرق الأندلس، واتفق مع الفرنج، وامتنع على عبد المؤمن ثم على ابنه، وتمادى في عصيانه، واستفحل أمره. فدخل العسكر إلى بلاده، وجاس خلال دياره، وأخذوا مدينتين من بلاده. وأقاموا مدة يتنقلون في بلاده ويجبون أموالها. ثم توفي محمد بن سعد في سنة سبع وستين، وأوصى أولاده أن يقصدوا الأمير أبا يعقوب، ويسلموا البلاد إليه، ويدخلوا في طاعته. فلما مات قصدوه. فسُرَّ بهم وأكرمهم وتسلم البلاد منهم، وهي مرسية، وبلنسية، وجيان، وغير ذلك، وتزوج أختهم. وأقاموا عنده مكرمين. وكان اجتماعهم به بمدينة إشبيلية، وقد دخل الأندلس في مائة ألف فارس في سنة ست وستين وخمسمائة.

ذكر غزوة الفرنج

قال: وفي سنة ثمان وستين، جمع أبو يعقوب عساكره. وسار من إشبيلية وقصد بلاد الفرنج. ونزل على مدينة وَبذَى[١]، وهي بالقرب من طليطلة شرقًا منها، وحصرها. فاجتمعت الفرنج مع الأدفونش ملك طليطلة في جميع كبير، فلم يُقدموا على لقاء المسلمين. واتفق أن الغلاء اشتد على المسلمين وعدمت الأقوات عندهم. فعادوا إلى إشبيلية.

وأقام أبو يعقوب بها إلى سنة إحدى وسبعين وهو يجهز العساكر في كل وقت، ويرسلها إلى بلاد الفرنج. وكان في هذه المدة عدة وقائع وغزوات، ظهر فيها من شجاعة العرب ما لا يوصف، حتى كان الفارس من العرب يسير بين الصفين ويطلب مبارزة الفارس المشهور من الفرنج، فلا يبرز إليه أحد.

ثم عاد أبو يعقوب إلى مراكش.

ذكر ملك أبي يعقوب مدينة قفصة

قد ذكرنا أن صاحب قفصة قدم على عبد المؤمن وهو يحاصر المهدية، وأطاعه، وما قاله عبد المؤمن لحاجبه عند قدوم أهل قفصة من إخبار المهدي عن قفصة. فلما كان في سنة ثمان وستين وخمسمائة، دخلت طائفة من الترك من ديار

---

(١) وبذى: مدينة بالأندلس قرب طليطلة؛ هذا ما ذكره ياقوت في معجمه. ولم نجدها في غيره من المظان التي توفرت لنا.

مصر في أيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب مع قراقوش مملوك تقي الدين. واجتمع إليه مسعود بن زمام وجماعة من العرب، ونزلوا على طرابلس وملكوها، واستولى على كثير من بلاد إفريقية.

فعند ذلك طمع صاحب قفصة ونزع يده من الطاعة، واستبدّ بالأمر. ووافقه أهل بلده فقتلوا من عندهم من الموحدين وذلك في شوال سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة. فكتب والي بجاية إلى أبي يعقوب بالخبر واضطراب أمور البلاد. فسدّ الثغور التي يخشى عليها بعد مسيره. وسار إلى إفريقية في سنة خمس وسبعين، ونزل على مدينة قفصة وحصرها ثلاثة أشهر، وقطع أشجارها. فلما اشتد الأمر على صاحبها خرج منها مستخفيًا لم يعلم به أحد من أهل البلد. وجاء إلى خيمة أبي يعقوب فاستأذن عليه. فأذن له وقد عجب من إقدامه على الدخول عليه بغير أمان. فدخل عليه واستعطفه وقال: «قد حضرت أطلب عفو أمير المؤمنين عني وعن أهل بلدي، وأن يفعل ما هو أهله» فعفا عنه وعن أهل بلده. وتسلم المدينة في أول سنة ست وسبعين وخمسمائة وسيره إلى المغرب فكان مكرمًا عزيزًا، وأقطعه ولاية كبيرة. ورتب لقفصة واليًا من الموحدين.

ووصل مسعود بن زمام أمير العرب إلى يوسف. فعفا عنه وسيره إلى مراكش. وتوجه يوسف إلى المهدية وشاهدها.

ووافاه رسول من صاحب صقلية يلتمس الصلح، فهادنه عشر سنين، ورجع إلى المغرب.

ذكر وفاة أبي يعقوب يوسف

كانت وفاته في شهر ربيع الأول سنة ثمانين وخمسمائة. وكان قد سار إلى بلاد الأندلس في جمع عظيم. فلما عبر الخليج قصد غزو الفرنج، فحصر مدينة شَنْترين شهرًا. فأصابه بها مرض، فمات وحُمل في تابوت إلى مدينة إشبيلية.

وكانت مدة ولايته اثنتين وعشرين سنة وشهورًا.

ومات وله عدة من الأولاد، رأيت في بعض التواريخ أنهم كانوا خمسة عشر، وهم: عمر، ويعقوب وهو ولي عهده، وأبو بكر، وعبد الله، وأحمد، ويحيى، وموسى، وإبراهيم، وإدريس، وعبد العزيز، وطلحة، وإسحاق، ومحمد، وعبد الواحد، وعثمان، وعبد الحق، وعبد الرحمٰن. فهذه سبعة عشر عدها وجمع على خمسة عشر، والله أعلم.

وذكر هذا المؤرخ أن وفاته كانت في يوم السبت لسبع خلون من شهر رجب من السنة، من طعنة طعنها على مدينة شنترين من أيدي الروم، لما عبر المسلمون وتركوه في شرذمة يسيرة. ومات في الليلة الثالثة. والله تعالى أعلم.

وقال أيضًا: ودفن بتينمل عند أبيه وابن تومرت.

قال: وكان يحمل إليه من مال إفريقية في كل سنة وقر[١] مائة وخمسين بغلاً، خارجًا عما يرتفع إليه من سائر البلاد.

وكان حسن السيرة، يحب العلماء ويقربهم ويشاورهم، وهم أهل خاصته، وكان فقيهًا عالمًا حافظًا متقنًا، رحمه الله تعالى.

ذكر ولاية أبي يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

كانت ولايته بعد وفاة أبيه في شهر ربيع الأول سنة ثمانين وخمسمائة. وكان أبوه قد مات ولم يوص لأحد بالملك، فاجتمع رأي أشياخ الموحدين وأولاد عبد المؤمن على تقديم أبي يوسف يعقوب. فبايعوه وعقدوا له الولاية وقدموه للأمر، ودعوْه بأمير المؤمنين. فقام بالملك أحسن قيام، ورفع راية الجهاد، وأحسن السيرة. فاستقامت له الدولة بأسرها مع سعة أقطارها. ورتب ثغور الأندلس، وشحنها بالرجال، ورتّب المقاتلة في سائر بلادها، وأصلح أحوالها، وعاد إلى مدينة مراكش.

ذكر أخبار الملثمين وما ملكوه من إفريقية واستعادة ذلك منهم

قال: ولما بلغ علي بن إسحاق بن محمد بن علي بن غانية اللمتوني صاحب جزيرة ميورقة[٢]، وكان من أعيان الملثمين، وفاة أبي يعقوب، سار إلى بجاية في عشرين شينيًا. وملكها في شعبان سنة ثمانين وخمسمائة، وأخرج من كان بها من الموحدين. وكان الأمير بها سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن. وخطب اللمتوني بها للخليفة الناصر لدين الله العباسي.

---

(١) الوقر: الحمل الثقيل.

(٢) ميورقة: بالفتح ثم الضم، وسكون الوا والراء يلتقي فيه ساكنان، وقاف: جزيرة في شرقي الأندلس بالقرب منها جزيرة يقال لها منورقة، بالنون... (معجم البلدان).

فاتصل الخبر بأبي يوسف فجهز العساكر واستعادها في صفر سنة إحدى وثمانين. وكان بها يحيى وعبد الله أخوا علي بن إسحاق قد تركهما بها وتوجه لحصار القسنطينة، فخرجا منها هاربين والتحقا بأخيهما. فأقلع إلى جهة إفريقية واجتمع بمن بها من العرب وانضاف إليه الترك الذين كانوا قد دخلوها من مصر. ودخل من مصر مملوك آخر اسمه بُوزابه، فانضم إليه، وكثر جمعه، وقويت شوكته. واتبعوه جميعًا لأنه من بيت الملك ولقبوه بأمير المسلمين. فقصد بلاد إفريقية فملكها شرقًا وغربًا إلا مدينتي تونس والمهدية، فإن الموحدين حفظوهما على خوف وضيق وشدة. وانضاف إلى الملثم كل مفسد يريد الفتنة والفساد والنهب.

فأرسل الوالي على تونس وهو عبد الواحد بن عبد الله الهنتاتي إلى أبي يوسف يُعلمه بالحال. فلما ورد عليه الخبر اختار من عساكره عشرين ألف فارس من الموحدين. وقصد قلة العساكر لقلة لقوت في البلاد. وسار في صفر سنة ثلاث وثمانين، فوصل إلى مدينة تونس. وأرسل ستة آلاف مع ابن أخيه أبي حفص، فساروا إلى علي بن إسحاق الملثم وهو بقفصة فوافوه. وكان مع الموحدين جماعة من الترك الذين كانوا مع قراقوش، فلما التقوا خامر الترك عليهم، وانضموا إلى أصحابهم الذين مع الملثم. فانهزم الموحدون وقتل جماعة من مقدميهم. وذلك في شهر ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين.

قال: فأقام أبو يوسف بمدينة تونس إلى نصف شهر رجب منها. ثم خرج في خمسة عشر ألف فارس من الموحدين وسار يريد حرب الملثم. فالتقوا بالقرب من مدينة قابس واقتتلوا. فانهزم الملثم ومن معه. وأكثر الموحدون القتل فيهم حتى كادوا يفنونهم.

ورجع من يومه إلى قابس ففتحها. وأخذ منها أهل قراقوش وأولاده وأمواله فحملهم إلى مراكش.

وتوجه إلى مدينة قفصة فحصرها ثلاثة أشهر، وقطع أشجارها، وخرب ما حولها. فأرسل إليه الترك الذين كانوا بها في السر يسألونه الأمان لأنفسهم ولأهل قفصة. فأجابهم إلى ذلك. وخرج الأتراك منها سالمين فسيّرهم إلى الثغور لما رآه من شجاعتهم ونكايتهم. وتسلّم يعقوب البلد وقتل من فيه من الملثمين. وهدم أسواره، وترك المدينة مثل قرية. وظهر ما قاله المهدي.

ولما فرغ من أمر قفصة واستقامت له إفريقية، عاد إلى مراكش. فكان وصوله إليها في سنة أربع وثمانين.

وأما ابن غانية اللمتوني فإنه ثبت بعد انكشاف أصحابه وقاتل قتالاً شديدًا فأصابته جراحات كثيرة. ومرّ على وجهه فمات في خيمة لعجوز أعرابية. وكان معه إخوته عبد الله ويحيى وأبو بكر وسير. فقدموا عليهم يحيى لشجاعته وشهامته ولحقوا بالمغرب. ولم يزل بإفريقية يثور تارة ويسكن أخرى.

ذكر ملك الفرنج مدينة شلب وعودها إلى المسلمين

وفي سنة ست وثمانين وخمسمائة، ملك الفرنج بغرب الأندلس مدينة شلب[١]، وهي من أكبر مدن المسلمين. فوصل الخبر إلى أبي يوسف فتجهز بالعساكر الكثيرة. وعبر المجاز إلى الأندلس، وسيّر طائفة كثيرة في البحر. ونازل شلب وحصرها، وقاتل من بها قتالاً شديدًا حتى ذلوا وطلبوا الأمان. فأمنهم وتسلم البلد. ورجع من به إلى بلادهم.

وسيّر جيشًا من الموحدين ومعهم جمع من العرب إلى بلاد الفرنج. ففتحوا أربع مدن كان الفرنج قد ملكوها قبل ذلك بأربعين سنة وقتلوا طائفة من الفرنج فخافهم ملك طليطلة، وأرسل في طلب الهدنة فصالحه خمس سنين. وعاد أبو يوسف بعد ذلك إلى مدينة مراكش.

ذكر غزوة الفرنج بالأندلس والوقعة الكبرى والثانية وحصر طليطلة

كانت هذه الغزاة المباركة في سنة إحدى وتسعين وخمسمائة. وكان سببها أن الفنش ملك الفرنج صاحب طليطلة كتب إلى أبي يوسف كتابًا، نسخته:

«باسمك اللهم، فاطر السماوات والأرض.

أما بعد، أيها الأمير، فإنه لا يخفى على ذي عقل لازب[٢]، ولا ذي لبّ وذكاء ثاقب، أنك أمير الملة الحنيفية كما أنا أمير الملة النصرانية. وإنك لا يخفى عليك ما هم عليه رؤساء الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية واشتمالهم على

(١) شلب: بكسر أوله، وسكون ثانيه، وآخره باء موحدة: هي مدينة بغربي الأندلس بينها وبين باجة ثلاثة أيام، وهي غربي قرطبة، وهي قاعدة ولاية أشكونيه، بينها وبين قرطبة عشرة أيام للفارس المجدّ... (معجم البلدان).

(٢) اللازب: الثابت.

الراحات. وأنا أسومهم سوم الخسف، وأسبي الذراري، وأُخلي الديار، وأُمثِّل بالكهول، وأقتل الشباب، ولا عذر لك في التخلف عن نصرتهم، وقد أمكنتك منهم القدرة، وأنتم تعتقدون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منا بواحدٍ منكم. والآن خفّف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفًا، وقد فرض عليكم قتال اثنين منا بواحد منكم[1]. ونحن الآن نقاتل عددًا منكم بواحد منا. ولا تقدرون دفاعًا ولا تستطيعون امتناعًا. ثم حُكي لي عنك أنك أخذت في الاحتفال وأشرفت على ربوة القتال، وتُمطل نفسك عامًا بعد عام، تقدّم رجلًا وتؤخِّر أخرى. ولا أدري: الجبن أبطأ بك أم التكذيب بما أُنزل عليك؟ وحُكي لي عنك أنك لا تجد سبيلًا إلى جواز البحر لعلةٍ ما يسوغ لك التقحُّم بها فها أنا أقول لك ما فيه الراحة وأعتذر عنك. ولك أن توفيني بالعهود والمواثيق والأيمان: أن توجِّه بجملة من عبيدك في الشواني والمراكب وأجوز إليك بجملتي. وأبارزك في أعزّ الأماكن عندك. فإن كانت لك، فغنيمة عظيمة جاءت إليك وهدية مثلت بين يديك. وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك واستحققت إمارة المسلمين والتقدم على الفئتين. والله يسهل الإرادة ويقرب السعادة بمنّه، ولا ربّ غيره ولا خير إلا خيره».

قال: فلما وصل كتابه وقرأه كتب في أعلاه: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [النمل: ٣٧] وأعاده إليه. وجمع عساكره وعبر المجاز إلى الأندلس.

وقيل: كان سبب عبوره إلى الأندلس أنه لما صالح الفرنج في سنة ست وثمانين على ما ذكرناه، بقيت طائفة من الفرنج لم ترضَ بالصلح. فلما كان الآن جمعت تلك الطائفة جمعًا من الفرنج وخرجوا إلى بلاد الإسلام فقتلوا وسبوا وأسروا وغنموا وعاثوا. فانتهى ذلك إلى أبي يوسف. فجمع العساكر وعبر إلى الأندلس في جيش يضيق به الفضاء. وجمعت الفرنج قاصيها ودانيها، وأقبلوا إليه مجدِّين واثقين بالظفر لكثرتهم. والتقوا في تاسع شعبان من السنة شمالي قرطبة عند قلعة رباح بمكان يعرف بمرج الجديد واقتتلوا قتالًا عظيمًا. وكانت الحرب في أولها على المسلمين ثم صارت الدائرة على الفرنج. فانهزموا أقبح هزيمة وانتصر المسلمون عليهم.

وكان عدد من قتل من الفرنج مائة ألف وستة وأربعين ألفًا. وأُسر ثلاثة عشر ألفًا. وحاز المسلمون من الخيل ستة وأربعين ألفًا ومن البغال مائة ألف، ومن الحمير

(١) هنا إشارة إلى الآيتين ٦٥ و٦٦ من سورة الأنفال.

مائة ألف. وكان يعقوب نادى في عسكره: «من غنم شيئًا فهو له سوى السلاح» فأحصى ما حمل إليه، فكان يزيد على سبعين ألف لباس. وقتل من المسلمين نحو عشرين ألفًا. ولما انهزم الفرنج، اتبعهم أبو يوسف فرآهم قد خلّفوا قلعة رباح وساروا عنها. فملكها وجعل فيها واليًا وجندًا. وسار إلى مدينة إشبيلية.

وأما الفنش فإنه حلق بأسه، ونكس صلبانه، وركب حمارًا، وأقسم ألا يركب فرسًا ولا بغلاً حتى ينصر النصرانية. فجمع جموعًا كثيرة. فبلغ الخبر إلى أبي يوسف، فأرسل إلى مراكش وغيرها من بلاد الغرب يستنفر الناس من غير إكراه. فاجتمع إليه جمع عظيم. فالتقوا في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة. فانهزم الفرنج هزيمة قبيحة. وغنم المسلمون ما معهم من الأموال والسلاح والدواب وغير ذلك.

وتوجه أبو يوسف إلى مدينة طليطلة. فحصرها وقاتل من بها قتالاً شديدًا، وقطع أشجارها.

وشنّ الغارة على ما حولها من البلاد. وفتح عدّة حصون، فقتل رجالها، وسبى حريمها، وهدم أسوارها، وخرب دورها. فضعفت النصرانية حينئذ وعظم أمر الإسلام بالأندلس. وعاد إلى إشبيلية فأقام بها.

فلما دخلت سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة، سار إلى الفرنج وفعل مثل فعله الأول والثاني. فذل العدو واجتمعت ملوك الفرنج وراسلوه في الصلح، فأجابهم إليه بعد امتناع. وكان عزم على أن لا يجيبهم إلى الصلح وأن يداوم الغزو حتى يفنيهم. فأتاه خبر علي بن إسحاق الملثم بخروجه على إفريقية. فصالحهم سنين. وعاد إلى مراكش في آخر سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة.

ذكر ما فعله الملثم بإفريقية

قال: ولما عبر أبو يوسف يعقوب إلى الأندلس، وداوم الغزو، وانقطعت أخباره عن إفريقية، قوي طمع علي بن إسحاق فيها. وكان بالبرية مع العرب. فعاود قصد إفريقية. وبثّ جنده في البلاد وأكثر الفساد. وأظهر أنه إذا استولى على بجاية سار إلى المغرب. فوصل الخبر إلى أبي يوسف فصالح الفرنج، وعاد إلى مراكش عازمًا على قصده وإخراجه.

ولما عاد استعمل على مدينة تونس أبا سعيد عثمان بن عمر الهنتاتي وولّى أخاه أبا علي يونس بن عمر على المهدية. وجعل قائد الجيش بالمهدية محمد بن عبد الكريم،

وهو رجل مشهور بالشجاعة. فعظمت نكايته في العرب، ولم يبق إلا من يخافه. وخرج إلى طائفة من عوف(١)، فانهزموا منه وتركوا أموالهم وعيالهم. فأخذ الجميع ورجع إلى المهدية. وأخذ من الغنيمة والأسلاب ما شاء، وسلم البعض لأبي علي، والبعض للجند. فجاءت تلك الأعراب إلى أبي سعيد بن عمر فوحّدوا(٢) وصاروا من حزب الموحدين. واستجاروا بأبي سعيد في ردّ عيالهم وأموالهم. فأحضر محمد بن عبد الكريم وأمره بإعادة ما أخذ لهم. فقال: «أخذه الجند ولا أقدر على رده» فأغلظ له في القول وأراد أن يبطش به. فاستمهله إلى أن يرجع إلى المهدية ويسترد من الجند ما يجده، وما عدم غرمه من ماله؛ فأمهله. وانصرف إلى المهدية وهو لا يأمن على نفسه. فلما وصل إليها جمع أصحابه، وأعلمهم بما كان من أبي سعيد، وحالفهم على المخالفة عليه، فحلفوا له على ذلك. فقبض على أبي علي يونس وتغلب على المهدية وملكها ونزع يده من الطاعة. فأرسل إليه أبو سعيد في إطلاق أخيه يونس. فأطلقه على اثني عشر ألف دينار، فأخذها وفرقها في جنده. فجمع أبو سعيد الجند وأراد قصده. فأرسل محمد بن عبد الكريم إلى علي بن إسحاق الملثم واعتضد به. فامتنع أبو سعيد من قصده. وفي خلال ذلك مات أبو يوسف.

ذكر وفاة أبي يوسف يعقوب

كانت وفاته في سابع عشر شهر ربيع الآخر سنة خمس وتسعين وخمسمائة بمدينة سلا. وكان قد سار إليها من مراكش، وبنى مدينة مجاورة لها وسماها المهدية، وجاءت من أحسن البلاد وأنزهها. فسار ليشاهدها فتوفي بها. وقيل: بل توفي بمراكش بعد انصرافه من سلا، في جُمادى الأولى سنة خمس وتسعين. وقيل: بل كانت وفاته في صفر منها.

وكانت ولايته خمس عشرة سنة.

وكان رحمه الله ديِّنًا، حسن السيرة، كثير الجهاد، إلا أنه كان يتمذهب بمذهب الظاهرية ولا يكتمه. فعظموا في أيامه وانتشروا في البلاد، ومال إليهم.

---

(١) بنو عوف: بطن من بهثة، وبنو بهثة: بطن من سليم، من العدنانية... قال الحمداني: ومنهم في الصعيد والفيوم والبحيرة، وبالمغرب فيما بين قابس وبلد العناب من إفريقية... (نهاية الأرب للقلقشندي).

(٢) وحدّوا: أي صاروا من حزب الموحدين.

وحكى بعض المؤرخين أنه كان في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة أظهر الزهد والتقشف وخشونة المأكل والملبس. وانتشرت في أيامه الصالحون وأهل الحديث. وانقطع علم الفروع. وأمر بإحراق كتب المذهب بعد أن يجرد منها الحديث والقرآن. فحرِّق منها جملة في سائر البلاد كالمدونة وكتاب ابن يونس، ونوادر ابن أبي زيد، ومختصره، والتهذيب للبرادعي، والواضحة. وأمر بجمع الحديث من المصنفات كالبخاري، ومسلم، والترمذي، والموطأ، وسنن أبي داود، والبزار، وابن أبي شيبة، والدارقطني، والبيهقي، فجمع ذلك كله. فكان يمليه بنفسه على الناس ويأخذهم بحفظه. قال: وانتشر هذا المجموع في بلاد المغرب، وحفظه العوام والخواص. وكان يجعل لمن حفظه الجوائز السنية. وكان قصده أن يمحو مذهب مالك من بلاد المغرب، ويحمل الناس على الظاهر من الكتاب والسنّة. وكان له من الأولاد محمد وهو ولي عهده، وإبراهيم، وعبد الله، وعبد العزيز، وأبو بكر، وزكريا، وإدريس، وعيسى، وموسى، وصالح، وعثمان، ويونس، وسعد، ومساعد. فهؤلاء أربعة عشر ولدًا.

ولما مات ولّي بعده ابنه محمد.

ذكر ولاية أبي عبد الله محمد بن أبي يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ابن علي الملقب الناصر لدين الله

كان أبوه قد ولاه العهد في حياته. واستقل بالملك بعده، واستقام أمر دولته، وأطاعه الناس، وذلك في جُمادى الأولى سنة خمس وتسعين وخمسمائة. ولما ولّي اتصل به فساد إفريقية. فأنفذ عمه أبا العلاء في سبعين شينيًا مشحونة بالعدد والمقاتلة. وجهز جيشًا في البرّ مع أبي الحسن علي بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن فوصل إلى قسنطينة الهواء. ووصل الأسطول إلى بجاية. فلما اتصل خبرهم بعلي بن إسحاق ومن معه من العرب هربوا وتركوا إفريقية ودخلوا إلى الصحراء. وتمادى بعض الأسطول إلى المهدية، فقبح مقدمهم على محمد بن عبد الكريم فعله. فشكا إليه ما ناله من أبي سعيد، وقال: «أنا في طاعة سيدنا أمير المؤمنين محمد، وما أسلم المهدية إلا له أو لمن يأمرني بتسليمها إليه. وأما أبو سعيد فلا أسلمها إليه أبدًا» فأرسل محمد من تسلمها منه. وعاد إلى الطاعة.

قال: وجهز محمد جماعة من العرب إلى الأندلس واحتاط واحترز. فأتاه جماعة رسل من ملوك الفرنج يطلبون دوام الهدنة ويشاهدون أحوال الدولة. فأنزلهم على العادة، وحضروا مجلسه فطلبوا دوام الهدنة التي كانت بينهم وبين أبيه، واستقراض مائة ألف دينار. فقال لهم: «المال والحمد لله لدينا والرجال، ونحن نجيب إلى ذلك بشرط أن ترهنوا عندنا معاقل على المال تكون بأيدينا إلى حين الوفاء. وإن كان هذا منكم امتحانًا فالسيوف التي تعرفون ما رُدَّت في أغمادها والرماح ما حصلت على أوتادها» فانصرفوا وقد ملأ قلوبهم رعبًا. وأبقوا الهدنة على ما كانت وأعرضوا عن ذكر السلف.

قال: وخرج أقارب يحيى بن إسحاق الميورقي من ميورقة لما علموا بموت يعقوب في أسطول كبير إلى جزيرة مَنُرقة[١]،وهي في طاعة محمد. ففتحوها واحتووا على أموالها، وتركوا فيها جندًا يحفظونها. فاتصل ذلك بالأمير محمد. فجهز أسطولاً في غير أوان ركوب البحر في كانون، وقدم عليهم أبا زيد. فوصل إلى منرقة ففتحها عنوة بالسيف وقتل بعض من فيها. وتوجه إلى جزيرة ميورقة ففتحها وقتل بعض من بها من الجند. وأسر ثلاثة من أقارب يحيى بن إسحاق وقُتل منهم واحد في المعركة. وذلك كله في سنة خمس وتسعين وخمسمائة.

انتهى تاريخ ابن شداد وابن الأثير في أخبار المغرب إلى هذه الغاية.

وقال غيرهما ممن أرخ للمغاربة: وفي سنة سبع وتسعين وخمسمائة، قام بالسوس رجل جَزولي يعرف بأبي قصبة، ودعا لنفسه، واجتمع عليه خلق كثير ثم هزمه الموحدون وأسلمه أصحابه، وقتل.

وفي سنة إحدى وستمائة، تجهز محمد بن يعقوب في جيوش عظيمة لقصد إفريقية، وكان يحيى بن غانية اللمتوني قد استولى عليها ما خلا قسنطينة وبجاية. فنزل إفريقية وملكها، ولم يمتنع عليه منها إلا المهدية. فأقام عليها أربعة أشهر، وكان فيها الحسن بن علي بن عبد الله بن محمد بن غانية واليًا لابن عمه يحيى. فلما طال عليه الحصار سلمها وخرج يقصد ابن عمه. ثم بدا له فراسل الأمير محمدًا فقبله أحسن قبول ووصَله بالصِّلات السنية.

---

(١) منورقة: (في معجم البلدان لياقوت): جزيرة عامرة في شرقي الأندلس قرب ميورقة، إحداهما بالنون والأخرى بالياء.

ثم ترك بإفريقية من يقوم بحمايتها، واستعمل عليها أبا محمد عبد الواحد. ورجع إلى مراكش في سنة أربع وستمائة. وأقام بها إلى أول سنة سبع وستمائة. فقصد بلاد الروم بالغزو، ونزل على قلعة تسمى شَلْبَ تِرَّة ففتحها. فجمع له الأذفنش جموعًا عظيمة من الأندلس والشام والقسطنطينية. فالتقيا بموضع يعرف بالعِقاب. فدهم الأدفنش المسلمين وهم على غير أهبة. فانهزموا وقتل من الموحدين خلق كثير. وثبت الأمير محمد ثباتًا لم ير من ملك قبله. ولولا ذلك لاستُؤصلت تلك الجموع. ثم رجع إلى مراكش. وكانت الهزيمة في يوم الاثنين منتصف صفر سنة تسع وستمائة. وانفصل الأدفنش، وقصد بياسة فوجدها خالية. فقصد أُبُذَّة[1] فوجد فيها من المسلمين عددًا كثيرًا من المنهزمين وأهل بياسة. فأقام عليها ثلاثة عشر يومًا، ودخلها عنوة وسبى وغنم. فكانت هذه أشد على المسلمين من الهزيمة.

ذكر وفاة أبي عبد الله محمد وشيء من أخباره

كانت وفاته بمدينة مراكش لعشر خلون، وقيل: لخمس خلون من شعبان سنة عشر وستمائة. فكانت ولايته خمس عشرة سنة وشهورًا.

وكان شديد الصمت، بعيد الغور، كثير الإطراق، حليمًا، شجاعًا، عفيفًا عن الدماء، قليل الخوض فيما لا يعنيه، إلا أنه كان نحيلاً ألثغ.

وكان له من الأولاد يوسف، وهو ولي عهده، ويحيى، وإسحاق. توفي يحيى في حياته.

ولما مات ولّي بعده ابنه يوسف.

ذكر ولاية يوسف بن محمد بن يعقوب ابن يوسف بن عبد المؤمن بن عليّ

كانت ولايته بعد وفاة أبيه في شعبان سنة عشر وستمائة، وعمره يوم ذاك ست عشرة سنة. وقام ببيعته من القرابة أبو موسى عيسى بن عبد المؤمن عمّ جده، الذي دخل عليه الميورقيون بجاية، وهو آخر من بقي من ولد عبد المؤمن لصلبه، وأبو زكريا يحيى بن عمر بن عبد المؤمن. بويع له البيعة الخاصة في يومي الخميس

---

(١) أُبُذَّة: بالضم ثم الفتح والتشديد: اسم مدينة بالأندلس من كورة جيان، تعرف بأبدة العرب... (معجم البلدان).

والجمعة، بايعه أشياخ الموحدين والقرابة. وفي يوم السبت أذن للناس عامة وأبو عبد الله بن عياش الكاتب قائم على رأسه يقول للناس: «تبايعون أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين، على ما بايع عليه أصحاب رسول الله ﷺ من السمع والطاعة في المَنْشط والمَكْرَه واليُسْر والعُسر، والنصح له ولولاته ولعامة المسلمين، هذا ما له عليكم. ولكم عليه أن يحمي ثغوركم، وأن لا يدخر عنكم شيئًا مما نعمكم مصلحته، وأن يعجل لكم عطاءكم. وأن لا يحتجب دونكم. أعانكم الله على الوفاء، وأعانه على ما قلده من أموركم».

قال المؤرخ: ولما مضى من ولاية يوسف هذا أربعة أشهر، قبض على رجل كان قد ثار عليهم اسمه عبد الرحمٰن، ادعى أنه من أولاد العاضد من خلفاء المصريين. وكان خروجه في زمن أبيه محمد بن يعقوب، والتَّفت عليه ببلاد صنهاجة جماعة كبيرة. وكان كثير الإطراق والصمت، حسن الهيئة. وقصد سجلماسة في حياة محمد بن يعقوب في جيش عظيم. فخرج إليه متوليها سليمان بن عمر بن عبد المؤمن. فهزمه عبد الرحمٰن هذا، وأعاده إلى سجلماسة أسوأ عَوْد. ولم يزل يتنقل في قبائل البربر ولا تثبت عليه جماعة لأنه غريب البلد، حتى قُبض عليه بظاهر فاس. فضُربت عنقه وصُلب، ووُجِّه برأسه إلى مراكش.

وثار في أيام يوسف رجل ببلاد جَزولة يدعي أنه فاطمي، فقُتل وجِيء برأسه.

وثار آخر من صنهاجة، فقُتل في سنة ثماني عشرة وستمائة، بعد أن أثر آثارًا قبيحة، وهزم بعوثًا كثيرة، وأفسد خلقًا من الناس.

واستمر يوسف هذا إلى سنة عشرين وستمائة.

ذكر وفاة يوسف بن محمد

كانت وفاته في شوال أو ذي القعدة سنة عشرين وستمائة. فكانت ولايته عشر سنين وثلاثة أشهر تقريبًا. ولم أقف من أخباره على غير ما وضعت، فأورده.

ذكر ولاية أبي محمد عبد العزيز بن يوسف ابن عبد المؤمن

كانت ولايته في ذي القعدة سنة عشرين وستمائة بعد وفاة يوسف بن محمد. وكان يوسف بن محمد ولاه مدينة إشبيلية حين عزل عنها أخاه أبا العلاء إدريس وولاه إفريقية. فلما توفي يوسف اضطرب الأمر. فاجتمع معظم الناس على تقديم أبي محمد عبد العزيز. فبايعوا له وولّوه أمرهم.

قالوا: وكان عبد العزيز هذا في أيام إمارته قبل أن يصير الأمر إليه مجتهدًا في دينه، شديد البصيرة في أمره، قوي العزيمة، شديد الشكيمة، لا تأخذه في الله لومة لائم، أرطب الناس لسانًا بذكر الله وأتلاهم لكتابه، مع دماثة خلق ولين جانب وخفض جناح لأصحابه، مع سخاء نفس وطلاقة وجه.

هذا ما وقفت عليه من أخبار ملوك دولة الموحدين مما دُوِّن لهم، على ما فيه من الاختصار. ثم انقطعت أخبار ملوك المغرب عن الديار المصرية. فلم يصل إلينا من خبرهم إلا ما نتلقاه من أفواه الناس. ولم يتحقق من أخبارهم ما نورده فتكون العمدة عليه، لكنا علمنا مَنْ ولي الأمر من ملوك هذه الدولة بعد أبي محمد عبد العزيز هذا واحدًا بعد واحد إلى أن انقرضت الدولة وقامت دولة زناتة، من غير أن نتحقق تاريخ ولاية أحد منهم ولا وفاته. فرأينا أن نذكر ذلك مجردًا عاريًا من الأخبار والوقائع. ونقلت ذلك عن ثقة أخبرني أنه نقله عن ثقات. وها أنا أورده كما أخبرني.

قال: ولي الأمر بعد أبي محمد عبد العزيز المستنصرُ بالله أبو يعقوب يوسف بن الناصر لدين الله أبي عبد الله محمد بن المنصور بالله أبي يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن.

ثم ولّي الأمر بعده أبو محمد عبد الواحد بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن.

ثم ولّي الأمر بعده العادل أبو محمد عبد الله بن المنصور بالله أبي يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن.

ثم ولّي بعده أبو زكريا يحيى بن الناصر لدين الله أبي عبد الله محمد، وهو أخو المستنصر بالله المقدم ذكره.

ثم ولّي بعده أبو العلاء إدريس المأمون بن المنصور أبي يوسف يعقوب.

ثم ولّي بعده ابنه الرشيد عبد الواحد بن المأمون إدريس.

ثم ولّي بعده أخوه السعيد أبو الحسن علي بن المأمون إدريس، وهو المعروف بالبرّاك، وإنما سمي بالبراك لثبوته في الحرب.

ثم ولّي بعده المرتضى أبو حفص عمر بن أبي إبراهيم إسحاق.

ثم ولّي بعده الواثق بالله أبو العلاء إدريس المعروف بأبي دبوس بن أبي عبد الله محمد بن عمر بن عبد المؤمن، وإنما سمّي بأبي دبوس لثقل دبوسه[1].

(١) الدبوس: عمود على شكل هراوة مدملكة الرأس.

ثم ولّي بعده ولده أبو مالك عبد الواحد بن أبي العلاء إدريس. وعليه انقرضت دولتهم وقامت الدولة المرينية، وهم زنانة، وهي الدولة القائمة في عصرنا هذا. ولما انتزع من الملك انتقل إلى بلاد الفرنج فكان بها إلى أن ثار على بني أبي حفص بساحل طرابلس الغرب وأعانته الأعراب على ذلك. ثم قُتل بعد أربعة أشهر أو نحوها من نهوضه ولم يتم له ما قصده.

ثم قام بعده أخوه أبو سعيد عثمان بن إدريس، وملك مدينة قابس وبلاد نفزاوة[1]، وأقام بها مدة. ثم أُخرج منها فتوجه مع العرب إلى البرية. ثم ثار معهم بإفريقية حتى انتهى إلى جبل الريحان، وهو على مرحلة من تونس. ثم خذله العرب فتوجه إلى بلاد الفرنج.

قال: وكان انقراض دولة الموحدين في سنة ست وستين وستمائة تقريبًا.

جامع أخبار دولة الموحدين

كانت مدة قيام هذه الدولة من حين ظهر المهدي محمد بن تومرت في سنة أربع عشرة وخمسمائة وإلى حين انقراضها في سنة ست وستين وستمائة، مائة سنة وثلاثًا وخمسين سنة تقريبًا. وعدة من ملك منهم سبعة عشر ملكًا، وهم:

المهدي محمد بن تومرت الحسني.

عبد المؤمن بن علي.

أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن.

أبو يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن.

أبو عبد الله محمد بن أبي يوسف.

ولده يوسف بن محمد.

أبو محمد عبد العزيز بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن.

المستنصر بالله أبو يعقوب يوسف بن أبي عبد الله محمد بن أبي يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن.

أبو محمد عبد الواحد بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن.

---

(١) نفزاوية: بالكسر ثم السكون، وزاي، وبعد الألف واو مفتوحة: مدينة من أعمال إفريقية... وبها عين تسمى بالبربرية تاورغي، وهي عين كبيرة لا يدرك قعرها... (معجم ياقوت).

أبو محمد عبد الله بن أبي يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن.

أبو زكريا يحيى بن أبي عبد الله محمد بن أبي يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن.

أبو العلاء إدريس بن أبي يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن.

ولده عبد الواحد بن إدريس.

أخوه أبو الحسن علي بن إدريس وهو البراك.

أبو حفص عمر بن أبي إبراهيم إسحاق.

أبو العلاء إدريس بن أبي عبد الله محمد بن عمر بن عبد المؤمن.

ولده أبو مالك عبد الواحد بن أبي العلاء إدريس.

ذكر تسمية ملوك بني مرين

أول من قام من ملوكهم أبو بكر بن عبد الحق. استولى على بعض بلاد الموحدين بني عبد المؤمن ثم مات قبل أن يخلص له الأمر ببلاد المغرب.

فملك بعده أخوه يعقوب بن عبد الحق المعروف بابن تابطويت وهي أمه نسبت إلى قبيلة بَطُّويت، وهي قبيلة كبيرة من قبائل زناتة. وفي أيامه انقرضت دولة بني عبد المؤمن، وعظم شأنه، واتّسع ملكه، وطالت مدته ثم مات.

فملك بعده ولده يوسف المعروف بأبي الزردات واهتز له المغرب، وعظم شأنه، وهابه ملوك المغرب ومع ذلك لم يأْت بطائل. وحاصر تلمسان فمكث على حصارها نحو أربع عشرة سنة، وابتنى عليها مدينة سكنها بجيوشه. ومات قبل أن يملكها، وذلك أن بعض خدامه وثب عليه فضربه.

فلما تحقق الموتَ عهد بالملك إلى ولده أبي سالم إبراهيم فملك بعده. وخالف عليه ابن أخيه أبو ثابت عامر بن عبد الله بن يوسف أبي الزردات وعمه أبو يحيى أبو بكر بن يعقوب بن عبد الحق. واجتمع عليهما بنو مرين[1] وهم على تلمسان. فخافهما إبراهيم وهرب من ليلته، فاتُّبع وقُتل.

---

(١) بنو مرين: بطن من زناتة، من البربر.

واستقر الملك لعامر وعم أبيه أبي يحيى يومًا واحدًا. ثم قام عبد الله بن أبي مدين المكناسي وزير يوسف بن يعقوب ـ وهو المستولي على الدولة ـ وعلم أن أبا يحيى إن استمر تغلب على الملك وتحكم عليه، ورأى أنه إذا انفرد عامر بالملك مع صغر سنّه كان هو المتحكم في المملكة فأغرى عامرًا بأبي يحيى، فأمر به فقُتل في اليوم الثاني. واستقل عامر بالملك مدة سنة واحدة وشهر ثم مات بطنجة.

فقام لطلب الملك بعده عمه علي بن يوسف المعروف بابن رُزيجة ورزيجة أمه أم ولد. فلم يتم له أمر. فقام عبد الله بن أبي مدين الوزير وبايع لأبي الربيع سليمان بن عبد الله بن يوسف بن يعقوب، وهو ابن سبع عشرة سنة أو نحوها. واستقر في الملك ثلاث سنين حتى مات بناحية تازا.

ثم ملك بعده عم أبيه عثمان بن يعقوب. وقتل ابن أبي مدين في أيام سليمان بن عبد الله بأمره بمدينة فاس. وولي الوزارة بعده لأبي الربيع سليمانَ أخوه محمد بن أبي مدين. وعثمان هذا هو الملك القائم في وقتنا هذا، في سنة تسع عشرة وسبعمائة.

وإنما اقتصرنا من أخبارهم على هذه النبذة لأنهم منعوا في ابتداء دولتهم أن يُؤرَّخ لهم أو تُدوَّن أخبارهم، وقتلوا محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار، وكان قد أرخ أخبارهم وأخبار غيرهم، وأعدموا ما وجدوه عنده وعند غيره من أوراق التاريخ المنسوبة لهم ولغيرهم. فهذا هو الذي منع من انتشار أخبارهم.

فلنذكر أخبار جزيرة صقلية واقريطش[1].

ذكر أخبار جزيرة صقلية
ومن غزاها من المسلمين وما افتتح منها، وكيف استولت الفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ عليها

قد ذكرنا صفة جزيرة صقلية، وما بها من الأنهار والعيون والفواكه والأشجار والنبات والكلأ، وما بها من المدن المشهورة. وأتينا على ذلك مبينًا، وهو في السِّفر الأول من كتابنا هذا في أخبار الجزائر. فلنذكر الآن في هذا الموضع خلاف ما قدمناه من أخبارها. فنقول:

---

(١) إقريطش: بفتح الهمزة وتكسر، والقاف ساكنة، والراء مكسورة، وياء ساكنة، وطاء مكسورة، وشين معجمة: اسم جزيرة في بحر المغرب يقابلها من بر إفريقية لوبيا، وهي جزيرة كبيرة فيها مدن وقرى، وينسب إليها جماعة من العلماء. . . (معجم البلدان).

أول من غزا جزيرة صقلية في الإسلام

عبد الله بن قيس الفَزاري من قِبَل معاوية بن حُديج، وكان قد بعثه من إفريقية، وذلك في خلافة معاوية بن أبي سفيان. ففتح وسبى وغنم فكان مما غنم أصنامًا من ذهب وفضة مكللة بالجواهر. فحملها إلى معاوية بن أبي سفيان. فأنفذها معاوية إلى الهند لزيادة ثمنها. فأنكر المسلمون ذلك عليه.

ثم غزاها بعد ذلك محمد بن أبي إدريس الأنصاري، في أيام يزيد بن عبد الملك، فقدم بغنائم وسبايا.

ثم غزاها بشر بن صَفْوان الكَلْبي، في أيام هشام بن عبد الملك فقدم بغنائم وسبايا.

ثم غزاها حبيب بن أبي عبيدة، في سنة اثنتين وعشرين ومائة ومعه ولده عبد الرحمٰن بن حبيب. فوجهه على الخيل فلم يلقه أحد إلا هزمه عبد الرحمٰن حتى انتهى إلى سَرَقوسة، وهي دار الملك فقاتلوه، فهزمهم وضرب باب المدينة بسيفه فأثَّر فيه. فهابه النصارى ورضوا بالجزية. فأخذها منهم ثم توجه إلى أبيه. فرجعا إلى إفريقية.

ثم غزاها عبد الرحمٰن بن حبيب، في سنة ثلاثين ومائة فظفر.

ثم اشتغل ولاة إفريقية بالفتن التي قدمنا ذكرها في أخبارهم فأمن أهل جزيرة صقلية، وعمرها الروم من كل الجهات، وبنوا بها المعامل والحصون، ولم يتركوا جبلاً إلا جعلوا عليه حصنًا.

وفي سنة إحدى عشرة ومائتين، ولّى ملك القسطنطينية على صقلية قسنطين البطريق الملقب بسودة فعمر أسطولاً وسيره إلى برّ إفريقية. وولّى عليهم فيمي الرومي، وكان مقدمًا من بطارقته، فاختطف من بعض سواحلها مجازًا[١]، وبقي مدة. فوصل كتاب صاحب القسطنطينية إلى قسنطين، يأمره بعزل فيمي وأن يعذبه لشيء بلغه عنه. فاتصل ذلك بفيمي، فمضى إلى مدينة سرقوسة. وملكها ونزع يده من الطاعة. فخرج إليه قسنطين، فالتقوا واقتتلوا، فانهزم قسنطين وقتل. وخوطب فيمي بالملك. وكان ممن انقطع إليه علج من الأرمنيين، يقال له بلاطة. فقدمه وولاه على ناحية من الجزيرة. فخالف على فيمي وخرج إليه وقاتله. فانهزم فيمي وقتل من أصحابه ألف رجل. ودخل بلاطة مدينة سرقوسة.

---

(١) مجازًا: أي قطعة من الساحل، وهي ما يعبر عنه الآن برأس الجسر.

وركب فيمي ومن معه في البحر. وتوجه إلى إفريقية إلى زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب يستنصر به. فجمع زيادة الله وجوه أهل القيروان وفقهاءها واستشارهم في إنفاذ الأسطول إلى جزيرة صقلية. فقال بعضهم: «نغزوها ولا نسكنها ولا نتخذها وطنًا» فقال سحنون بن قادم رحمه الله: «كم بينها وبين بلاد الروم؟» فقالوا: «يروح الإنسان مرتين وثلاثة في النهار ويرجع» قال: «ومن ناحية إفريقية» قالوا: «يوم وليلة» قال: «لو كنت طائرًا ما طرت عليها» وأشار من بقي بغزوها، ورغبوا في ذلك، وسارعوا إليه. فخرج أمر زيادة الله إلى فيمي بالتوجه إلى مرسى سوسة[١]، والإقامة هناك إلى أن يأتيه الأسطول. وجمع الأسطول والمقاتلة. واستعمل عليهم القاضي أسد بن الفرات. وأقلع الأسطول من مدينة سوسة يوم السبت للنصف من شهر ربيع الأول سنة اثنتي عشرة ومائتين، وهو نحو مائة مركب سوى مراكب فيمي، وذلك في خلافة المأمون. فوصل مازَر يوم الثلاثاء. فأمر بالخيل فأُخرجت من المراكب، وكانت سبعمائة فرس وعشرة آلاف راجل. وأقام ثلاثة أيام. فلم يخرج إليه إلا سرية واحدة. فأخذها، فإذا هي من أصحاب فيمي، فتركها.

ثم رحل من مازر على تعبئة قاصدًا بلاطة وهو بمرج ينسب إليه. فعبأ القاضي أسد أصحابه للقتال. وأفرد فيمي ومن معه ولم يستعن بهم. والتقوا واقتتلوا، فانهزم بلاطة ومن معه. وقُتل منهم خلق كثير. وغنم المسلمون ما معهم. ولحق بلاطة بقَصْريانة[٢] ثم غلبه الخوف فخرج منها إلى أرض قِلَّوْرِية فقُتل بها.

ثم سار القاضي أسد إلى الكنيسة التي على البحر وتعرف بأفيمية واستعمل على مازر أبا زكي الكناني.

ثم سار إلى كنيسة المسلقين. فلقيه طائفة من بطارقة سرقوسة فسألوه الأمان خديعة ومكرًا. واجتمع أهل الجزيرة إلى قلعة الكُرّاث وجمعوا فيها جميع أموال أهل الجزيرة. وذلّ أهل سرقوسة وألقوا بأيديهم. فلما شاهد ذلك فيمي داخلته حمية الكفر. فأرسل إليهم أن يثبتوا وأن يجدوا في الحرب ويستعدوا. وأقام القاضي أسد

---

(١) سوسة: بضم أوله: هي مدينة عظيمة بها قوم لونهم لون الحنطة يضرب إلى الصفرة، ومن السوسة يخرج إلى السوس الأقصى على ساحل البحر المحيط بالدنيا، فمن السوس الأقصى إلى القيروان ثلاثة آلاف فرسخ يقطعها السالك في ثلاث سنين... (معجم البلدان).

(٢) قصريانة: بالياء المثناة من تحت، وألف ساكنة، ثم نون مكسورة وبعدها هاء ساكنة: هو اسم لمدينة كبيرة بجزيرة صقلية على سنّ جبل يشتمل سورها على زروع وبساتين وعيون ومياه... (معجم ياقوت).

في موضعه أيامًا. وتبين له أنهم مكروا به حتى أصلحوا حصنهم وأدخلوا إليه جميع ما كان في الرَّبض وفي الكنائس من الذهب والفضة والميرة. فتقدم وناصَبهم القتال. وبثّ السرايا في كل ناحية فغنموا وسبوا سَبْيًا كثيرًا. وأتوه بالسبي والغنائم وأتته الأساطيل من إفريقية والأندلس. وشدّد القاضي الحصار على مدينة سرقوسة. فسألوه الأمان فأراد أن يفعل. فأبى عليه المسلمون وعاودوا الحرب. فمرض القاضي أسد في خلال ذلك، ومات في شعبان سنة ثلاث عشرة ومائتين.

ذكر ولاية محمد بن أبي الحواري

قال: ولما توفي القاضي أسد بن الفرات، ولّى المسلمون على أنفسهم محمد بن أبي الحُوّارَى، فضيّق على أهل سرقوسة. فوصل من القسطنطينية أسطول كبير وعساكر في البر. فعزم المسلمون على العود إلى إفريقية، فرحلوا عن سرقوسة وأصلحوا مراكبهم وركبوها. فوقفت مراكب الروم على المرسى الكبير ومنعوهم من الخروج.

فأحرق المسلمون مراكب نفوسهم. ورحلوا إلى حصن مناو[1] ومعهم فيمي. فملكوا الحصن وسكنوه.

وملكوا حصن جرجنت[2] وسكنه طائفة من المسلمين.

ثم خرج فيمي إلى قصريانة، فخرج إليه أهلها وبذلوا له الطاعة وخدعوه. وقالوا له: «نكون نحن وأنت والمسلمون على كلمة واحدة ونخلع طاعة الملك» وسألوه أن يرجع عنهم ذلك اليوم لينظروا فيما يصالحون عليه. فرجع عنهم يومه ذلك. ثم جاءهم في الغد في نفر يسير. فخرجوا يقبلون الأرض بين يديه، وكانوا قد دفنوا سلاحًا في تلك البقعة. فلما قرب منهم، أخرجوا السلاح وثاروا به فقتلوه.

ثم وصل تُودِط البطرك من القسطنطينية في عساكر عظيمة من الأرمن وغيرهم، وتوجه إلى قصريانة. وخرج بمجموعة للقاء المسلمين. فالتقوا فانهزم تودط. وقتل من عسكره خلق كثير، وأُسر من بطارقته تسعون بطريقًا. ثم توفي محمد بن أبي الحوارى في أول سنة أربع عشرة ومائتين.

فولى المسلمون عليهم زهير بن برغوث. وكان بينه وبين تودط حروب كثيرة. وحاصر المسلمين في حصنهم وضاقت عليهم الميرة وقلّت الأقوات حتى أكلوا

---

(١) في معجم ياقوت: ميناو: مدينة بصقلية.

(٢) في معجم البلدان لياقوت: كركنت: بلد على ساحل البحر في جزيرة صقلية.

دوابهم. ولم يزالوا كذلك حتى قدم أصْبَغ بن وكيل الهواري في مراكب كثيرة من الأندلس قد خرجوا غزاة، وقدم سليمان بن عافية الطرطوشي بمراكب. فأرسل المسلمون إليهم وسألوهم النصرة، وأرسلوا إليهم دواب. فخرجوا وقصدوا تودط، وهو مقيم على مناو. فانصرف إلى قصريانة وارتفع الحصار عن المسلمين، وذلك في جُمادى الآخرة سنة خمس عشرة ومائتين.

ذكر فتح مدينة بلرم[١]

كان ابتداء حصارها في جُمادى الآخرة سنة خمس عشرة ومائتين. ودام إلى شهر رجب سنة عشرين ومائتين، وفتحت بالأمان، وذلك في ولاية محمد بن عبد الله بن الأغلب.

وفي سنة خمس وعشرين ومائتين، استأْمنت قلاع كثيرة من قلاع جزيرة صقلية منها جَرصَة وقلعة البلوط[٢]، وابلاطنوا وقلعة قُرُلُون[٣]، ومرناو، وغير ذلك.

ذكر وفاة محمد بن عبد الله بن الأغلب وولاية العباس بن الفضل بن يعقوب

وفي سنة ست وثلاثين ومائتين، توفي محمد بن عبد الله بن الأغلب لعشر خلون من شهر رجب. فكانت ولايته تسع عشرة سنة. وكان في مدة ولايته لا يخرج من مدينة بَلَرْم بل كان يخرج السرايا مع ولاته. فلما مات اجتمع الناس على ولاية العباس بن الفضل فولوه. وكتبوا بذلك إلى الأمير محمد بن الأغلب أمير القيروان فولاه الجزيرة. فكان يخرج بنفسه تارة وبسراياه أخرى. وهو يخرب في بلاد العدو ويُنكي، وينال منهم ومن بلادهم، ويصالحونه على الأموال والرقيق.

---

(١) بلرم: بفتح أوله وثانيه، وسكون الراء، وميم: هي أعظم مدينة في جزيرة صقلية في بحر المغرب على شاطىء البحر... وقيل: هي مدينة كبيرة سورها شاهق منيع مبني من حجر وجامعها كان بيعة وفيها هيكل عظيم... (معجم البلدان).

(٢) البلوط: قلعة البلوط: بصقلية، حولها أنهار وأشجار وأثمار وأراض كريمة تنبت كل شيء... (معجم ياقوت).

(٣) قرلون: بضم أوله وثانيه، وتشديد اللام، وسكون الواو، وآخره نون: مدينة بسواحل جزيرة صقلية.

ذكر فتح قصريانة وهي دار مملكة الروم بجزيرة صقلية

قال المؤرخ: كانت سرقوسة دار ملك الجزيرة إلى أن فتح المسلمون بلرم.

فانتقل الروم إلى قصريانة لحصانتها وجعلوها دار ملكهم. فلما كان في سنة أربع وأربعين ومائتين، خرج العباس بن الفضل فوصل إلى قصريانة وسرقوسة. وأخرج أخاه عليًا في المراكب الحربية في البحر. فلقيه الإقريطشي في أربعين شُلُنْدِيا. فقاتلهم أشدّ قتال، فهزمهم وأخذ منهم عشر شلنديات برجالها، ورجع.

ثم سيّر العباس سرية إلى قصريانة فغنموا وقدموا بعلج. فأمر العباس بقتله، فقال له العلج: «استبقِني ولك عندي نصيحة» فخلا به وسأله: «ما النصيحة؟» فقال: «أُدخِلك قصريانة» فعند ذلك خرج العباس في كانون في أنجاد رجاله، والعِلج معه، وهو في ألف فارس وسبعمائة راجل، فجعل على كل عشرة مقدمًا. ثم سار بهم ليلًا حتى نزل على مرحلة من جبل الغدير. وقدم عمه رباحًا في خيار أصحابه. وأقام هو بموضعه وهو مستتر. ومضى عمه رباح بمن معه يدبون دبيبًا حتى صاروا إلى جبل المدينة، والعلج معهم. فأراهم الموضع الذي ينبغي أن توضع عليه السلاليم. فتلطفوا في الصعود إلى الجبل، وذلك الوقت قريب الصبح وقد نام الحرس. فلما وصلوا إلى السور، دخلوا من خوْخة[1] كانت في السور يدخل منها الماء. ووضعوا السيف. وفتحوا الأبواب. وأقبل العباس يجد السير. وقصد باب المدينة، ودخلها صلاة الصبح من يوم الخميس لأربع عشرة ليلة بقيت من شوال. وقتل من وجد بها من المقاتلة، وكان بها بنات البطارقة وأبناء ملوك الروم. فوجد المسلمون بها ما لا يحصى من الأموال. وبنى العباس فيها مسجدًا في يومه، ونصب فيه منبرًا، وخطب عليه الخطيب يوم الجمعة.

وما زال العباس يُداوم الغزو بنفسه إلى أن توفي في يوم الجمعة لثلاث خلون من جُمادى الآخرة سنة سبع وأربعين ومائتين. فكانت ولايته إحدى عشرة سنة.

قال: ولما مات العباس، ولّى الناس على أنفسهم أحمد بن يعقوب.

ثم ولّوا عبد الله بن العباس، وكتبوا إلى أمير القيروان. فولّي خمسة أشهر.

---

(١) الخوخة: كوة في البيت تؤدي إليه الضوء.

ثم وصل إليهم خفاجة بن سفيان في سنة ثمان وأربعين ومائتين. ودام الغزو إلى أن اغتاله رجل من جنده عند مُنصرَفه من غزاة فقتله. وذلك في يوم الثلاثاء مستهل شهر رجب سنة خمس وخمسين ومائتين. ويقال: إن الذي قتله خلفون بن أبي زياد الهواري.

قال: ولما قتل خفاجة، ولّى الناس على أنفسهم ابنه محمد بن خفاجة. ثم أتته الولاية من قبل أمير القيروان. ثم قتله خدامه الخصيان لثلاث خلون من شهر رجب سنة سبع وخمسين ومائتين وهربوا. فأُخذوا وقُتلوا.

فولّى الناس عليهم محمد بن أبي الحسين، وكتبوا إلى إفريقية. فبعث أمير إفريقية بولايتها إلى رباح بن يعقوب. وولّى الأرض الكبيرة عبد الله بن يعقوب. فمات رباح في المحرم سنة ثمان وخمسين ومائتين. ومات بعده أخوه في صفر مِن السنة.

فولّى الناس عليهم أبا العباس بن عبد الله بن يعقوب فأقام أشهرًا ثم مات. فولوا أخاه.

ثم ولّي الحسين بن رباح من قبل أمير إفريقية.

ثم عزله واستعمل عبد الله بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب في شوال سنة تسع وخمسين ومائتين.

ثم عزله وولّى أبا مالك أحمد بن عمر بن عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب المعروف بحبشي. فبقي متوليًا عليها ستًا وعشرين سنة.

ثم وليها أبو العباس بن إبراهيم بن أحمد في سنة سبع وثمانين ومائتين. فأقام إلى أن انخلع له أبوه إبراهيم بن أحمد من الملك، فرده إلى إفريقية. وسار إبراهيم إلى صقلية وغزا بنفسه، كما ذكرناه في أخباره آنفًا. ومات في الغزو.

ثم وليها محمد بن السرقوسي مولى إبراهيم بن أحمد.

ثم ولي علي بن أبي الفوارس في سنة تسعين ومائتين. فأقام بها إلى سنة خمس وتسعين ومائتين. فعزله زيادة الله. واستعمل أحمد بن أبي الحسين بن رباح.

ثم بلغ أهل صقلية تغلب أبي عبد الله الشيعي على بلاد إفريقية. فوثب أهل صقلية على أحمد، وانتهبوا ماله وحبسوه. وولوا عليهم علي بن أبي الفوارس لعشر من شهر رجب سنة ست وتسعين ومائتين. وأرسلوا ابن أبي الحسين إلى أبي عبد الله الشيعي. وكتبوا إليه كتابًا يسألونه إبقاء عليّ عليهم، فأجابهم إلى ذلك. وكتب إليه أن يغزو برًا وبحرًا. وكان أحمد بن أبي الحسين آخر ولاة بني الأغلب بصقلية.

وكان لكل واحد من الولاة الذين ذكرناهم غزوات وسرايا وجهاد في العدو.

قال: ولما ولّي المهدي بعد بني الأغلب، كتب إليه ابن أبي الفوارس يستأذنه في القدوم إلى إفريقية، فأذن له فخرج إليه. فلما وصل حبسه برقادة.

ذكر ولاية حسن بن أحمد بن أبي خنزير

كانت ولايته من قبل المهدي. فوصل إلى صقلية في عاشر ذي الحجة سنة سبع وتسعين ومائتين. فثار به أهل المدينة في سنة ثمان وتسعين وقبضوا عليه. وكان سبب ذلك أن عماله جاروا على الناس. واتفق أنه صنع طعامًا ودعا إليه وجوه الناس. فلما صاروا عنده زعم بعضهم أنه رأى عبيده يتعاطون السيوف المسلولة. فخافوا وفتحوا طاقات المجلس وصاحوا: «السلاح، السلاح» فثار إليهم الناس، واجتمعوا حول الدار، وأطلقوا النار في الأبواب. فأخرج إليهم من كان عنده من وجوه الناس، وأنكر أن يكون أراد بهم سوءًا فلم يقبلوا منه وتألبوا عليه. فوثب من داره إلى دار رجل من جيرانه فسقط فانكسر ساقه. فأخذوه وحبسوه. وكتبوا بذلك إلى المهدي. فعزله واغتفر فعلهم. وضبط المدينة خليل صاحب الخُمس.

ثم استعمل المهدي علي بن عمر البلوي. فوصل إلى المدينة لثلاث بقين من ذي الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين. فلم يرض أهل صقلية سيرته، وكان شيخًا هينًا لينًا رفيقًا بالرعية. فألّب عليه أحمد بن قرهب ودعا الناس إلى طاعة المقتدر بالله. فأجابه إلى ذلك جماعة وولوه على أنفسهم. ووردت عليه رسل المقتدر بالله العباسي في سنة ثلاثمائة بكتاب بالولاية والخلع والبنود وطوق ذهب وسوار. ثم عصى عليه أهل صقلية وكاتبوا المهدي. واجتمعوا إلى أبي الغفار فزحف بهم إلى ابن قرهب، وقالوا له: «اخرج عنا واذهب حيث شئت» فأبى ذلك وقاتلهم ثم تحصن منهم ثم قُتل بعد ذلك في آخر سنة ثلاثمائة. فكانت ولايته أحد عشر شهرًا.

ذكر ولاية أبي سعيد موسى بن أحمد

قال: ولما قُتل ابن قرهب، أرسل المهدي موسى بن أحمد واليًا. وأرسل معه جماعة ليساعدوه على أهل صقلية إن أرادوا به سوءًا. فلما قدم، ورد عليه رؤساء جرجنت، فأكرمهم وكساهم. ثم أخذ بعد ذلك أبا الغفار فقيده وحبسه. فهرب أخوه أحمد إلى جرجنت، فألب على موسى بن أحمد. فوافقه الناس عليه. وكانت بينه وبينهم حرب شديدة. ثم طلبوا الأمان فأمنهم. وكتب بذلك إلى المهدي، فولّى مكانه سالم بن أبي راشد الكناني في سنة خمس وثلاثمائة.

ذكر ما فتح من بلاد قلورية

قال المؤرخ: وفي سنة ست عشرة وثلاثمائة وصل صابر الصقلبي من إفريقية في ثلاثين حربيًا. فخرج معه سالم إلى أرض قلَّورية ففتحا مدينة طارنت[١] عنوة. ووصلا إلى مدينة أذرنت[٢]، وحاصراها وخربا منازلها. وأصاب الناس وخم فرجعوا إلى المدينة. ثم عاودوا الغزو إلى أن أذعن أهل قلورية لإعطاء الجزية وأدوها مدة بقاء المهدي.

وفي سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، أخرج القائم بن المهدي يعقوب بن إسحاق في أسطول إلى ناحية إفرنجة[٣]، ففتح مدينة جنوة ومروا بسردانية[٤] فأوقعوا بأهلها وأحرقوا مراكب كثيرة.

وفي هذه السنة، كان الطوفان بصقلية فهدم الدور.

وفي سنة خمس وعشرين وثلاثمائة، خالف أهل جرجنت على سالم. وأخرجوا عامله ابن أبي حُمران فأخرج إليهم سالم عسكرًا فهزموه. ورجعوا إلى سالم فقاتلهم سالم وهزمهم. ثم خرج على سالم أهل المدينة وحاربوه مع إسحاق البستاني ومحمد بن حمُّو وكانت بينهم حرب. فهزمهم وحصرهم بالمدينة.

واتصل الخبر بالقائم، فأنفذ خليل بن إسحاق في عسكر وجماعة من القواد لقتال أهل صقلية. فورد كتاب أهل البلد على القائم بطاعتهم وأنهم كرهوا أفعال سالم. فاستعمل عليهم خليل بن إسحاق. فوصل إلى المدينة في آخر سنة خمس وعشرين وثلاثمائة. فأطاعه أهل صقلية فأكرمهم. وعزل عنهم عمال سالم. فأقام خليل بها أربع سنين ثم رجع إلى إفريقية.

فوليها محمد بن الأشعث وعطّاف في سنة ثلاثين وثلاثمائة. فمات محمد بن الأشعث في سنة أربع وثلاثين.

واستقل عطّاف بالأمر إلى سنة ست وثلاثين. فكتب إلى المنصور يخبره بتحامل أهل البلد وأن أمرهم يؤول إلى فساد.

---

(١) طارنت: مدنية بصقلية. (٢) أذرنت: مدينة بصقلية.

(٣) إفرنجة: وإفرنجة: أمة عظيمة لها بلاد واسعة وممالك كثيرة وهم نصارى، ينسبون إلى جد لهم واسمه افرنجش... (هذا ما ذكره ياقوت).

(٤) سردانية: جزيرة في بحر المغرب كبيرة ليس هناك بعد الأندلس وصقلية وإقريطش أكبر منها... (معجم البلدان).

فاستعمل المنصور بن القائم بن المهدي على صقلية الحسن بن علي بن أبي الحسين الكلبي، وكان مكينًا عند المنصور لمحبته ونصحه وتقدم خدمة سلفه لآبائه. فوصل إلى صقلية وأقام بها سنتين وأشهرًا. ورجع إلى إفريقية في ولاية المعز لدين الله بن المنصور. فسأله تشريف ولده أبي الحسين بالولاية، فولاه في سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة.

ذكر فتح قلعة طبرمين

قال المؤرخ: وفي أيام أبي الحسين فتح المسلمون طَبَرْمِين[١]، وكانت يومئذ أشد قلاع الروم شوكة. وكان فتحها لخمس بقين من ذي القعدة سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة، بعد أن حوصرت سبعة أشهر ونصفًا، ونزلوا على حكم الملك دون القتل. فأمر المعز بتسميتها المُعِزِّية. ووجه الأمير أحمد إلى المعز بسبْيها وهو ألف وخمسمائة وسبعون رأسًا.

ذكر فتح رمطة وما كان بسبب ذلك من حروب

قال: لما فتح المسلمون طبرمين، وسكنوها وعمرت بهم وتحصنت، خرج أهل رَمْطَة[٢] عن الطاعة، واستنصروا بالدُّمُسْتق ملك القسطنطينية. فورد كتاب المعز إلى أحمد يأمره بإخراج الحسن بن عمار إلى حصار رمطة وقتال من بها وإزالتهم منها. فنزل ابن عمار عليها في يوم الخميس آخر شهر رجب سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة، ونصب عليها المَجانيق والعَرادات[٣]. ودام القتال في كل يوم. وبنى له قصرًا وسكنه. وأخذ الناس في بنيان البيوت.

فلما بلغ ذلك الدمستق، أمر بالحشود، وجهز العساكر صحبة منويل، وأمرهم بالتعدية إلى صقلية. فابتدؤوا بالتعدية يوم الأربعاء لثلاث خلون من شوال سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة. وأقاموا يعدون تسعة أيام في عدد عظيم. وحفروا خندقًا حول

---

(١) طبرمين: بفتح أوله وثانيه، وسكون الراء، وكسر الميم، ثم ياء مثناة من تحت، ونون: قلعة بصقلية حصينة. . . (معجم البلدان).

(٢) رمطة: بفتح أوله، وسكون ثانيه، وطاء مهملة: اسم أعجمي لقلعة حصينة بجزيرة صقلية بينهما ثمانية أيام، هي بعيدة من البحر فوق جبل، وفيها آثار الماء. . . (معجم البلدان).

(٣) العرادة: آلة من آلات الحرب القديمة، وهي منجنيق صغير.

مدينة مَسِّينِي[١] وشيّدوا أسوارها. وكاتب الحسن بن عمار بذلك، فخرج الأمير أحمد بالجيوش. ورحل الكفرة من مسيني قاصدين الحسن بن عمار بقلعة رمْطة.

ذكر وقعة الحفرة على رمطة

قال: وفي النصف من شوال سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة، زحف منويل بجميع عسكره من المجوس والأرمن والروس، في جمع لم يدخل الجزيرة مثله قط. فلما علم الحسن بن عمار بتقدمهم استعد للقاء، وجعل عسكرًا في مضيق ميقش وعسكرًا في مضيق دمنّش[٢]. فبلغ ذلك منويل فوجه عسكرين بإزائهما، ووجه عسكرًا ثالثًا إلى طريق المدينة يمنع من يصل إليهم بنجدة. ورتب الحسن المقاتلة على القلعة وبرز بالعساكر للقاء الكفرة. وقد عزموا على الموت.

وزحف الكفرة في ستة مواكب. وأحاطوا بالمسلمين من كل ناحية. ونزل أهل رمطة إلى من يليهم. والتقوا وقاتلت كل طائفة من يليها. فقاتلوا حتى دخل المسلمون خيام أنفسهم وأيقن العدو بالظفر. فاختار المسلمون الموت، ورأوا أنه أسلم لهم وأوفر لحظوظهم، فحميت الحرب. ونادى الحسن بن عمار بأعلى صوته: «اللهم، إن بني آدم أسْلَمْوني فلا تُسْلِمْني». وحمل بمن معه حملة رجل واحد. فصاح منويل بالكفرة يقول: «أين افتخاركم بين يدي الملك؟ أين ما ضمنتم له في هذه الشرذمة القليلة؟». فحمي الوطيس عند ذلك. وحمل منويل وقتل رجلًا من المسلمين. فطُعن عدة طعنات فلم تعمل فيه شيئًا لحصانة ما عليه من اللباس. فحمل عليه رجل من المسلمين فطعن فرسه فعَقَره، وقُتل. وجاءت سحابة ذات برق ورعد وظلمة، وأيد الله المسلمين بنصره. فانهزم الكفرة وركبهم المسلمون بالقتل. فمالوا إلى موضع ظنوه سهلًا، فوقعوا في الوعر، وأفضى بهم إلى حرف خندق عظيم كالحفرة من بُعد قَعْره. فسقطوا فيها وقتل بعضهم فيها بعضًا. وامتلأت الحفرة منهم على طولها وعرضها وعمقها حتى مرت الخيل عليهم مسرعة. وحصل من بقي منهم في مواضع وعرة وخنادق هائلة. وكانت الحرب من أول النهار إلى بعد صلاة الظهر، وتمادت هزيمة من بقي إلى الليل. وبات المسلمون يقتلونهم في كل ناحية وأُسر جماعة من أكابرهم، وغنم المسلمون من الأموال والخيل والسلاح ما لا يُحَد. وبلغ القتلى فوق العشرة

---

(١) مسيني: بالفتح ثم السين المشددة مكسورة، وياء تحتها نقطتان، ونون مكسورة، وياء ساكنة: بليدة على ساحل جزيرة صقلية مما يلي الروم مقابل ريو... (معجم ياقوت).

(٢) دمنش: بتشديد النون: من مدن صقلية على البحر. هذا ما ذكره ياقوت.

آلاف.. وكان فيما غنموه سيف فيه منقوش: «هذا سيف هندي وزنه مائة وسبعون مثقالاً، طالما ضُرب به بين يدي رسول الله ﷺ». فبعث به الحسن إلى المعز لدين الله، مع مائتي عِلْج من وجوههم، ودروع وجواشن[١] وسلاح كثير. ونجا من الكفرة نفر يسير فركبوا المراكب. وجاء الخبر إلى الأمير أحمد بالهزيمة قبل وصوله إلى ابن عمار.

وفي أثر هذه الوقعة توفي الحسن بن علي بن أبي الحسين والد الأمير أحمد.

قال: وبلغ الدمستق خبر هذه الوقعة وكسرة أصحابه، وهو بالمصيصة وقد ضيَّق على أهلها، فرجع مسرعًا إلى القسطنطينية. ودام الحصار على رمطة أشهرًا. فنزل منها ألف نفس من شدة ما نالهم من الجوع. فوجه بهم الحسن بن عمار إلى المدينة وبقيت المقاتلة ثم فُتحت رمطة.

وكان بين المسلمين بعد ذلك وبين الكفار وقائع كثيرة، منها وقعة الأسطول بالمجاز، قُتل فيها من الكفار في الماء حتى احمرّ المجاز.

ثم وقع الصلح بعد ذلك بين المعز والدمستق في سنة ست وخمسين وثلاثمائة وأتته هداياه. ووصل كتاب المعز إلى الأمير أحمد يعرفه بالصلح، ويأمره ببناءِ أسوار المدينة وتحصينها ويُعْلمه أن البناء اليوم خير من غد، وأن يبني في كل إقليم من أقاليم الجزيرة مدينة حصينة وجامعًا ومنبرًا، وأن يأخذ أهل كل إقليم بسكنى مدينتهم ولا يُتركوا متفرقين في القرى. فسارع الأمير أحمد إلى ذلك، وشرع في بناء سور المدينة. وبعث إلى جميع الجزيرة مشايخ ليقفوا على العمارة.

ذكر إخلاء طبرمين ورمطة

وفي سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، وصلت هدية ملك القسطنطينية فأمر المعز لدين الله بإخلاء طبرمين ورمطة، فاغتمّ المسلمون لذلك. فأمر الأمير أحمد أخاه أبا القاسم وعمه جعفرًا، فنزلا بينهما وهُدِمتا وأُحرقتا بالنار.

وفيها أمر المعز لدين الله الأمير أحمد بمفارقة صقلية والقدوم إلى إفريقية. ففارقها بجميع أهله وماله وأولاده وإخوته. فركبوا في ثلاثين مركبًا. ولم يبق منهم بصقلية أحد. فكانت ولايته خاصة ست عشرة سنة. واستخلف على صقلية يعيش مولى أبيه.

---

(١) الجوشن: الدرع.

ذكر ولاية أبي القاسم نيابة عن أخيه أحمد واستقلاله

قال: وفي نصف شعبان سنة تسع وخمسين وثلاثمائة، وصل الأمير أبو القاسم إلى صقلية نيابة عن أخيه الأمير أحمد. ثم توفي الأمير أحمد في بقية السنة، فوصل سجل المعز إلى أبي القاسم بالاستقلال. وكانت له غزوات كثيرة مع العدو. فالأولى في سنة خمس وستين وثلاثمائة. وفيها أمر بعمارة قلعة رمطة، فعمرت وولّى بعض عبيده عليها. وداوم الغزو إلى أن استشهد في غزاته الخامسة، في المحرم سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة.

وولّي بعده الأمير جابر بن أبي القاسم. وأتاه سجل العزيز بالله بن المعز لدين الله من مصر. فولّي سنة.

ثم عزله العزيز واستعمل جعفر بن محمد بن الحسين فوصل إلى صقلية في سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة. فبقي بها إلى أن توفي في سنة خمس وسبعين.

وولّي بعده أخوه عبد الله بن محمد إلى أن توفي في شهر رمضان سنة تسع وسبعين وثلاثمائة.

وولّي بعده ابنه يوسف.

ذكر ولاية أبي الفتح يوسف الملقب بثقة الدولة

كانت ولايته عند وفاة والده بعهدٍ منه، ثم أتاه سجل العزيز بالله من مصر بالولاية فضبط الجزيرة وأحسن إلى الرعايا. واستمر إلى أن أصابه الفالج، في سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة، فبطل شقه الأيسر وضعف الأيمن.

فاستناب ولده جعفر، وكان بيده سجل من الحاكم بولايته بعد أبيه. ثم بعث إليه الحاكم بعد ذلك تشريفًا، وعقد له لواء، ولقبه بتاج الدولة سيف الملة. فضبط الأحوال إلى سلخ شهر رجب سنة خمس وأربعمائة. فأظهر عليه أخوه الأمير علي بن أبي الفتح الخلاف، وخرج إلى موضع بقرب المدينة. فاجتمع إليه البربر والعبيد الذين عاقدهم على القيام معه. فأخرج إليه جعفر عسكرًا فالتقوا يوم الأربعاء لسبع خلون من شعبان. فجرى بينهم قتال شديد قُتل فيه كثير من البربر والعبيد الذين مع علي. وهرب من بقي منهم. وأُسر علي وجِيء به إلى أخيه الأمير جعفر فقتله. فكان بين خروجه وقتله ثمانية أيام. فعزّ ذلك على أبيه. ثم أمر جعفر بنفي من بالجزيرة من

البربر بعيالاتهم، فنُفوا حتى لم يبق منهم أحد. وأمر بقتل العبيد فقُتلوا عن آخرهم. وجعل جميع جنده من أهل صقلية. فقَلّ العسكر عنده. وأدى ذلك إلى وثوب أهل صقلية به وإخراجه.

ذكر وثوب أهل صقلية بالأمير جعفر وإخراجه

قال المؤرخ: كان سبب ذلك أنه ولّى عليهم كاتبه حسن بن محمد الباغاني[1]، فصادَر الناس وعاملهم بسوء. وأشار على جعفر أن يأخذ من صقلية الأعشار في طعامهم وثمارهم على عادة البلاد. ولم يجرِ لهم بذلك عادة وإنما كانت العادة أن يؤخذ على الزوج البقر شيء معلوم ولو أصاب ما أصاب. ثم أظهر جعفر الاستخفاف بأهل صقلية، وشيوخ بلادها، واستطال عليهم.

فزحف إليه أهل البلد صغيرهم وكبيرهم. فحاصروه في قصره وهدموا بعض أرباضه. وباتوا ليلة الاثنين لست خلون من المحرم سنة عشر وأربعمائة، وقد أشرفوا على أخذه. فخرج إليهم أبوه يوسف في محفة، وكانوا له مكرمين. فلطف بالناس ووعدهم أنه لا يخرج عن رأيهم. فذكروا له ما أحدث ولده. فقال: «أنا أكفيكم أمره، وأعتقله وأولي عليكم من ترضونه» فوقع اختيارهم على ولده أحمد الأكحل.

ذكر ولاية الأمير تأييد الدولة أحمد الأكحل

كانت ولايته في يوم الاثنين السادس من المحرم سنة عشر وأربعمائة. وتسلم أهل صقلية حسن الباغائي الكاتب، فقتلوه، وطافوا برأسه، وأحرقوه بالنار. وخاف يوسف على ابنه جعفر، فحمله في مركب حربي إلى مصر، وسار يوسف أيضًا، ومعهما من الأموال ستمائة ألف وسبعون ألف دينار. وكان ليوسف ثلاثة عشر ألف حجْر[2] سوى البغال وغيرها، فمات بمصر وليس له إلا دابة واحدة.

قال: ولما ولّي الأكحل أخذ أمره بالحزم والاجتهاد. فسكن الناس وصلحت أحوالهم.

ثم وصل كتاب الحاكم ولقب الأكحل تأييد الدولة.

---

(١) نسبة إلى باغاية، وهي مدينة كبيرة في أقصى إفريقية بين مجانة وقسطينية الهواء.

(٢) الحجر: الفرس الأنثى.

وجمع الأكحل المقاتلة، وبثّ سراياه في بلاد الكفرة، وكانوا يحرقون ويغنمون ويخربون البلاد. فأطاعه جميع القلاع.

وكان للأكحل ابن اسمه جعفر، كان يستخلفه إذا سافر للغزاة فخالف سيرة أبيه في العدل الإحسان. ثم جمع أهل صقلية وقال: «إني أحب إخراج أهل إفريقية عنكم، فإنهم قد شاركوكم في بلادكم وأموالكم» فقالوا: «كيف يكون ذلك، وقد صاهرناهم واختلطنا بهم وصرنا شيئًا واحدًا؟» فصرفهم. ثم أرسل إلى الإفريقيين وقال لهم مثل ذلك في حق أهل صقلية، فأجابوه إلى ما أراد. فجمعهم حوله فكان يحمي أملاكهم، ويأْخذ الخراج من أملاك أهل صقلية.

فسار جماعة من أهل صقلية إلى المعز بن باديس، وأعلموه بما حلّ بهم. وقالوا: «نحب أن نكون في طاعتك وإلا سلمنا الجزيرة إلى الروم» وذلك في سنة سبع وعشرين وأربعمائة. فوجه المعز ولده عبد الله إلى صقلية بعسكر عدته ثلاثة آلاف فارس ومثلهم رَجالة. فسار إلى الجزيرة ووقعت بينه وبين الأكحل حروب، وحصَره في قصره بالخالصة. ثم اختلف أهل صقلية وأراد بعضهم نصرة الأكحل. فقتله الذين أحضروا عبد الله بن المعز غدرًا، وأتوا برأسه إلى عبد الله.

ثم رجع بعض الصقليين عن بعض، وندموا على إدخال عبد الله إلى الجزيرة، واجتمعوا على حربه، وقاتلوه فانهزم عسكر عبد الله وقُتل منهم نحو ثلاثمائة رجل. ورجعوا في المراكب إلى إفريقية.

وولّى أهل صقلية على أنفسهم الصمصام أخا الأكحل. واضطربت أحوال أهل الجزيرة، وانفردت كل طائفة بجهتها. فرجع أمر أهل المدينة إلى المشايخ الذين بها، وأخرجوا الصمصام. وانفرد القائد عبد الله بن منكوت بمازَر[١] وطرابنش[٢] والشاقة[٣] ومرسى[٤] علي وما حولها من البوادي. وانفرد القائد علي بن نعمة المعروف بابن الجواش بقلعة قصريانة ومدينة جرجنْت وقصر نوبو وما يلي ذلك. واختبطت الجزيرة. ثم ثار رجل يعرف بابن الثُّمنَة فاستولى على

(١) مازر: بفتح الزاي، وآخره راء: مدينة بصقلية نسب بعض شراح الصحيح إليها.

(٢) طرانبش: اسم مدينة بجزيرة صقلية؛ ينسب إليها قوم، منهم: سليمان بن محمد الطرابنشي الشاعر. . . (معجم البلدان).

(٣) شاقة: من مدن صقلية، ينسب إليها أبو عمر عثمان بن حجاج الشافي الصقلي من سكان الإسكندرية.

(٤) مرسى علي: مدينة على سواحل جزيرة صقلية.

مدينة سرقوسة وما يليها. وخرج منها بعسكر إلى مدينة قَطانيَة فدخلها، وقتل ابن المكلاتي وملكها.

وكان ابن المكلاتي مصاهرًا للقائد علي بن نعمة المعروف بابن الجواش بأخته ميمونة. فلما انقضت عِدَّتها، خطبها ابن الثمنة لأخيها، فزوجه بها، وكانت امرأة عاقلة. فجرى بينها وبينه في بعض الأيام خصام أدى إلى أن أغلظ لها في القول، فأجابته بمثله. وكان سكران، فغضب وأمر بفَصدها في عضديها وتركها لتموت. فسمع ولده إبراهيم فحضر وأحضر الأطباء، وعالجها إلى أن عادت قوتها. ولما أصبح أبوه ندم واعتذر إليها بالسكر، فأظهرت قبول عذره. ثم طلبت منه بعد مدة أن تزور أخاها، فأذن لها وسيّر معها التحف والهدايا. فلما وصلت إليه ذكرت له ما فعل بها، فحلف أنه لا يُعيدها إليه. فأرسل ابن الثمنة يطلبها فلم يردها إليه، فجمع عساكره، وكان قد استولى على أكثر الجزيرة وخُطب له بالمدينة وسار لحرب ابن الجواش بقصريانة. فخرج إليه وقاتله. فانهزم ابن الثمنة، وتَبعه وقتل من أصحابه فأكثر. فلما رأى ابن الثمنة أن عساكره قد تمزقت أراد الانتصار بالكفار.

ذكر استيلاء الفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ على جزيرة صقلية

كان سبب ذلك أنه لما وقعت الحرب بين ابن الثمنة وابن الجواش وانهزم ابن الثمنة، سار إلى مدينة ملطية، وكانت بيد الفرنج ملكوها في سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة. وكان ملكها حينئذ رُجار الفرنجي. فوصل إليه وقال: «أنا أملِّكك الجزيرة» فسار معه في شهر رجب سنة أربع وأربعين وأربعمائة. فلم يلقوا من يدافعهم، واستولوا على ما مروا عليه في طريقهم. وقصد بهم قصريانة فقاتلهم ابن الجواش. فهزمه الفرنج فرجع إلى الحصن. فرحلوا عنه واستولوا على مواضع كثيرة. ففارق الجزيرة كثير من العلماء والصالحين.

وسار جماعة من أهل صقلية إلى المعز بن باديس، وذكروا له ما الناس فيه بالجزيرة من الخلف وغلبة الفرنج على كثير منها. فعمر أسطولاً كبيرًا وشحنه بالرجال والعُدد. وكان الزمان شتاء، فساروا إلى قوصرة. فهاج عليهم البحر، فغرق أكثرهم ولم ينج إلا القليل. وكان ذهاب هذا الأسطول مما أضعف المعز بن باديس وقوى العرب عليه حتى أخذوا البلاد منه. فملك حينئذ الفرنج أكثر البلاد على مهل وتؤدة لا يمنعهم أحد. واشتغل المعز بما دهمه من العرب.

ثم مات في سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة وولّي ابنه تميم. فبعث أسطولاً وعسكرًا إلى الجزيرة، وقدّم عليه ولديه أيوب وعليًا، فوصلوا إلى صقلية. فنزل أيوب والعسكر المدينة، ونزل علي جرجنت. ثم انتقل أيوب إلى جرجنت فأحبه أهلها. فحسده ابن الجواش فكتب إلى أهلها ليخرجوه، فلم يفعلوا. فسار إليه في عسكره وقاتله. فقُتل ابن الجواش بسهم غَرب[1] أصابه. وملك أيوب بن تميم. ثم وقع بعد ذلك بين أهل المدينة وبين عسكر أيوب فتنة، أدّت إلى القتال. ثم دار الشر بينهم وتراقَى، فرجع أيوب وأخوه في الأسطول إلى إفريقية، وذلك في سنة إحدى وستين وأربعمائة. وصحبهم جماعة من أعيان صقلية.

فلم يبق للفرنج مانع ولا ممانع، فاستولوا على الجزيرة. ولم يثبت بين أيديهم غير قصريانة وجرجنت. فحصرهما الفرنج وضيّقوا على المسلمين حتى أكلوا الميتة وعدموا ما يأكلونه. فأما أهل جرجنت فسلموها إلى الفرنج في سنة إحدى وثمانين وأربعمائة. وبقيت قصريانة بعد ذلك ثلاث سنين. فلما اشتد الأمر عليهم أذعنوا إلى التسليم. فتسلمها الفرنج خذلهم الله تعالى في سنة أربع وثمانين وأربعمائة. وملك رجار جميع الجزيرة، وأسكنها الروم والفرنج مع المسلمين. ولم يترك لأحد من أهلها حمامًا ولا دكانًا ولا طاحونًا ولا فرنًا.

ومات رُجار بعد ذلك قبل التسعين وأربعمائة، وملك بعده ولده روجار. فسلك طريق ملوك المسلمين من الجنائب والسلاحية والجاندارية وغير ذلك. وخالف عادة الفرنج. وجعل له ديوانًا للمظالم يُرفَع إليه شكوى المظلومين، فينصفهم ولو من ولده، وأكرم المسلمين، ومنع عنهم الفرنج فأحبوه. وعمر أسطولاً كبيرًا وملك الجزائر التي بين المهدية وصقلية مثل مالطة وقوصرة وغيرهما. وتطاولوا بعد ذلك إلى سواحل إفريقية وملكوا المهدية وغيرها. ثم استُرجِعت منهم على ما ذكرناه في أخبار عبد المؤمن بن علي.

ذكر أخبار جزيرة أقريطش

هذه الجزيرة دون جزيرة صقلية، وهي كثيرة الخصب مستطيلة الشكل.

وأول من غزاها في الإسلام ابن أبي أمية الأزدي[2]، في أيام معاوية بن أبي سفيان.

---

(١) السهم الغرب: الذي لا يدرى راميه.

(٢) نسبة إلى بني أزد، وهم حي من همدان، من كهلان، من القحطانية.

فلما كان في أيام الوليد فتح بعضها.

ثم غزاها حميد بن معيون الهَمداني في أيام الرشيد ففتح بعضها.

ثم غزاها أبو حفص عمر بن شعيب الأندلسي المعروف بالأقريطشي في أيام المأمون. ففتح منها حصنًا واحدًا. ولم يزل يفتح شيئًا بعد شيء حتى لم يبق بها من الروم أحد، وأخرب حصونهم وتداولها بنوه بعده.

ولما جرى لأهل قرطبة مع الحكم بن هشام الأموي وقعة الربض التي ذكرناها في سنة ثمان وسبعين ومائة، أخرج جماعة منهم. فوصلوا إلى الإسكندرية وأقاموا بها، فعمرت بهم وصار فيها منهم خلق كثير. فغلبوا على الإسكندرية وملكوها إلى أن جاء عبد الله بن طاهر إلى الإسكندرية وأخرجهم منها كما ذكرنا ذلك في أخبار الدولة العباسية في أيام المأمون بن الرشيد. فصالحهم على مال ونقلهم إلى جزيرة أقريطش. فعمروها وملكوا عليهم رجلًا منهم. وعمروا فيها أربعين قطعة. وغزوا جميع ما حولها من جزائر القسطنطينية ففتحوا أكثر الجزائر وغنموا وسبوا.

ولم يكن لملك القسطنطينية بهم قِبَل، فأفكر فيما يفعله معهم من المكر والخديعة. فأقبل الملك أرمانوس إلى عبد العزيز بن شعيب بن عمر صاحب جزيرة أقريطش. وتقرب إليه بالهدايا والتحف، وأظهر له المودة والمحبة. فلما استحكمت الوُصلة بينهم وتأكدت، أنفذ أرمانوس رجلًا من المسلمين ومعه هدية جليلة. فلما حضر بين صاحب أقريطش وقدّم الهدية، قال له: «الملك يسلم عليك ويقول لك: نحن جيران وأصدقاء، وهؤلاء المساكين سكان الجزائر قوم ضعفاء فقراء، وقد خلا أكثرهم من خوفك، وقلوبهم تحنّ إلى أوطانهم. ولي ولك بهم راحة وفائدة. فإن خَفّ عليك أن تحسب ما يحصل لك من غزهم في كل عام وأنا أضاعفه لك أضعافًا، وتؤمِّنهم وترفع عنهم الغزو وتفسح لهم في السفر إلى جزيرتك، ويتوجه التجار إليك، ويحصل لك من الحقوق أضعاف ما يحصل لك من الغزو» فأجابه إلى سؤاله. وتحالفا وتصالحا واتفقا على مال يؤدَّى في كل عام. فوفي له أرمانوس بجميع ذلك. وألزم التجار بالسفر إلى اقريطش والقسطنطينية وجميع الجزائر. فكثرت أموال صاحبها وأخذ في جمع الأموال واختصر العطاء للجند.

ثم وقع بالقسطنطينية قحط وغلاء. فأنفذ الملك إلى صاحب اقريطش رسولاً يقول: «قد وقع بالبلاد ما اتصل بك من الجدب. ولنا خيل عِراب[1] برسم النتاج تعزّ

(١) العراب: العتيقة السليمة من الهجنة.

علينا، فإن رأيت أن أنفذها إلى الجزيرة، وما نتجت من الذكور تكون للملك، وما نتجت من الإناث فهو لك» فأجابه إلى ذلك. فأرسل إلى الجزيرة خمسمائة فرس في المراكب ومعها رُعاتها.

فلما استقرت الخيل بالجزيرة، عبأ العساكر على تلطف واستخفاء، وقدم عليها نخفور الدمستق وأنجاد رجاله، وذلك في غرة المحرم سنة خمس وثلاثمائة. فدخل الأسطول إلى الجهة التي فيها الأفراس. ونزل كل فارس بسرجه ولجامه وشدوا له على فرس وفاجؤوا أهل الجزيرة على غرة وغفلة. فملكوها وقتلوا صاحبها ومن معه من الجند، وعفَوا عن قتل الرعية. ووجدوا الأموال التي كانوا بذلوها مضاعفة فأخذوها. وسبَوا نساء الأجناد وذراريهم. وشحنوها بالعُدد والأجناد.

ذكر تنصر أهل أقريطش

قال المؤرخ: ولما قرب عيد الميلاد، أمروا أكابر الجزيرة بالمسير إلى الملك للهناء بالعيد. فتوقف الأمائل ونفّذوا مائة رجل من أوساط القوم. فلما وصلوا إلى الملك وسلموا عليه، أمر بإكرامهم، وخلع عليهم، وأمر لكل رجل منهم بعشر أوان من الذهب. فرجعوا فرحين، وندم من تأخر عن المسير.

فلما أقبل عيد الفصح، تهيأ أكابر أهل الجزيرة للمسير، واجتمع منهم جماعة كبيرة. فلما وصلوا إلى القسطنطينية، أمر الملك أن يُجعَلوا في موضع، وجعل عليهم حرسًا. ومُنعوا من الطعام والشراب إلى أن أيقنوا بالهلاك. فشكوا ذلك إلى الموكلين بهم وقالوا: «القتل خير لنا من هذا. وما الذي يريده الملك منا؟» قالوا: «إنه يريد دخولكم في دين النصرانية، فإن لم تجيبوا متم على هذه الحالة وسُبيت ذراريكم». فلما اشتد عليهم البلاء تنصروا فخلع عليهم، وتوجهوا إلى أهاليهم.

فلما وصلوا الجزيرة مُنعوا الدخول إلى بيوتهم. وقيل لهم: «أنتم نصارى وهؤلاء مسلمون. فإن دخلوا في دين الملك اجتمعتم، وإن أبوا ملكناهم» فتنصر الباقون في يوم واحد. ثم مات الآباء وبقي الأولاد على أشد ما يكون في دين النصرانية والبغض في المسلمين. نسأل الله تعالى أن لا يُمكَر بنا ولا بأهالينا ولا بذرارينا ولا بعقبنا، ولا يمتحننا في ديننا، وأن يجعل عواقب أمورنا خيرًا من مبادئها، بمَنِّه وكرمه.

ولنصل هذا الفصل بذكر ما استولى عليه الفرنج من جزيرة الأندلس.

ذكر ما استولى عليه الفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ من البلاد الإسلامية بجزيرة الأندلس بعد أخذ طليطلة

هذه المدن التي نذكرها مما استولى الفرنج، خذلهم الله تعالى، عليه من أعمال جزيرة الأندلس. كان الاستيلاء عليها في التواريخ التي نذكرها، وهي في المدة التي انقطعت فيها الأخبار وتعطلت التواريخ. فلم تصل إلينا مفصلة، ولا علمنا كيف أُخذت ولا ممن انتُزعت من ملوك المسلمين، فنذكر ذلك على وجهه. وإنما اطلعنا من حالها على تواريخ الاستيلاء عليها خاصة. فرأينا ذكر ذلك أولى من إهماله.

والمدن التي أُخذت هي مدينة قرطبة اسْتولى الفرنج عليها في يوم السبت الثالث والعشرين من شوال سنة ثلاث وثلاثين وستمائة.

ومدين بَلنسية، نازلها الروم وملكوها صلحًا في يوم الثلاثاء السابع عشر من صفر سنة ست وثلاثين وستمائة.

وجَيَّان: استولوا عليها في سنة ثلاث وأربعين وستمائة.

وطرطوشة: أُخذت في سنة ثلاث وأربعين وستمائة.

ولاردة[1]: أُخذت في سنة خمس وأربعين وستمائة.

ومدينة إشبيلية: أُخذت في مستهل شهر رمضان سنة ست وأربعين وستمائة.

ولم يتأخر للمسلمين بجزيرة الأندلس إلى وقتنا هذا غير الجزيرة الخضراء وما يليها. وهي جزء يسير جدًا بالنسبة إلى ما أُخذ. أعاد الله ما أُخذ، وحمى ما بقي. وقد بلغنا أن الجزيرة الخضراء حاصرها الفرنج، خذلهم الله تعالى، في سنة خمس عشرة وسبعمائة ونحوها. ولم يصل إلينا ما تجدد من ذلك. فإن وصل إلينا من خبرها شيء أوردناه في حوادث السنين في أخبار ملوك الديار المصرية، إن شاء الله تعالى.

فهذا ما أمكن إيراده من أخبار بلاد المغرب. فلنذكر خلاف ذلك.

---

(١) لاردة: مدينة مشهورة بالأندلس شرقي قرطبة تتصل أعمالها بأعمال طركونة منحرفة عن قرطبة إلى ناحية الجوف. . . (معجم البلدان).

الباب السابع

من القسم الخامس من الفن الخامس

في أخبار من نهض في طلب الخلافة من الطالبيين في الدولة الأموية والدولة العباسية فقتل دونها

وذلك بعد مقتل الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

كان أول من رام ذلك منهم في الدولة الأموية:

زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

وكان ظهوره في سنة إحدى وعشرين ومائة، وقُتل في سنة اثنتين وعشرين في أيام هشام بن عبد الملك بن مروان. وقد اختلف في سبب قيامه وطلبه الخلافة ما هو. فقيل: إن زيدًا هذا وداود بن علي بن عبد الله بن عباس ومحمد بن عمر بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم قدموا على خالد بن عبد الله القَسري، وهو أمير العراق. فأجازهم وأكرمهم ورجعوا إلى المدينة. فلما ولي يوسف بن عمر الثَّقَفي الراق كتب إلى هشام بذلك. وذكر له أن خالدًا ابتاع من زيد أرضًا بالمدينة بعشرة آلاف دينار ثم ردّ الأرض عليه. فكتب هشام إلى عامل المدينة أن يسيِّرهم إليه ففعل. فسألهم هشام عن ذلك، فأقروا بالجائزة، وأنكروا ما سوى ذلك، وحلفوا فصدقهم. وأمرهم بالمسير إلى العراق، ليقابلوا خالد بن عبد الله. فساروا على كره وقابلوا خالدًا فصدقهم فعادوا نحو المدينة. فلما نزلوا القادسية راسل أهل الكوفة زيدًا فعاد إليهم.

وقيل: بل ادعى خالد القسري أنه أودع زيدًا وداود بن علي ونفرًا من قريش مالاً. فكتب يوسف الثقفي بذلك إلى هشام، فأحضرهم هشام من المدينة، وسيّرهم إلى يوسف ليجمع بينهم وبين خالد. فقدموا عليه، فقال يوسف لزيد: «إن خالدًا زعم أنه أودعك مالاً» قال: «كيف يودعني وهو يشتم آبائي على منبره؟» فأرسل إلى خالد فأحضره في عباءة. فقال: «هذا زيد قَدْ أنكر أنك قد أودعته شيئًا». فنظر خالد إليه وإلى داود، وقال ليوسف: «أتريد أن تجمع مع إثمك في إثمًا في هذا؟ كيف أودعه وأنا أشتمه وأشتم آباءه على المنبر؟» فقال لخالد: «ما دعاك إلى ما صنعت؟» فقال: «شدِّد على العذاب فادَّعيت ذلك، وأملت أن يأتي الله بفرج قبل قدومك». فرجعوا وأقام زيد وداود بالكوفة.

وقيل: إن يزيد بن خالد القسري هو الذي ادّعى المال وديعة عند زيد. فلما أمرهم هشام بالمسير إلى العراق إلى يوسف، استقالوه خوفًا من شر يوسف وظلمه. فقال: «أنا أكتب إليه بالكف عنكم» وألزمهم بذلك، فساروا على كره. فجمع يوسف بينهم وبين يزيد، فقال يزيد: «ليس لي عندهم قليل ولا كثير». قال يوسف: «أفبي تهزأ أم بأمير المؤمنين؟» فعذبه يومئذ عذابًا كاد يهلكه. ثم أمر بالقرشيين فضُربوا وترك زيدًا. ثم استحلفهم وأطلقهم فلحقوا بالمدينة. وأقام زيد بالكوفة، وكان زيد قد قال لهشام لما أمره بالمسير إلى يوسف: «والله، ما آمن إن بعثتَني إليه أن لا نجتمع أنا وأنت حيين أبدًا» قال: «لا بد من المسير إليه».

وقيل: كان السبب في ذلك أن زيدًا كان يخاصم ابن عمه جعفر بن الحسن بن الحسن بن علي في وقُوف[1] على ابن أبي طالب رضي الله عنه؛ زيد يخاصم عن بني حسين، وجعفر يخاصم عن بني حسن. فكانا يتبالغان كل غاية ويقومان فلا يُعيدان مما كان بينهما حرفًا. فلما مات جعفر نازعه عبد الله بن حسن بن الحسن. فتنازعا يومًا بين يدي خالد بن عبد الملك بن الحارث بالمدينة. فأغلظ عبد الله لزيد وقال: «يا بن السندية» فضحك زيد وقال: «قد كان إسماعيل لأمة، ومع ذلك فقد صبرت بعد وفاة سيدها إذ لم تصبر غيرها» يعني فاطمة ابنة الحسين أُم عبد الله فإنها تزوجت بعد أبيه الحسن. ثم ندم زيد واستحيى من فاطمة وهي عمته، فلم يدخل عليها زمانًا. فأرسلت إليه: «يا ابن أخي إني لأعلم أن أمك عندك كأم عبد الله عنده» وقالت لعبد الله: «بئس ما قلت لأم زيد، أَمَ والله لنِعمَ دخيلة القوم كانت».

قال: فذُكر أن خالدًا قال لهما: «اغدُوا علينا غدًا. فلستُ لعبد الملك إن لم أفصل بينكما». فباتت المدينة تغلي كالمراجل يقول قائل: قال زيد كذا، ويقول قائل: قال عبد الله كذا. فلما كان من الغد، جلس في المسجد واجتمع الناس، فمن بين شامت ومهموم. فدعا بهما خالد، وهو يحب أن يتشاتما. فذهب عبد الله يتكلم. فقال زيد: «لا تعجل يا أبا محمد، أعتَقَ زيد ما يملك إنْ خاصمك إلى خالد أبدًا» ثم أقبل على خالد فقال له: «أجمعتَ ذرية رسول الله ﷺ لأمر ما كان يجمعهم عليه أبو بكر أو عمر؟ فقال خالد: «أما لهذا السفيه أحد؟» فتكلم رجل من الأنصار من آل عمرو بن حَزْم فقال: «يا ابن أبي تراب، وابن حسين السفيه، أما ترى لوالٍ عليك حقًا ولا طاعة؟» فقال زيد «اسكت أيها القحطاني، فإنا لا نجيب مثلك» قال: «ولمَ ترغب عني؟ فواللّهِ إني لخير منك، وأبي خير من أبيك، وأمي خير من أمك». فتضاحك زيد وقال: «يا معشر قريش، هذا الدين قد ذهب، أفتذهب الأحساب؟ فوالله ليذهب

(١) وقوف عليّ: يراد بها: ولاية أوقاف عليّ.

دين القوم وما تذهب أحسابهم». فتكلم عبد الله بن واقد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب فقال: «كذبت والله أيها القحطاني، فوالله لهو خير منك نفسًا وأمًا وأبًا ومحتدًا». وتناوله بكلام كثير، وأخذ كفًا من حَصباء فضرب بها الأرض ثم قال: «إنه والله ما لنا على هذا من صبر» وقام.

وشخَص زيد إلى هشام بن عبد الملك فجعل هشام لا يأذن له فَيرفع إليه القصص[1]. فكلما رفع قصة يكتب هشام في أسفلها «ارجع إلى منزلك» فيقول زيد: «والله، لا أرجع إلى خالد أبدًا». ثم أذن له يومًا بعد طول حبس، ورقي عِلّية طويلة. وأمر خادمًا أن يتبعه بحيث لا يراه زيد ويسمع ما يقول. فصعد زيد، وكان بادنًا، فوقف في بعض الدرجة فسمعه يقول: «والله، لا يحب الدنيا أحد إلا ذلّ» ثم صعد إلى هشام فحلف له على شيء. فقال: «لا أصدقك» فقال: «يا أمير المؤمنين إن الله لم يرفع أحدًا عن أن يرضَى بالله، ولم يضَع أحدًا عن أن لا يُرضَى بذلك منه» فقال هشام: «لقد بلغني يا زيد أنك تذكر الخلافة وتتمناها، ولستَ هناك وأنت ابن أمَة». قال زيد: «إن لك جوابًا» قال: «فتكلم» قال: «إنه ليس أحد أولى بالله ولا أرفع درجة من نبي ابتعثه. وقد كان إسماعيل عليه السلام ابن أمة وأخوه من صَريحة. فاختاره الله عليه، وأخرج منه خير البشر. وما على أحد من ذلك إذا كان جده رسول الله ﷺ ما كانت أمه» قال له هشام: «اخرج» قال: «أخرج ثم لا أكون إلا بحيث تكره» فقال له سالم: «يا أبا الحسين، لا يظهرن هذا منك».

فخرج من عنده وسار إلى الكوفة. فقال له محمد بن عمر بن أبي طالب: «أُذكِّرك الله يا زيد، لَما لحقت بأهلك، ولا تأت أهل الكوفة فإنهم لا يَفُون لك». فلم يقبل وقال: «خُرِج بنا أسرى على غير ذنب من الحجاز إلى الشام ثم إلى الجزيرة ثم إلى العراق إلى تيس ثقيف يلعب بنا». وقال[2]: [من الكامل]

بَكَرَتْ تُخوِّفُني الحُتوفَ كأنني	أصبحتُ من غَرضِ الحتوف بمَعْزِل[3]
فأجبتها إن المنية منهل	لا بد أن أُسْقى بكأس المنهلِ
إن المنية لو تُمثَّل مُثِّلت	مِثْلي إذا نزلوا بضيق المنزلِ
فاقْنَي حياءك لا أبا لك واعلمي	أني امرؤ سأموت إن لم أُقتَل[4]

(١) المراد بالقصص، ما نسميه اليوم المذكرات التي تضم ما يؤيد قضيته.
(٢) الأبيات من قصيدة لعنترة بن شدّاد «راجع ديوانه ص١٢٠ ط دار الكتب العلميّة».
(٣) بكرت: أسرعت وعجّلت.
(٤) اقني: الزمي.

ثم قال زيد: «أستودعك الله، وإني أعطي الله عهدًا أن لا دخلت يدي في طاعة هؤلاء ما عشت».

وفارقه وأقبل إلى الكوفة. فأقام بها مستخفيًا يتنقل في المنازل. وأقبلت الشيعة تختلف إليه تبايعه. فبايعه جماعة منهم سَلَمة بن كُهَيل، ونصر بن خزيمة العبسي، ومعاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة الأنصاري، وناس من وجوه أهل الكوفة. وكانت بيعته: «إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ، وجهاد الظالمين، والدفع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، وقَسْم هذا الفَيء بين أهله بالسواء، ورد المظالم، وإقفال[١] المُجْمَر[٢] ونصرة أهل البيت. أتبايعون على ذلك؟» فإذا قالوا: «نعم» وضع يده على أيديهم ويقول: «عليك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله ﷺ لَتَفِينّ ببيعتي، ولتقاتلن عدوي، ولتنصحن لي في السر والعلانية» فإذا قال: «نعم» مسح يده على يده. ثم قال: «اللهم اشهد» فبايعه خمسة عشر ألفًا، وقيل: أربعون ألفًا. وأمر أصحابه بالاستعداد، فأقبل من يريد أن يفي له ويخرج معه يستعدّ ويتهيأ. فشاع أمره في الناس. هذا على قول من زعم أنه أتى الكوفة من الشام واختفى بها يبايع الناس.

وأما على قول من زعم أنه أتى الكوفة إلى يوسف بن عمر لمقابلة خالد بن عبد الله القسري أو ابنه يزيد بن خالد، فإنه يقول: إنه أقام بالكوفة ظاهرًا ومعه داود بن علي بن عبد الله بن عباس. وأقبلت الشيعة تختلف إلى زيد، وتأمره بالخروج، ويقولون: «إنا لنرجو أن تكون أنت المنصور، وأن هذا الزمان هو الذي يهلك فيه بنو أمية» فأقام بالكوفة.

وجعل يوسف بن عمر الثقفي يسأل عنه، فيقال: «هو هاهنا» ويبعث إليه ليسير فيقول: «نعم» ويعتل بالوجع. فمكث ما شاء الله. ثم أرسل إليه يوسف ليسير، فاحتج بأنه يبتاع أشياء يريدها. ثم أرسل إليه يوسف بالمسير عن الكوفة، فاحتج بأنه يحاكم بعض آل طلحة بن عبيد الله في ملك بينهما بالمدينة، فأرسل إليه ليوكل وكيلاً ويرحل عنها.

فلما رأى جد يوسف في أمره سار حتى أتى القادِسية وقيل الثَّعْلَبية[٣]. فتبعه

(١) الإقفال: الإرجاع.

(٢) المجمر: الجندي الذي طالت غيبته عن أهله.

(٣) الثعلبية: من منازل مكة من الكوفة بعد الشقوق وقيل الخزيمية، وهي ثلثا الطريق، وأسفل منها ماء يقال له الضويجعة على ميل منها مشرف. . . (معجم البلدان).

أهل الكوفة وقالوا: «نحن أربعون ألفًا لم يتخلف عنك أحد، نضرب عنك بأسيافنا، وليس هاهنا من أهل الشام إلا عدة يسيرة بعضُ قبائلنا تكفيهم بإذن الله تعالى» وحلفوا بالأيمان المغلظة، فجعل يقول: «إني أخاف أن تخذلوني وتُسلموني كفعلكم بأبي وجدي» فيحلفون له. فقال له داود بن علي: «يا ابن عم، إن هؤلاء يغرونك من نفسك، أليس قد خذلوا من كان أعزّ عليهم منك: جدك علي بن أبي طالب حتى قتل، والحسن من بعده بايعوه ثم وثبوا عليه فانتزعوا رداءه وجرحوه؟ أوليس قد أخرجوا جدك الحسين وحلفوا له ثم خذلوه وأسلموه، ولم يرضوا بذلك حتى قتلوه؟ فلا ترجع معهم» فقالوا لزيد: «إن هذا لا يريد أن تظهر أنت، ويزعم أنه وأهل بيته أولى بهذا الأمر منكم» فقال زيد لداود: «إن عليًا كان يقاتله معاوية بدهائه ومكره، وإن الحسين قاتله يزيد والأمر مقبل عليهم» فقال داود: «إني خائف إنْ رجعت معهم أن لا يكون أحد أشد عليك منهم، وأنت أعلم». ومضى داود إلى المدينة ورجع زيد إلى الكوفة.

فلما رج زيد، أتاه سلمة بن كهيل فذكر له قرابته من رسول الله ﷺ وحقه فأحسن. ثم قال له: «نَشَدْتُك الله: كم بايعك؟» قال: «أربعون ألفًا» قال: «فكم بايع جدك؟» قال: «ثمانون ألفًا» قال: «فكم حصل معه؟» قال: «ثلاثمائة» قال: «نشدتك الله: أنت خير أم جدك؟» قال: «جدي» قال: «فهذا القرن خير أم ذلك القرن؟» قال: «ذلك القرن» قال: «أفتطمع أن يفي لك هؤلاء وقد غدر أولئك بجدك؟» قال: «قد بايعوني ووجبت البيعة في عنقي وعنقهم» قال: «أفتأذنُ لي أن أخرج من هذا البلد، فلا آمن أن يحدث حدث فلا أملك نفسي» فأذن له فخرج إلى اليمامة.

وكتب عبد الله بن الحسن بن الحسن إلى زيد: «أما بعد، فإن أهل الكوفة نُفخ[1] العلانية، خُور السريرة، هرج في الرخاء، جُزع في اللقاء، تقدُمهم ألسنتهم، ولا تُشايعهم قلوبهم. ولقد تواترت إلي كتبهم بدعوتهم، فصمَمت عن ندائهم وألبست قلبي غشاء عن ذكرهم يأْسًا منهم واطراحًا لهم. وما لهم مثل إلا ما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إنْ أُهملتم خُضْتم، وإنْ حُوربتم خُرتم[2]، وإن اجتمع الناس على إمام طعنتم، وإن أُجبتم إلى مُشاقّة نَكَصْتم» فلم يصغ زيد إلى شيء من ذلك وأقام على حاله يبايع الناس ويتجهز للخروج.

---

(١) النفخ: الفخر والكبر.

(٢) خار: ضعف وانكسر.

وتزوج بالكوفة ابنة يعقوب بن عبد الله السلمي. وتزوج أيضًا ابنة عبد الله بن أبي العنبس الأزدي. وكان سبب تزوجه إياها أن أمها أم عمرو بنت الصلت كانت تتشيع، فأتت زيدًا تسلم عليه، وكانت جميلة حسنة قد دخلت في السن ولم يظهر عليها. فخطبها زيد إلى نفسها. فاعتذرت بالسن وقالت له: «لي بنت هي أجمل مني وأبيض وأحسن دَلاً وشكلاً» فضحك زيد ثم تزوجها وكان ينتقل بالكوفة تارة عندها، وتارة عند زوجته الأخرى، وتارة في بني عبْس، وتارة في بني نَهْد، وتارة في بني تغلب وغيرهم إلى أن ظهر.

ذكر ظهور زيد بن علي بن الحسن ومقتله

كان ظهور زيد ومقتله في سنة اثنتين وعشرين ومائة. وذلك أنه لما أمر أصحابه بالاستعداد للخروج، أخذ من كان يريد الوفاء بالبيعة يتجهز. فانطلق سليمان بن سراقة البارقي إلى يوسف بن عمر فأخبره. فبعث يوسف في طلب زيد فلم يوجد. وخاف زيد أن يؤخذ فتعجل الخروج قبل الأجل الذي جعله بينه وبين أهل الكوفة، وعلى الكوفة يومئذ الحكم بن الصَّلْت، وعلى شرطته عمرو بن عبد الرحمٰن من القارة[1]، ومعه عبيد الله بن العباس الكندي في ناس من أهل الشام، ويوسف بن عمر بالحيرة.

فلما رأى أصحاب زيد بن علي أن يوسف بن عمر قد بلغه حاله وأنه يبحث عن أمره، اجتمع إليه جماعة من رؤوسهم فقالوا: «رحمك الله، ما قولك في أبي بكر وعمر؟» قال زيد: «رحمهما الله وغفر لهما. ما سمعت أحدًا من أهل بيتي يقول فيهما إلا خيرًا وإن أشد ما أقول فيما ذكرتم: أنّا كنا أحق بسلطان رسول الله ﷺ من الناس أجمعين، فدفعونا عنه. ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفرًا. وقد وَلُوا فعدَلوا في الناس، وعملوا بالكتاب والسُّنة» قالوا: «فلم يظلمْك هؤلاء إذا كان هؤلاء لم يظلموك فلمَ تدعو إلى قتالهم؟» فقال: «إن هؤلاء ليسوا كأولئك. هؤلاء ظالمون لي ولأنفسهم ولكم. وإنما ندعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وإلى السنن أن تُحيا، وإلى البدع أن تُطفأ، فإن أجبتمونا سعدتم، وإن أبيتم فلستُ عليكم بوكيل» ففارقوه ونكثوا بيعته وقالوا: «سبق الإمام»، يعنون محمدًا الباقر، وكان قد مات. وقالوا: «جعفر ابنه إمامنا اليوم بعد أبيه» فسماهم زيد الرافضة. وهم يزعمون أن المغيرة سماهم الرافضة حيث فارقوه. وكانت طائفة أتت جعفر بن محمد الصادق قبل خروج زيد فأخبروه ببيعة زيد. فقال: «بايعوه، فهو والله أفضلنا وسيدنا» فعادوا وكتموا ذلك.

---

(١) القارة: اسم قرية كبيرة على قارعة الطريق وهي المنزل الأول من حمص للقاصد إلى دمشق، وهي كانت آخر حدود حمص، وما عداها من أعمال دمشق... (معجم البلدان).

وكان زيد قد واعد أصحابه أول ليلة من صفر سنة اثنتين وعشرين ومائة. فبلغ يوسف بن عمر، فبعث إلى الحكم يأمره أن يجمع أهل الكوفة في المسجد الأعظم يحصرهم فيه، فجمعهم فيه. وطلبوا زيدًا في دار معاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة الأنصاري، فخرج منها ليلاً. ورفعوا النيران ونادوا: «يا منصور» حتى طلع الفجر.

فلما أصبحوا بعث زيد القاسم الحضرمي وآخر من أصحابه يناديان بشعارهم. فلما كانوا بصحراء عبد القيس لقيهم جعفر بن العباس الكندي. فحملوا عليه وعلى أصحابه، فقُتل الذي كان مع القاسم، وارتُثَّ[1] القاسم وأُتي به الحكم فضرب عنقه. فكانا أول من قُتل من أصحاب زيد.

فأغلق الحكم دروب السوق وأبواب المسجد على الناس. وبعث إلى يوسف بالحيرة فأخبره الخبر. فأرسل جعفر بن العباس ليأتيه بالخبر. فسار في خمسين فارسًا حتى بلغ جبانة سالم، فسأل ثم رجع إلى يوسف فأخبره. فسار يوسف إلى تل قريب من الحيرة، فنزل عليه ومعه أشراف الناس. فبعث الريان بن سليمة الإراشي في ألفين ومعه ثلاثمائة من القيقانية[2] رجّالة معهم النُّشّاب.

وأصبح زيد فكان جميع من وافاه تلك الليلة مائتي رجل وثمانية عشر رجلاً. فقال زيد: «سبحان الله! أين الناس؟» فقيل: «إنهم في المسجد الأعظم محصورون» فقال: «والله، ما هذا بعذر لمن بايعنا» وسمع نصر بن خزيمة العبسي النداء فأقبل إليه. فلقي عمرو بن عبد الرحمٰن صاحب شرطة الحكم في خيله من جُهينة في الطريق فحمل عليه نصر، فقُتل عمرو وانهزم من كان معه.

وأقبل زيد على جبانة سالم حتى انتهى إلى جبانة الصائديين[3] وبها خمسمائة من أهل الشام. فحمل عليهم زيد فيمن معه فهزمهم. وانتهى زيد إلى دار أنس بن عمرو الأزدي، وكان فيمن بايعه، وهو في الدار. فنُودي فلم يجبهم. وناداه زيد فلم يخرج إليه. فقال زيد: «ما أخْلَفكم! قد فعلتموها! الله حَسيبكم!» ثم انتهى زيد إلى الكُناسة[4] فحمل على من بها من أهل الشام فهزمهم. ثم سار زيد ويوسف ينظر إليه

---

(١) ارتث: أي صرع ولم يمت بعد.

(٢) نسبة إلى قيقان: وهي بلاد قرب طبرستان، وقيقان أيضًا: من بلاد السند مما يلي خراسان وإليها تنسب الخيل القيقانية... (معجم البلدان).

(٣) في معجم ياقوت: الصيادين: وهي قرية تجاور الكوفة.

(٤) الكناسة: بالضم: هي محلة بالكوفة.

في مائتي رجل، فلو قصده زيد لقتله، والريان يتبع آثار زيد بالكوفة في أهل الشام. فأخذ زيد على مصلّى خالد حتى دخل الكوفة. وسار بعض أصحابه نحو جبانة مخنف بن سليم فلقوا أهل الشام فقاتلوهم. فأسر أهل الشام منهم رجلاً، فأمر به يوسف بن عمر فقُتل.

فلما رأى زيد خذلان الناس إياه قال: «يا نصر بن خزيمة، أتخاف أن يكونوا فعلوها حُسَيْنية؟» قال: «أما أنا فوالله لأُقاتلن معك حتى أموت، وإن الناس بالمسجد فامض بنا إليهم» فلقيهم عبيد الله بن العباس الكندي عند دار عمر بن سعد، فاقتتلوا فانهزم عبيد الله أصحابه. وجاء زيد حتى انتهى إلى باب المسجد. فجعل أصحابه يدخلون راياتهم من فوق الأبواب ويقولون: «يا أهل المسجد، اخرجوا من الذلّ إلى العزّ، اخرجوا إلى الدين والدنيا فإنكم لستم في دين ولا دنيا» فرماهم أهل الشام بالحجارة من فوق المسجد.

وانصرف الريان عند المساء إلى الحيرة. وانصرف زيد فيمن معه. وخرج إليه ناس من أهل الكوفة. فنزل دار الرزق. فأتاه الريان بن سليمة فقاتله عن دار الرزق. وخرج أهل الشام مساء يوم الأربعاء أَسْوَأَ شيء ظنّا.

فلما كان الغد أرسل يوسف بن عمر العباس بن سعد المزني في أهل الشام، فانتهى إلى زيد في دار الرزق. فلقيه زيد وعلى مجنبتيه نصر بن خزيمة ومعاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة، فاقتتلوا قتالاً شديدًا. وحمل نائل بن فروة العبسي من أهل الشام على نصر بن خزيمة. فضربه بالسيف فقطع فخذه، وضربه نصر فقتله. ولم يلبث نصر أن مات. واشتد قتالهم فانهزم أصحاب العباس، وقتل منهم نحو من سبعين رجلاً.

فلما كان العشي عبأهم يوسف بن عمر ثم سرحهم. فالتقوا هم وأصحاب زيد، فحمل عليهم في أصحابه، فكشفهم. وتبعهم حتى أخرجهم إلى السبخة ثم حمل عليهم بالسبخة حتى أخرجهم إلى بني سليم.

وجعلت خيلهم لا تثبت لخيله. فبعث العباس إلى يوسف يعلمه ذلك وقال له: «ابعث إليّ الناشبة» فبعثهم إليه، فجعلوا يرمون أصحاب زيد. فقاتل معاوية بن إسحاق الأنصاري بين يدي زيد قتالاً شديدًا فقُتل. وثبت زيد ومن معه إلى الليل. فرُمي زيد بسهم فأصاب جانب جبهته اليسرى فثبت في دماغه. ورجع أصحابه، ولا يظن أهل الشام أنهم رجعوا إلا للمساء والليل.

ونزل زيد في دارٍ من دور أرحب. وأحضر أصحابه طبيبًا، فانتزع النصل فضج زيد. فلما نزع مات زيد رحمه الله. فقال أصحابه: «أين ندفنه؟» فقال بعضهم: «نطرحه في الماء» وقال بعضهم: «بل نقطع رأسه ونلقيه في القتلى» فقال ابنه يحيى: «والله، لا يأكل لحم أبي الكلاب» وقال بعضهم: «ندفنه في الحفرة التي يؤخذ منها الطين ونجعل عليه الماء» ففعلوا. فلما دفنوه أجروا الماء عليه. وقيل: دفن بنهر يعقوب: سَكَر[1] أصحابه الماء، ودفنوه وأجروا الماء. وكان معهم مولى لزيد سِنْدي، وقيل: رآهم قصار، فدل عليه. وتفرّق الناس عنه.

وسار ابنه يحيى نحو كَربلاء. فنزل نِينوَى[2] على سابق مولى بشر بن عبد الملك بن بشر. ثم إن يوسف بن عمر تتبع الجرحى في الدور. فدله السندي مولى زيد يوم الجمعة على زيد. فاستُخرج من قبره فقُطع رأسه وسُيِّر إلى يوسف بن عمر، وهو بالحيرة، سيّره إليه الحكم بن الصلت. فأمر يوسف أن يُصلَب، فصُلِب زيد بالكناسة، هو ونصر بن خزيمة ومعاوية بن إسحاق وزياد النهدي، وأمر بحراستهم. وبعث الرأس إلى هشام بن عبد الملك، فصُلب على باب مدينة دمشق. ثم أُرسل إلى المدينة. وبقي البدن مصلوبًا إلى أن مات هشام وولي الوليد، فأمر بإنزاله وإحراقه.

وقيل: كان خِراش بن حَوشَب بن يزيد الشيباني على شرطة يوسف بن عمر، وهو الذي نبش زيدًا وصلبه. فقال السيد الحِميَري[3]: [من مجزوء الخفيف]

بِتُّ ليلي مُسهَّدًا ... ساهرَ العين مُقْصَدا[4]
ولقد قلتُ قولةً ... وأطلْتُ التَّبلُّدا:
لعن الله حَوشَبًا ... وخِراشًا ومَزْيَدا
ويَزيدًا فإنّه ... كان أعتَى وأعتَدا[5]

(١) سكر الماء: حبسها.
(٢) نينوى: بكسر أوله، وسكون ثانيه، وفتح النون والواو: هي قرية يونس بن متى عليه السلام بالموصل، وبسواد الكوفة ناحية يقال لها نينوى منها كربلاء... (معجم البلدان).
(٣) هو السيد الحميري الشاعر المشهور من ولد يزيد بن المفرغ الحميري، والسيد: هو إسماعيل بن محمد بن بكار بن يزيد المذكور، ولقبه السيد، وكنيته أبو هاشم، وهو من كبار الشيعة. وله في ذلك أخبار وأشعار مشهورة... (وفيات الأعيان ٦: ٣٤٣).
(٤) المقصد: المريض المشرف على الهلاك.
(٥) العاتي: الظالم، والأعتد: الشّديد والمهيّأ للظلم.

ألــــفَ ألـــفِ وألـــفَ ألـــفِ مــن الــلــعــن سَــرمَــدا
إنّـــهـــم حـــاربـــو الإلـــه وآذَوا مـــحـــمـــدا
شَــرِكــوا فــي دم الــحــســيــن وزيـــدٍ تَـــعـــبُّـــدا
ثـــم عـــالُـــوه فـــوق جِـــذع صـــريـــعًـــا مـــجـــرَّدا[1]
يـــا خـــراش بـــن حـــوشـــبٍ أنـــت أشـــقَـــى الـــوَرَى غـــدا

وأما يحيى بن زيد بن علي فإنه قيل فيه غير ما قدمناه. وهو أنه لما قُتل زيد قال له رجل من بني أسد من أهل خراسان: «إن بخراسان لكم شيعة، والرأي أن تخرج إليها» قال: «وكيف لي بذلك؟» قال: «تتوارى حتى يسكن الطلب ثم تخرج» فواراه عنده. ثم خاف فأتى به عبد الملك بن بشر بن مروان فقال له: «قرابة زيد بك قريبة وحَقُّه عليك واجب» فقال: «أجل، ولقد كان العفو عنه أقرب للتقوى» فقال: «قد قُتل وهذا ابنه غلام حدَث لا ذنب له، وإنْ علم يوسف به قتله أفَتُجيره؟» قال: «نعم» فأتاه به، فأقام عنده. فلما سكن الطلب سار في نفر من الزيدية إلى خراسان.

ذكر مسير يحيى بن زيد بن عليّ إلى خراسان ومقتله

قال: ولما سكنت الفتنة، سار يحيى إلى خراسان. فأتى بلخ[2] فأقام بها عند الحريش بن عمرو بن داود، حتى هلك هشام بن عبد الملك وولّي الوليد بن يزيد. فكتب يوسف بن عمر الثقفي إلى نصر بن سيار بمسير يحيى بن زيد وبمنزله عند الحريش، وقال له: «خذه أشد الأخذ» فأخذ نصر الحريش فطالبه بيحيى. فقال: «لا علم لي به» فأمر به فجُلد ستمائة سوط. فقال الحريش: «والله، لو أنه تحت قدمي ما رفعتهما عنه». فلما رأى ذلك قريش ابن الحريش قال: «لا تقتل أبي وأنا أدلك على يحيى» فدله عليه.

فأخذه وحبسه. وكتب نصر إلى الوليد يخبره به. فكتب إليه الوليد يأمره أن يؤمنه ويخلي سبيله وسبيل أصحابه. فأطلقه نصر، وأمره أن يلحق بالوليد، وأمر له بألفي درهم.

---

(١) عالوه: رفعوه وصلبوه.
(٢) بلخ: مدينة مشهورة بخراسان.

فسار إلى سرَخْس[١] وأقام بها. فكتب نصر إلى عبد الله بن قيس بن عُبَاد يأمره أن يسيره عنها.

فسار حتى انتهى إلى بَيهَق[٢]. وخاف أن يغتاله يوسف بن عمر فعاد إلى نيسابور، وبها عمرو بن زرارة، وكان مع يحيى سبعون رجلاً. فرأى يحيى تجارًا فأخذ هو وأصحابه دوابهم، وقالوا: «علينا أثمانها» فكتب عمرو بن زرارة إلى نصر يخبره. فكتب إليه نصر يأمره بمحاربته. فقاتله عمرو وهو في عشرة آلاف ويحيى في سبعين رجلاً. فهزمهم يحيى وقتل عمرًا، وأصاب دواب كثيرة.

وسار حتى مرّ بهَراة فلم يعرض لمن بها، وسار عنها. وسَرّح نصر بن سيار سلم بن أحوَز في طلب يحيى. فلحقه بالجُوزجان[٣] فقاتله قتالاً شديدًا. فرُمي يحيى بسهم فأصاب جبهته: رماه رجل من عَنَزة[٤] يقال له عيسى. وقُتل أصحاب يحيى من عند آخرهم. وأخذوا رأس يحيى وسلبوه قميصه.

فلما بلغ الوليد بن يزيد قتل يحيى، كتب إلى يوسف بن عمر: «خذ عجل أهل العراق فأنزِله من جذعه ـ يعني زيدًا ـ وأحرقه بالنار ثم انسِفه في اليم نَسفًا» فأمر به يوسف فأُحرِق ثم رضَّه وحمله في سفينة. ثم ذراه في الفرات. وأما يحيى فإنه لما قتل صُلب بالجوزجان. فلم يزل مصلوبًا حتى ظهر أبو مسلم الخراساني واستولى على خراسان، فأنزله وصلّى عليه ودفنه. وأمر بالنياحة عليه في خراسان. وأخذ أبو مسلم ديوان بني أمية، وعرف منه أسماء من حضر قتل يحيى. فمن كان حيًا قتله، ومن كان ميتًا خَلفَه في أهله بسوء.

وكانت أم يحيى بن زيد رَيْطة بنت عبد الله بن محمد بن الحنفية. وكان مقتل يحيى في سنة خمس وعشرين ومائة.

---

(١) سرخس: بفتح أوله، وسكون ثانيه، وفتح الخاء المعجمة، وآخره سين مهملة: مدينة قديمة من نواحي خراسان كبيرة واسعة وهي بين نيسابور ومرو في وسط الطريق، بينها وبين كل واحدة منها ست مراحل. . . (معجم البلدان).

(٢) بيهق: ناحية كبيرة وكورة واسعة كثيرة البلدان والعمارة من نواحي نيسابور تشتمل على ثلاثمائة وإحدى وعشرين قرية. . . (معجم ياقوت).

(٣) جوزجان: اسم كورة واسعة من كور بلخ بخراسان، وهي بين مرو الروذ وبلخ، ويقال لقصبتها اليهودية. . . (معجم البلدان).

(٤) بنو عنزة: بطن من أسد ربيعة. . . وديارهم عين التمر، من برية العراق، على ثلاث مراحل من الأنبار. . . (نهاية الأرب للقلقشندي).

هذا ما كان من خبر زيد وابنه يحيى، ثم ظهر عبد الله بن معاوية فكان من خبره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر ظهور عبد الله بن معاوية بن عبد الله ابن جعفر بن أبي طالب

كان ظهوره بالكوفة في سنة سبع وعشرين ومائة، في أيام مروان بن محمد الحمار بن مروان، ودعا إلى نفسه. وكان سبب ذلك أنه قدم على عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والي الكوفة فأكرمه وأجازه، وأجرى عليه وعلى إخوته كل يوم ثلاثمائة درهم.

فكانوا كذلك حتى هلك يزيد بن الوليد وبايع الناس أخاه إبراهيم بن الوليد وبعده عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك. فلما بلغ خبر بيعتهما عبد الله بن عمر بالكوفة بايع لهما الناس، وزاد في العطاء، وكتب ببيعتهما إلى الآفاق، فجاءته البيعة. ثم بلغه امتناع مروان بن محمد من البيعة ومسيره من الشام إليهما، فحبس عبد الله بن معاوية عنده، وزاد فيما كان يُجريه عليه، وأعده لمروان بن محمد إن هو ظفر بإبراهيم بن الوليد، ليبايع له ويقاتل به مروان. فماج الناس وورد مروان الشام وظفر بإبراهيم. فانهزم إسماعيل بن عبد الله القسري إلى الكوفة مسرعًا، وافتعل كتابًا على لسان إبراهيم بإمرة الكوفة، وجمَع اليمانية وأعلمهم ذلك فأجابوه. وامتنع عبد الله بن عمر بن عبد العزيز عنه وقاتله. فلما رأى إسماعيل الأمر كذلك، خاف أن يظهر أمره ويفتضح ويُقتَل، فقال لأصحابه: «إني أكره سفك الدماء فكفوا أيديكم» فكفوا وظهر أمر إبراهيم وهربه.

ووقعت العصبية بين الناس. وكان سببها أن عبد الله بن عمر كان قد أعطى مضر وربيعة عطايا كثيرة. ولم يعط جعفر بن نافع بن القعقاع بن شور الذهلي وعثمان بن الخيبرى من تيم اللات[1] بن ثعلبة شيئًا، وهما من ربيعة، فكانا مغضَبين. وغضب لهما ثُمامة بن حَوشب بن رُوَيم الشيباني. وخرجوا من عند عبد الله بن عمر وهو بالحيرة إلى الكوفة، فنادوا: «يا آل ربيعة» فاجتمعت ربيعة وتنمروا. وبلغ الخبر

(١) بنو تيم اللات: ومعناه عبد اللات، بطن من بني النجار، من الخزرج، من الأزد، من القحطانية. وبنو تيم اللات أيضًا: بطن من ضبة... (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب).

عبد الله بن عمر فأرسل إليهم أخاه عاصمًا. فأتاهم وهم بدير هند[١] فألقى نفسه بينهم وقال: «هذه يدي لكم فاحكموا» فاستحيوا ورجعوا وعظّموا عاصمًا وشكروه. فلما كان المساء، أرسل عبد الله بن عمر إلى عمر بن الغضبان بن القَبَعْثَرَى بمائة ألف، فقسمها في قومه بني همام بن مُرَّة بن ذُهل الشَّيباني، وإلى ثمامة بن حوشب بمائة ألف، فقسمها في قومه. وأرسل إلى جعفر بن نافع بمال، وإلى عثمان بن الخيبري بمال.

فلما رأى الشيعة ضعف عبد الله بن عمر، طمعوا فيه ودعوا إلى عبد الله بن معاوية. واجتمعوا في المسجد، ودعوا إلى عبد الله بن معاوية، وأخرجوه من داره، ثم أدخلوه القصر. ومنعوا عاصم بن عمر عن القصر فلحق بأخيه بالحيرة. وجاء ابنَ معاوية الكوفيون وبايعوه، فيهم عمر بن الغضبان ومنصور بن جمهور وإسماعيل بن عبد الله القسري أخو خالد. وأقام أيامًا يبايعه الناس وأتته البيعة من المدائن وفم النيل.

واجتمع إليه الناس، فخرج إلى عبد الله بن عمر بالحيرة. فقيل لابن عمر: «قد أقبل ابن معاوية في الخَلْق» فأطرق رأسه مليًا. وأتاه رئيس خبازيه فأعلمه بإدراك الطعام. فأمر بإحضاره، فأكل هو ومن معه وهو غير مكترث، والناس يتوقعون أن يهجم عليهم ابن معاوية. وفرغ من طعامه وأخرج المال وفرقه في قواده. ثم دعا مولى له كان يتبرك به ويتفاءل باسمه، كان اسمه إما ميمونًا وإما رَباحًا أو فتحًا أو اسمًا يُتبرَّك به. فأعطاه اللواء وقال: «امضِ به إلى موضع كذا فاركُزْه، وادعُ أصحابك، وأقم حتى آتيك» ففعل.

وخرج عبد الله فإذا الأرض بيضاء من أصحاب ابن معاوية. فأمر عبد الله بن عمر مناديًا ينادي: «من جاء برأس فله خمسمائة» فأُتي برؤوس كثيرة وهو يعطي ما ضمن.

وبرز رجل من أهل الشام، فبرز إليه القاسم بن عبد الغفار العجلي. فسأله الشامي فعرفه. وقال: «قد ظننت أنه لا يخرج إليّ إلا رجل من بكر بن وائل. والله، ما أريد قتالك ولكني أحببت أن ألقي إليك حديثًا أخبرك أنه ليس معكم رجل من أهل

---

(١) دير هند: دير هند الصغرى: بالحيرة يقارب خطة بني عبد الله بن دارم بالكوفة مما يلي الخندق في موضع نزه.. ودير هند الكبرى: هو أيضًا بالحيرة بنته هند أم عمرو بن هند... (معجم البلدان).

اليمن لا إسماعيل ولا منصور ولا غيرهما إلا وقد كاتب ابن عمر، وكاتبته مُضَر. وما أرى لكم يا ربيعة كتابًا ولا رسولاً وأنا رجل من قيس، فإن أردتم الكتاب أبلغتُه. ونحن غدًا بإزائكم، فإنهم اليوم لا يقاتلونكم». فبلغ الخبر ابن معاوية فأخبر عمر بن الغضبان. فأشار عليه أن يستوثق من إسماعيل ومنصور وغيرهما، فلم يفعل.

وأصبح الناس من الغد غادين على القتال. فحمل عمر بن الغضبان على ميمنة ابن عمر، فانكشفوا. ومضى إسماعيل ومنصور من فورهما إلى الحيرة. فانهزم أصحاب ابن معاوية إلى الكوفة وابن معاوية معهم. فدخلوا القصر. وبقي من بالميسرة من ربيعة ومضر، ومن بإزائهم من أصحاب ابن عمر. فقالوا لعمر بن الغضبان: «ما كنا نأمن عليكم ما صنع الناس بكم، فانصرِفوا» وقال ابن الغضبان: «لا أبرح حتى أُقتَل» فأخذ أصحابه بعنان دابته فأدخلوه الكوفة.

فلما أمسوا قال لهم ابن معاوية: «يا معشر ربيعة، قد رأيتم ما صنع الناس بنا، وقد أعلقنا دماءنا في أعناقِكم. فإن قاتلتم قاتلنا معكم وإن كنتم ترون الناس يخذلوننا وإياكم، فخذوا لنا ولهم أمانًا» فقال له عمر بن الغضبان: «إما أن نقاتل معك وإما أن نأخذ لكم أمانًا كما نأخذ لأنفسنا فطِيبوا نفسًا» فأقاموا في القصر والزيدية على أفواه السكك يقاتلون أصحاب ابن عمر أيامًا. ثم إن ربيعة أخذت أمانًا لابن معاوية ولأنفسهم وللزيدية ليذهبوا حيث شاؤوا.

وسار ابن معاوية من الكوفة فنزل المدائن، فأتاه قوم من أهل الكوفة. فخرج بهم فغلب على حلوان والجبال وهمذان وأصفهان والريّ[1]. وخرج إليه عبيد أهل الكوفة.

ذكر غلبته على فارس وأخذها منه وقتله

كانت غلبة عبد الله بن معاوية على فارس في سنة تسع وعشرين ومائة. وذلك أنه لما غلب على ما ذكرناه أقام بأصبهان. وكان محارب بن موسى مولى بني يشكر عظيم القدر بفارس. فجاء إلى دار الإمارة باصْطَخْر[2]، فطرد عامل ابن عمر عنها.

---

(١) الريّ: بفتح أوله، وتشديد ثانيه: وهي مدينة مشهورة من أمهات البلاد، وأعلام المدن كثيرة الفواكه والخيرات، وهي محط الحاج على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخًا... (معجم البلدان).

(٢) إصطخر: بالكسر، وسكون الخاء المعجمة: بلدة بفارس في الإقليم الثالث.. وهي من أعيان حصون فارس ومدنها وكورها... (معجم البلدان).

وبايع الناس لعبد الله بن معاوية. وخرج محارب إلى كرمان[١] فأغار عليها. وانضم إلى محارب قواد من أهل الشام. فسار إلى سليم بن المسيب، وهو عامل ابن عمر بشيراز، فقتله في سنة ثمان وعشرين ومائة، ثم خرج محارب إلى أصبهان إلى عبد الله بن معاوية، فحوله إلى اصطخر.

فاستعمل عبد الله أخاه الحسن على الجبال. وأقبل معه إلى اصطخر، فأقام بها. وأتاه الناس: بنو هاشم وغيرهم، وجبى المال، وبعث العمال. وكان معه منصور بن جمهور وسليمان بن هشام بن عبد الملك. وأتاه شيبان بن عبد العزيز الحَروري الخارجي، وكان قد خرج في جموع كثيرة، كما ذكرنا في أخباره فلم يتفق بينهما أمر. وأتاه أبو جعفر المنصور وعبد الله وعيسى بن علي.

فلما قدم ابن هبيرة على العراق أرسل نباتة بن حنظلة الكلابي إلى عبد الله بن معاوية. وبلغ سليمان بن حبيب أن ابن هبيرة استعمل نباتة على الأهواز، فسرح داود بن حاتم بكربج دينار. ليمنع نباتة من الأهواز. فقاتله فقُتل داود. وهرب سليمان من الأهواز إلى نيسابور وفيها الأكراد وقد غلبوا عليها. فقاتلهم سليمان فطردهم عن نيسابور وكتب إلى ابن معاوية بالبيعة.

ثم إن محارب بن موسى اليشكري نافر بن معاوية وفارقه. وجمع جمعًا وأتى نيسابور. فقاتله يزيد بن معاوية، فانهزم محارب. وأتى كرمان، فأقام بها حتى قدم محمد بن الأشعث فصار معه. ثم نافره فقتله ابن الأشعث وأربعةً وعشرين ابنًا له.

ولم يزل عبد الله بن معاوية باصطخر حتى أتاه داود بن ضُبارة مع داود بن يزيد بن عمر بن هبيرة. وسيّر ابن هبيرة أيضًا مَعن بن زائدة من وجه آخر. فقاتلهم معن عند مرو الشاذان، ومعن يقول: [من الرجز]

لـيـس أمـيـرُ الـقـوم بـالـخِـبِّ الـخُـدَعْ فـرّ مـن الـمـوت وفـي الـمـوت وقَـع[٢]

وانهزم ابن معاوية فكفّ معن عنهم. وقُتل في المعركة رجل من آل أبي لهب، وكان يقال: يُقتَل رجل من بني هاشم بمرو الشاذان. وأسروا أسرى كثيرة، وقتل ابن ضبارة منهم عدة كثيرة. وهرب منصور بن جمهور إلى السند، وعبد الرحمٰن بن يزيد إلى عمان، وعمرو بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان إلى مصر. وبعث ببقية الأسرى إلى ابن هبيرة فأطلقهم.

---

(١) كرمان: بالفتح ثم السكون، وآخره نون: هي ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان... (معجم ياقوت).

(٢) الخبّ: الخبيث المخادع.

ومضى ابن معاوية إلى خراسان. فسار معن بن زائدة[(١)] يطلب منصور بن جمهور فلم يدركه، فرجع. وكان مع ابن معاوية من الخوارج وغيرهم خلق كثير، فأُسر منهم أربعون ألفًا، وكان ممن أسر عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس فسبَّه ابن ضبارة وقال: «ما جاء بك إلى ابن معاوية وقد عرفت خلافةَ أمير المؤمنين» فقال: «كان عليّ دين فأتيته» فشفع فيه حَرب بن قطن الهلالي وقال: «هو ابن أختنا» فوهبه له. فعاب عبد الله بن علي عبدَ الله بن معاوية ورمى أصحابه باللواط فسيَّره ابن ضبارة إلى ابن هبيرة ليخبره أخبار ابن معاوية.

وسار في طلب عبد الله بن معاوية إلى شيراز فحصره بها. فخرج عبد الله منها هاربًا ومعه أخواه الحسن ويزيد ابنا معاوية وجماعة من أصحابه. وسلك المفازة على كرمان. وقصد خراسان طمعًا في أبي مسلم لأنه يدعو إلى الرِّضا من آل محمد، وقد استولى على خراسان. فوصل إلى نواحي هَراة وعليها أبو نصر مالك بن الهيثم الخُزاعي. فأرسل إلى ابن معاوية يسأله عن قدومه، فقال: «بلغني أنكم تدعون إلى الرضا من آل محمد» فأرسل إليه مالك: «انتسب نعرفك» فانتسب له فقال: «أما عبد الله وجعفر فمن أسماء آل رسول الله ﷺ، وأما معاوية فلا نعرفه في أسمائهم» فقال: «إن جدي كان عند معاوية بن أبي سفيان لما وُلد له أبي، فطلب إليه أن يسمّي ابنه باسمه، ففعل، فأرسل إليه معاوية بمائة ألف درهم» فأرسل إليه مالك: «لقد اشتريتم الاسم الخبيث بالثمن اليسير، ولا نرى لك حقًا فيما ندعو إليه». ثم أرسل إلى أبي مسلم يعرفه خبره. فأمره بالقبض عليه وعلى من معه، فقبض عليهم وحُبسوا. ثم ورد عليه كتاب أبي مسلم يأمره بإطلاق الحسن ويزيد ابني معاوية وقتل عبد الله بن معاوية. فأمر من وضع فراشًا على وجهه. فمات وأُخرج فصُلّي عليه ودُفن.

وكان عبد الله بن معاوية شاعرًا مجيدًا. فمن قوله: [من المتقارب]

ولا تَركَبنَّ الصَّنيعَ الذي ... تلومُ أخاكَ على مثلِهِ[(٢)]

ولا يُعجبنَّكَ قولُ امرئٍ ... يُخالفُ ما قالَ في فعلِهِ

فهؤلاء الذين ظهروا من الطالبيين في الدولة الأموية وقُتلوا. ثم ظهر في الدولة العباسية من نذكرهم إن شاء الله تعالى، والله أعلم بالصواب. وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليمًا.

تمّ الجزء الرابع والعشرون، ويليه الجزء الخامس والعشرون، وأوله:

الباب السابع من القسم الخامس من الفن الخامس في أخبار من نهض في طلب الخلافة من الطالبيين في مدة الدولتين الأموية والعباسية

---

(١) معن بن زائدة الشيباني الأمير بسجستان وليها عام أول وكان أحد الأبطال والأجواد وكان مع بني أمية متنقلًا في ولاياتهم مواليًا لابن هبيرة... (شذرات الذهب ١: ٢٣١).

(٢) تركبنّ الصنيع: أي تعملن العمل عنادًا.

فهرس المحتويات